

الموسوعة الشامية في تاريخ الجوار والصلابة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ ١٤١٦ هـ

الجزء الثالث عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

-- من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
-- الفتح القسي في الفتح القدسي -- للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلف لنا التعرف الى بعض المؤرخين المسلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صاحب النذل على تاريخه ، وكان العماد الاصفهاني - وفيما بعد ابن شداد - قد شارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فائق الأهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني ، ولد في أصفهان سنة ٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١ م ، وهو بعمره المئيد كان شاهد القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من أسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منها بالإدارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العماد قد نشأ في أصفهان ، وفيها تلقى علومه الأولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الإدارية ، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفاجئة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعده شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيا له السبل للعمل في إدارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولاه ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم - بحكم كونه اتقن نظم الشعر - بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » ونيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ - كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهنيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذب البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ - كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي التي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العماد استهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود . وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ - « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، أرخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٦٢ هـ / ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي أرخ فيه للدولتين الذورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بأكمله ، بل وصل إلينا من أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جل المتبقي من الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسها والمكان نفسه ، وذلك اعتمادا على المخطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في أكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العامة بالرباط ، وهي مصورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السوسي ، ولانعرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغته ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقة جدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصفحات : ١٧٠ - ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمان فوجدت فيها ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابن واصل هذه المصاعب فاقترضوا بالذقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجديد المذهب « سنا البرق الشامي » وسلف الباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة من هذا الكتاب فنشر الجزء الاول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتدائه بنفسه وبالأدوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها واودعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ما كتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقاريء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان - ١٩٩٥ .

من
كتاب البرق الشامي
للعلماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت به في بشار الانعام بالاخلاص والحمد القلوب والالسنه ، والزمان التي تقضت على انتظار احسانه الازمنة ، والعصر الذي أحسننت به الأمة المؤمنة ، وظهر فيه المكان المقدس الذي سالت لسلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة . وتمكنت من رقاب أعداء الله به السنة بأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السنة نزل نص النصر ، وكفت كف الكفر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهم ايدي الايد بالفتك ، وضائق بهم رحاب الملك ، وطمت للدين بالسواحل بحار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخسدت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من ذلك الاسرة تحت الرق ، وطالت ألوية الأولياء ، وسالت أودية الاوداء ، ونال الاحماء فضل رب السماء ، وتجلت مآزير النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب من الخبيث ، وانتقم التوحيد من التذليل ، وبنيت للدين اعانة العين ، واغاثت المغيث ، وشاع في الدنيا بمحاسن الايام الصلاحية حسن الاحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثروهم في البلاء من التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التي فجأتهم فعمتهم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلبي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحود وأقر من دأبه

الاذكار ، وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ
الأوكار ، واعتري ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي أيامه
والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى : « وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد
وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت
ووسعت الأقوال ، وحليت الفتوح ، وأملت الشروح ، وأهبيت
المنوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام بأحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته
الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته
الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله
متدركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب
بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقاصي مظهرات
مكرماته والجوهرم على عادات علاء عاداته (١) وسمات
حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى
المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الأسعاف ، وأمد
ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من
الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في
القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول
محرم في العسكر العرمم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب
الى العدو والبأس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل
جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها مذبح نحو الهيجاء
ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلها مطلع فلق فيالقته ، ومحيط مضارب
سرادقة ، ومجال رواده على بوارقه ، ومجر سوابغه مجرى
سوابقه ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقه ، ومحشر
معاشره ، ومربض أساده وقساوره ، ومخيم جيوشه ومجثم
عساكره ، وأمر ولده الملك الأفضل نور الدين عليا بالاقامة هناك
ليستدني اليه الأمراء الواصلين والاملاك ، ويجمع الأعراب
والأعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣) فرط الاستدراك ولايفارق لما
يلزمه الاحاطة بعمله الادراك ، ويضم لمجمع الاجناد
الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الاوقات ، وسار السلطان الى
بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وقد استقبل من الله
الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتماده
من قطع الطريق واخافة السبيل كل ما في المكنة • وهو على طريق
العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاء • وفي بحر
اللاج • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن
لاجين • ووالدته اخت السلطان مع جملة من الخواص
المقربين ، وأقام الى تلقي الحجيج • واستقبل محيا لقائهم
البهيج • ورأواهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلي
لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صفر • ووجه صباحته
لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم الى الكرك
استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها
نزول الحاص الحاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبرق • وذوقد
ونحرق • ونرمق ونومق • ونهرق ونزmq • ونفرب
ونشرق ، ونضايق ونضيق ، ونجمع البلاء على تلك البلاد
ونمزق ، حتى اجثت أصولها وفروعها ، واستأصل كرومها

وزروعها ، وقطع ما وجدته من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى
وقرى وفصم العرى ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر
الثرى ، وحلب حر النجع هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد بأشارة
رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر
المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضج الجد
والجدد ، ومضطرم اللهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج
الجمع ، أخذه بوارقه ورواعده ، بالبصر والسمع ، فقوي
الاستظهار واستظهرت القوى ، وساق وراقت مزاينه المجلوبة
ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة
الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها
بالنصر الأكمل والغنم الأجل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه
من كل فج عميق وضاق بوفودهم القضاء ، وفاض بوفورهم
القضاء ، واجتمع من دجى عتيرهم ومشى بنورهم الظلام
والضياء ، واشتبتكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب
من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل
من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم
انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على
حينه ، فرأى الملك الأفضل ان يشغلهم بغزوة يعددون منها
بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس
والشدة والماراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق
وبيار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى
عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق • وهو الذي
بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق • وعلى عسكر دمشق
وبلادها صارم الدين قايماز • وهو يفوق عضاء مضاربه الصارم

الهرماز والغضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلبوا
الليل • وجروا من السابريات النذل • وأجروا من الأعوجيات
السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر
صفر • وصباح النصر قد افتقر • فخرج اليهم الفرنج في حشود
جهنم وريوذي لملم • وجنود ابليس واسود تحمي العريس
وسراحين على سراحيب • وأهـاضيب تتحلل
أهـاضيب • وتعقل انايب وتشتمل شاييب • في الداوية
بأدواتها • والاسـبتار بأسوائها • والبـارونية
بـلاوائها • والتـركبولة وأربائـها • والـفرنجة
بـضرائها • ووثبوا في وثبات الآساد • وحملوا في ثبات
الأجواد • فلولوا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهدى أهل
هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لا يعتز بالأجر • لكن
أمـرائه الكرام اسـتطابوا الحمـام • فـلاقوهم بـقلوب
الصخور • وحبور الصقور • وياشروا بـصدورهم صدور
الأسنة • وغامروا بنـدورهم نـحور الأعنة ، فأتاهم الله النصر
المنى ، والظفر السنني ، وساقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا
فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا
وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في
قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقد
كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ما حسبوا • وكانت
تلك الذبـة الحلوة • والخـطوة الصـفوة • بـأكوره
البركات • ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات • واندرج ان الله
يعلي لأوليائه الدرجات • ويسـوق زمـر اعدائه الى
الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور
ونجول • ونجور ونذور وعلى الأعداء منا الدحور والذبور • فلما
قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللبـاث وعقدنا عزم
الانبجاث • واستمهلنا مهول الأوعات .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بالعساكر ، وانتظم عموماً الـالأوائل
والأواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقدر يقول للسلطان تعيش
وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشتمل المعسكر
على فراسخ عرضاً وطولاً ، وملاً بالملأ حزونا وسهولاً ، فما يرى الا
خيل صفون رحض كأنها حصون ، وزعف موضون ، وغضب
مسنون ، وفيض مكنون ، وحركة وسكون ، وركوب
وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحر من العسكر في البر
مشحون ، وضائق الأيام عن عرضها ، وتقاضت الليالي
بقرضها ، ونزلت جنود سمائها الى جنود ارضها ، فللمقانب
مناقب ، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكتائب من الشجعان
مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصائب ، وللريح
سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللسلاهب
جنائب . وللحقائق حقائق ، وللمواهب مزاheb ، وفي كل يوم انفاق
وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتلاء واعتلاق ، واعتناء
واعتناق ، واجتماع لا افتراق ، وانطلاق واندلاق ، وامتراء
وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفاق من
ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمير وعناق ، وسمر ودقاق ، وبيض
رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجوددهاق ، وعرض العسكر
في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشتمل على عدة
جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بها
الرياح ، ورماح شيلها المراح ، ورواسي سوارى ، وأعلام
جوارى ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمام ، وضارب بضرام
وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحاسم
بدسام ، ومقدام لهام قمقام ، وفارس للأسد فارس ، وللروع
ممار ممارس ، وللصبيح بما يثيره حابس ، وباشر بالكريهة غير
عابس ، قاذح لسنا السنايك قابس ، مناف لعداة الاسلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله
مظاهر ، ولعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، والفتخ
الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجسد
حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء
الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع . والتهب الجمر .
واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت
الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا
الحرر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنصرة
ثمر النصره أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الفرايايم
الغبير . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر .
واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله
في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحبيده وحدته . وبيضه
ومجره ولجه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب
ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها .
والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن
النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية
من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير
موضعه . ولكل منير مطلع . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل
منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم
مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم
مؤكبه . وقرر مـظانـهن في الركوب والنزول والذبوت
والحلول . ومعارج الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج
الحتوف . ومخارج المثين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والاسد
القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواتر . والفلك
المواخر . والسحب المواطر . والسحدم الدياجر . والحمس
الزوائر . والغر السوافر . والبيض الزواهر . والسممر
الشواجر . والبيض المغافر . والقوم المعاشر . والبلاد
والحاضر . والخف والحافر . والصلب والمساجر . والأكارم
والأكابـر . والسـعـاـعـي والسـبـاـئـر . والعـسـاـلي
والفاخر في عايات سفره . رغن الرغن لعابيات كفره . حزن الحزن
وهى . مغاوير هدى . دان لها التقدير الخمائى عدى . لنا منها
القدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتنقيبها محدشورة
عصائبها مذشورة ذوائبها . سائلة أوبيتها . جائلة أرضها . فهي
تخرق الخرق . وتغرق الفرق على الفرق . تملا الوهاد
بهوائها . وتكلا من العوادي بعوايها . وأناخت ليلة السبب على
خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجبها
مذسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللأقدام في لج الأقدام
رسوب ورسوف . وللين في فضله وعدله والكفر عسوف . وباتت
ذلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات
تصال . وللمضروبات هصال . وللمسوجات اجراء . وللشريجات
اغراء . وللعوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل
اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللاستقامة
صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة
اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . ولإقيام
اشتراط . وللاقتاد اختراط . وللعسكر بساط . وللعثير
اضباط . وللهمم اعباط . وللهمم ارتباط . وللبهم
اختباط . وللأمم احتياط . والعزم نشاط . وللحزم
يشاط . وللمغامم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم
مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في
الارتجاج والجو في الارتجاج . والدو في الامتراج . وقلب الكفر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج
لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو
الأمواج والأفواج . وتلتها أفق العجاج . وقوس الترائك لامعة في
الأبراج . ومضايق الزحام داعية إلى الانفراج . والأسد سابحة في
غاب القنا إلى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على
الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة
للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش
يخامر الدهر شاج . ونقود الرواحل من عقود الرواغب في
رواج . والشوارع نازعة للآجاء وأسراء من الجوام
واسراج . ونزلوا بثغر الأقحوانة حروض راء . وعقد غير
واء . وعزم غير باء . وعز متبأء ، وسعد متبأء . وحكم أمر
ناء . وعيون ذات أسباء . ووجوه نضر ذي اتجأء . ومضاء للأضاء
مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت
الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد
الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت
الأقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الإسلام . وأمكن من الكفر
الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحزام . وأقام
الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف الكفاء الكفاح مراح
الرماح . وتصافح الصفايح . وعرف كيف ركوب الجبال
للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة أيام إلى يوم الخميس . في ذلك
الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد
التأسيس . وأساة المضايق بالتفيس . وحماة الحقائق في طوري
الايحاش والتأسيس . وولاة الفياق المباشرة بالبشر يوم
التعبيس . ورماة المآزق في إدارة العذاب البئيس من بلاد الشرك
بدار الدريس . واقتداح زناد الأفراج . وانهاض جناح
النجاح . إلى إرداء أهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون
اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للأقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عادة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد
العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين
حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن القفاير
والتنافس الى التضافر والتواذس . وقالوا :نحن انصار
النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب
العصبية . وعمدة المعموية . وداروا بدرافاويق الوفاق . ونزعوا
الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا
على مرانه مطلع امانيه بالمخلص . ثم تزاوروا وتوازرروا . وتضافروا
وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستندفروا . والتأموا
واشلاموا . وتذمروا وتذمموا . وتخبطوا وتورطوا . واخترموا
واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا
وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي
ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب
الصليبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار
بالجب الجرار . وار يفلح الاوار . ضار بلاضار . مستمر مع
اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغومغوار . وباد بادبار . وناز
بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس . وفارس
للأساد فراس . وداوي داء خبيته عضال . واسبثاري له دون تباره
نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الغوار . وينزع
النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز
أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتهج ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز
في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب
القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الغضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ
لظي . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي
جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري
بصرامة . وناري يلفح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف
للشر مرازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم
جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف
اثر القي . كاف بعين البغي . جاف على النثر والطي . حاف في
الزعف راد بالزحف . ساق بالحذف . ناصب بالفعل جازم
بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم
مجترح محترف للموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبغ ملتفع ملثم
القطوب ملتفع مصطلم لثلم الخطوب مصططح ، وكل ذي فضفاض
وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء
والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل
لاسع بعاسل ، وكلب نابج وثعلب ضابج ، وسرحان سارج ، وذئب
جارج ، وزرق تمتش بزرق الاسنة ، وشقر تعبى الشقر بصرف
الاعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر
غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتكج جرائر ، ومبتكر جرائم ومشارك
عظائم رثبال ، وامعط مغتال ، وامرط ضال ، فعاموا في بحر
العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام
الوغى ، واصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج
المنيا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى
سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا
لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء
عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى النقع
بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة
الوقع ، واحتايوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق •
واسمعوا الصواعق • وقربوا السوابق • وأبعدوا الخوانق •
وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا
المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطال الشر
وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المزار ، وأخضرت الغبراء من
الحديد ، وأغبرت الخضراء من الصعيد ، وساحت
السيول ، وسالت الشعاب ، وتغايضت البحار ، وتضايقت
الرحاب ، وتموج بضراغة الغاب ، وأرعبت أيماض البروق
وأصعد الرعود ، فللكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختم
القتام بالفضاء في فض ، وغدران الفران في فيض ، والنجوم في
انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاع ، والعوامل
في ارتفاع ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب
والجيش شك ، والعيش شك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب
ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران
المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

وما زال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه
مستشيرا ، فأشار الأمراء ذووا الآراء بالصمود عن اللقاء
والحفاظة على نضار الاسلام بصون الذمء وحققن الدماء
وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة المزم في
الرقم ، وما بلغ الأملاك قبلك الا ما بلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد
ما أرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تفركم
تنقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة ، وهذه بلادهم قد خلت
منهم ، ونأت بقربهم ضياعهم ، فذشتغل بالآغارة على بلادهم
الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالغنائم
والسبايا والمرباع والصفايا ، وما نزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد
البلايا ، ونخلص من انسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الأيام غير مأمونة ، والأعمال غير مضمونة ، والجهاد فـرض فـرضه رسول الله في أرضه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضة ، ولا بد من هذا اللقاء أما وإمّا وإن الله اصدق القائلين : « ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فاننا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس. وطلبت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أربيان الوديان في الاجراء. واعتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العبدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقداء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق • وتقيد عنان الجوم من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر. وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مـسع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخير • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول : « الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا ومانبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخذوا الى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مـرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكثوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحر .

فلما عرف السلطان أنهم لا يبرحون • ومن قرب صـفـورية لا ينزحون وأنهم لا يهيجون الى الهياج • ولا يخوضون معه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العيسية على مدينة طبرية • وعلم
أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن
من قتالهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية
وحصرها • وابتدأ بها وابتدراها وجمع الرجال على أحد أبراجها
وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزع
عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالمة الاسلام • وبخلوها في جنح
الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدومة من
الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهراء غلال • فاحتترقت
أمتعة بأموال • وكبسوا رباعا وكسبوا متاعا • وأرهبوا
وأوهجوا مرضا وضرما • وأخرجوا وأخرجوا نعمما
ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد
ماتحويها فاعرة • وتحصنت القومصية ست طبرية في
قلعتها • ومعها بذوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع
الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم
سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم
ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا
وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا
واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مدجين • وفي بحر
اللام ملججين مدججين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث
مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيع شعاعه
المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيع ، ونصب الى الموت
يستريح • ومشتاق الى ملاقة المذون قد حثه التبريح • ومخرج
الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤذسه
المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل
مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند
للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي أنجز وعده • وأيد جنده وأبنا من --- رادنا القطاف • وأصفى من مرامنا النطاف • وأسنى لنا الالطاف ونهض بجباله الى جبالهم • وبرجاله الى رجالهم • وسار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقدام قدامهم • ووقف بصفوفه امامهم • وصد طـرقهم • وسد فلقهم • ورد عن الزحف فيلقهم • وأغرى غرامهم • وأضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما للغيظ منهم غيظ وقد قد الحر ، واستشرى الشر • ووقع الكر والفر • والأوار تأجج • وللارام توهج ، وللعدى شعل • وللردى شغل • والسعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شايط غرار • ومآل الشيطان قرار • والسراب طافح • والظمأ لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولا ولدك الكلاب من اللهب لهث • وبالعيث عبث ، وفي ظنهم أنهم يردون الماء • ويردون الذماء • ، فحالاتهم الحالة الحالية • وغالتهم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قطعت على الفرنج طريق الورد • وبلوا من العطش بالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين ، فكلبوا على ضراوتهم • وشربوا ما في اداوتهم • وشفـهوا ماحولهم من موارد المصانع • واستنزفوا حتى ماء المدامع • وأشرفوا على المصير الى المصارع • وبخل الليل وسكن السيل • وباتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقت ظنونهم • ولم يبق بهم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتمة المحتنة • وارتدوا من ماء الفرند • واكتفوا بماء جداول الأغـماد من الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقضاضهم الى
القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد
التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء
الأرواح نجاح النجاح، وشدوا حزم الانتشاء • وأعدوا حرم
الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في
العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجتذرات • ومن كل مايعوقها
برئت • وهذا لسنانه شاحذ • وهذا شههم موفوق • وهذا لحده
ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمه مفوق • وهذا شههم
موفوق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر
ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز
المناجز • والمحاجز الحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج
للسعادة • فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحرة انعامها
الطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية
أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديق • ومن
ظلام ممله بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره
مغفور • ومن يجور مابعده لاشراق سنا النصر يجور • ومن
ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الدور • وقد قابل بها فيها ظلمة
الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف
شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر
يفروح • وفي صباحها الفتوح • فمما ابهجنا بتلك الليلة
الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم : « قاتاهم الله ثواب الدنيا
وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة
والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة
سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين
متقاضي بالشفا علية • راع رياض الرضا رعيه • والله ناصر
الاسلام ومديله .

ذكر الذشاب ووصفه .

وسهر السلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب
بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات
نصالها • وكان ما فرقه من الذشاب أربع مائة حمل • فتنزل نص
النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي
يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ نشابه من تغالوق تفتح من باب
الجنة المغالوق • وتواضيع تخرق المضاعف الذسيح • وناوكات ذوات
نكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل تبل • ونشاب
في الأحداق ذي انشاب • وجروح الجروح • وخروج الروح • وسهام
الأشهر سهام الحمام وتذفير أقرانها الثغام . ونصل وصالها
تقطع أوصل نافق بكل حمس صال . ومطالوق نطلق بها سراح
الأرواح . ومقابل تكثر منها صعب الجراح . ومهرقات موفقات
مسدات ... الحساروق... (٥) المبررات وصناعات إلى المقبل
صايبات . ونواجز تعيد السباع قنافذ . وتجعل للنجيع
مناجع . وللمنون منافذ . وبوارق تمزق أهب المارق . وتطقم
وتنتقم من المارد المارق . ومريشات أوكارها الحدق . وأوكائها
الحلق . وفاصلات ناضحات أربية الردى . وناحلات فاضحات
أوردة العدى . وقاضيات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات
خرووق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات
راشقات شفاء المقاتل . وقائقات قنائعات مذفزار
المناسل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعات داعيات
للإجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات
الزكاية . ومضميات مصمات للفتك . ومدميات مديمت
البتك . وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على
الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات للدماء . مثيريات
للثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب
الجراد . واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد إلى
الأكباد . مرهفات من الهيف . مربعات بالهيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضلوع. مـارجات لدى الروع الراد
الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القلاع . بالغات
الشعور . عالقات بالتامور . محاقات للحدور . غاربات الغروب في
النحور . ورادات الصدور الى الصدور . قـاطعات
للحجاب . واقعات بالعذاب . مدمجات على الالتهاب . مغنيات
بالدماء على الطعان والضراب . ومـراسيل تـروى امام
العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدي
به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضه من العين في السواد
ومعتدل تحذو له العـوج . وبرق خاطف تحمس وراءها
المهوج . ومنزع لنزع المهـج وقطع الود . اخـطف مـن
الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى من
الحريض . واشبى من الطرف الغضبيض . وأعمل من السمر
والبيض . والسلطان يأمر . والحنايا تـوتـر . والمنايا
تؤثر . والاعنة تصرف . والاسنة ترهف . والحقائب
تنعض . والمقائب تعرض . والجاليشية تشمر . والجاوشية
تنصر . والسوابق تضمر . والسوابغ تذشر . والصلادم
تنضى . والصورم تنتضى . والسلاهب تجمع . والجنائب
تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغماء تنجاب . والنفوس
مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن
اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حطين وهو يوم السبت الخامس
والعشرون من شهر ربيع الآخر .

وأصبح الجيش على تعبيته . والنصر على تلييته . ووقف
العسكر في قلبه وجناحيه وميمنته وميسرته أطالابا متقاربة
متباعدة . وأنجادا متعاهدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا
متضاعفة متظاهرة . وبرز رجال الجاليش . وارتجـز دعاء

التحريض والتحرّيش . وصفا لباس الناس على الكمي
الكميش . وشرعت ثعالب الشرع في رعي الحشاشات رعي
الحشيش . وتطائر في الجو على سناجب الهمام جرّاد النصل
المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجب الأرواح
للتقيش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرت
اعنة عتاقها . وأشرعت أسنة دقاقها . وأطالت رقاب
رقاقها . وأبانت غايات سيقاقها . وأعلت رياحات
احتفالقها . وأحلت مذاق مذاقها . وأغلت أوساق
أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت
ظلال رواقها . ودارت كؤوس اصسطباحها للاعتباط
باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فرق
مذهبا لساعة افراقها . ذلك والفرنج راكبة الجرد . متراكبة
المدد . متكاثفة العدد . أخذت طريق البحيرة . بطوارق الحيرة . قد
احاط رجلها بخيلها . جارية الى القرار بسيلها . أمواجهها
ملتظمة . وأفواجهها مزبحة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتبهة
ملتهمة . ونفعها مديد . ووقعها شديد . وحدها حديد . وجدها
جديد . يأمنون المذنون . ويجذون الجذون . ويجرون الشمول
والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صدنا . وردت سيولهم
بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبالنا . وشوتهم
بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا سلوك نهج
الموت . وأنه لا مطمع في البقاء الا باستحلاء مطعم
الفوت . والسلطان قد رفق قلبه . ووقف الى الوثوق بنصر الله
قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضهم على حظهم من
الفتوح او الحدوف . ويعدهم من الله بنصره المألوف . ويغري المثين
بالألوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون . ويصدون العدو
ويردون . وكان له مملوك اسمه مذكورس من اقمار الفلك . ومن
شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قد
علقتة الحور العين لحسنه . واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القبول
في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الاتراب يشدقنه في
جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحدور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا
عفيفا . طاهر النبل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله
له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق . وركب عنقه
في الرق . وألهمه نصرة الحق . وهو راكب امام العسكر . شائم
غمام العثير . نامق عرف الكوثر . مستعفر تحت المغفر . مستنير في
سنا الاستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق
في الاقدام . فوثب بحصانه وثوب الضرعام . معتقلا الى الردى
ربينيا . ومشتملا للثرف مشرفيا . وممقطيا للاستقامة
اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها
ميدانه . وشكر لها احسانه . ونكل عنها اقارانه . ونفذ
طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه
حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما راه الفرنج
وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا
اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في
مستدقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه
ظنوا انه احد اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على
الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات
الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده
وجلاسه حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصت له في
ارداء اعدائه بنيته . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي
اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها . وتقبحهم
بقوايحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وترميهم بجنادل
صواهلها . وترديهم بأربية رداها . وتغريهم بما يغرون من المنون
عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور
من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرح بالفرنج
العطش . وأبت عثرتها تنتعش . ولانت تنتشور
وتتشوش . وتتحرى وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب
وتتودحش . وتنشط على أنها تبسطش . فتجد الطررق
مصدوبة . والسبل مسدوبة . والمسالك محدوبة والمهالك
مورودة . وكان الذسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش . فتأجج استعارها . وتوهج أوارها . فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بالثلاثة الأقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصوا من ورطة الاحتواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضت صقور بأستهم القشاعم . ولقيت العظام العظام . ودارت بمساعير الجحيم دوائر السعر الدواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بها وأزعجوا . وهاجوا وأوهجوا . وماجوا ومـوجوا وأجـوا وأجـوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واره غيه انه متورط في غيائته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واهت اصلايها صلبانهم . فافكر القومص كيف ينجو ويتخلص . فقال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصلهم من الجملة . فاجتمع هو وموازروه . وجملة من المتقدمين هم مضافروه . وصاحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتوامروا على انهم يحملون ويلفون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بذقوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفوا ان القومص اخذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهذوا وهانوا ثم اشتدوا وما لانوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرنمة هم شرنمة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واستقبلوا واستقتلوا . واستلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجا . ولا اصابوا لمن جاء لمصابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيها غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغدر . بل طاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء . وصببنا ماء الحديد

للإطفاء . فزاد في الإنكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار
عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهنية في
الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فخطوا خيامهم على
غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام
بضرب الهام . وازلنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا
ملتزا . وذقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكناهم . واحتست
اذية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلاً الكلا . واكتست
عرائس الهدى للعلی من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفدريق
المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا ويل الوبيل . فالهب عليهم
يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيض . ومنابع الكفر
تفيض . وملاحم الاسلام تفيض . والنفوس تقع . والرؤوس تطير .
والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشراك
تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراحل الراجل والفارس
تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست
شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا
الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى
بطون النمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك
الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب
والذئب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك .
وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه .
وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كمامته
وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملاهم جهنم . وملاك عليهم الصليب
الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب ساليا .
ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واتخذوا بالضرب الدراك .
فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخدمون ويحملون وللوثوب يخفون .
وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون .
ويردون وهم لا يدرون . ويعقلون وهم لا يعقلون . وقرم بقوي
القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلقها . واونه بالبري يعرها . ومرة بالسبي
يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهم
وابرذسهم . فتم اسر الملك . وابرذس الكرك . واخي الملك جفري .
واوك صاحب جبيل، وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة
وصاحب مرقية . واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن
الاستبارية ومعظمها . ومن البارونية من اخطا به البال لما عز
الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس . وقوي بنا
الرجاء ومنهم اليأس . وعروا من ملابس العز . وضفا عليهم من
ملابس الصغار اللباس . وتعرضت للسوء في السوا وفي طول
حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد
بهم حكم القضاء لم يجدهم الاحتراز والاحتراس . ورسفت
وارسفت الانفس والانفس . وانعقد الاجماع بتحليل تركيب
جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسلام بكسرهم .
وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتل قال : ما هناك اسير .
ومن عاين الاسرى قال : ما هناك قتيل . ومذاستولى الفرنج
بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . فآله عز وجل
سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهده من التوفيق
لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسلوك . ونظم له في حتوف
اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر
الاثير . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا
اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو
والسوم . غير ان هذه الذوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة .
ولمعاد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الواقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم ما
دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى
قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمى اليه غير مفيد . لكن
فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهم - وكانت
الوفا - ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطنع والرمي لمركوبه
كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولا مورد الروح سائبة

ولالنار الروح شابة . وغنمنا ما لا يحصى من بيض مكذون وزغف
موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح
كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون .
واستخرج من كنز مدفون . و حاصلة . و ... (٦) تحقق اهله .
ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من
عدة ورجال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا
الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال :
لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه
محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من
العمارة ليتوصلوا الخارجيين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال
التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها .
فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على
احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي
حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة
والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا
بسياسته محروسة . والبلاد بحراسه مسوسة . ورايات الكفر
بذكاياته مذكوسة . وايات الدين بهدايته مانوسة . والمواضع
معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع
مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرفتهم تذكرت
معرفتهم . وتكرت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلب
سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة .
وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائضا لاستخراج
جواهر مقاصدهم لجج الحاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي
وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في بين الاخلال . وملة
الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فما
ابعدوا غريبا وما ابعدوا قريبا . ولا اعجبوا بابيا . ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعمام الأصفهاني الكاتب

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن
الرشد ما يكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم .
ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث
وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا
مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فإذا وهو الذي
بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم) (فصلت : ٣٤) . والحمد
لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله
الموفور . وقبل منا عفو ذواتنا المنزور . فلا يكافنا من الشكر فوق
الطاقة . ولا يطلع من النعم الطبيعة إلا وراءها من المزيذ الساقه .
وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن
الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدما ينتاب منتابه راجيا
وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل
حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير
ذكرنا . وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن
الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عينا وبلغنا . ومتجرعنا
ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمما . وتارة يحيط به قولا
مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب يذفذ نور الذكر من ظلمات
ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان ينجي ملكه بنغمات
مسموعة . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه
مسارحه . وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن
يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإننا لانرضى بعفو
استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا وذؤدي إليه
ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره
على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به .
فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترا به .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولا صدق المراد . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصحابه ولالة الحق . وقضاة الخلق . ورتقة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفرق . وفتحة الغرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها . وأخمد عبدة نيرانه أن يطعموها حطباً ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجداً ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصار . ومنهم الساجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر . وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والباديء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بالمودة التي قدمها والفضل للأقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون الى الفرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التي نوردها . وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الاولى . وإما مستفتحة بمعقب من الدول الاخرى . فلا أمة من الأمم ذوات المال . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . يذقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصب به معالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الآخر ذكر الاول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الاصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم . لأدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراهم من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة الذشر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرًا بعد دهر . وثوى وأنشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المدام هي الفاضلة . ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها . وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومهم . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقسام النزع مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلاًشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه يندسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفاً نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلوب بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ الذبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وأبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقبل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق وأخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنزلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخوا بحرب عبس وذيبيان ابني بغيض
وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سنة . ثم
أرخوا بعام الخناب قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخناب

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخالق وعام
الذئاب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربع حروب ذكرها
المؤرخون . وأسندها الراون ، وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام
بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين
وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ
الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام .
وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ
متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلم . ودفع الله الناس
بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهياتة يوم خلق الله السموات
والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس
ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي
أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من
بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام
الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمدتها
بالقيامة معذوق . وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع
والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت
المقدس وقائمه السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتسفر عن أهلتها
دادىء المداد وتذشق . وهي وإن كانت هجرة الاسلام إلى القدس

ثانية . فقد كان ادثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقي الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقي الكرّتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نثر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن نثر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ما كان يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسول عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمة . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيدبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استندس . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تدوعت أشكاله الرائعة . ولا طبعت سيوفه هذه القاطعة . ولا نسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لا تعرف إلا مشيدة لا مجلدة . والمنجنقات لا يتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقارن لا تتراجم بالنيران المذكاه . والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمئة وهي للملك المعترك . وكثرت معائنه بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجيديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصالت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست ورائت الفتن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأبنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع
هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه .
والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في
الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من بيارهم يخطبون غاشية
الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية
الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متدورعين فلا
ترى أعجب من أن تري استباحة ورعية . وزين لهم الشيطان ما
كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكاليفات فلا
ينزع الحديد لوضوء ولا مسح . واستشعروا لبوس البوس فلم
يلبسوا وجها إلا مزور الشفاه على القسوط بلا بشر ولا مزج .
شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالدون . زرقا كأنما
عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من
قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم .
واشتعلت نار جهلهم في فحم نذوبهم . تستعيز المردة من مردتهم .
ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ .
جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لا يفقهون بها
ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام
بل هم أضل أولئك هم الفافلون) (الاعراف : ١٧٩) . خلق الله
الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين
قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة
لا تستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجمود في
الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم
تخلع الاظلام . وزابت أيامهم الايام خبالا فتنازع الناس طرائف
الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين
كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما
نسبهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨)
(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل
ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام
تمخض وتمطل بالزبدة . والاسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة . والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها . وأظهر الآية التي لا أخت لها فذوقول هي أكبر من أختها . أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها . وجاءت بواحدتها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد . والشمس دينار . والقطر دراهم . والأفلاك خدم . والنجوم أولاد . صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهو سبحانه أكرم بالذوال . منا بالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقد قال : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قال : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أني لا اضيع عمل عامل) (آل عمران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قال : (ما على المحسنين من سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل

في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل

سبق الجود ما سأل

وليصح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو إلا فتحة فتح والدم ذائب وفتح والذهب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جيذا وزاد لأنه ضرب بالسيف التي كسرهما ثم ضربها . واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهباً وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فوهبها . فكل معاد معادي إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود إلا هذا المداد . (أفسح هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجود من قبل المذائح .

الناس أكيس من أن يمدحوا ملكا .
ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا أن يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأننا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقيه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بانه فروقه . وإسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكننا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقول للقلم إذا فاخره السيف (إن شائئك هو الأبتقر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكسر رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست ببعيد في تقييد هذه المفاخر . وتشبيد هذه الآثار . من رجال الطعن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . وواجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه
وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى
وأخطب . ومن سهامهم أنجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب .
ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من ذقعههم أغلى وأغلب .
وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت
منه مالا يغمد ولا يعمد . وأثار السيف من الجراح قد رقا دمها
وآثاري من الذكر لاتخمل ولا تخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر
بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت
الأيام سحباً . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على قضة النجوم ذهباً .
فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لا قول يؤثر مهما عاش اليوم
عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية .
وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى
أيوان كسرى وسينية البحترى في وصفه تجدوا الأيوان قد خرت
شعقاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحترى قد بقي بها اسم
كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح
بين الأوصاف الغاية . وتناوب بين السمات السامية . للإشارة إلى
من ينزه على مسماه . ويذوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت
من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما
يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضله وصفه
الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام
سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس
أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام
المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن
النخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر
بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي
الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر
ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله
أبي جعفر هرون بن الامام المهدي بالله أبي عبد الله محمد بن الامام
المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي
الايام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاريها للقضاء مضاه . فما
أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها
ندى ونوالا . وأبعد ما مدى ومنا لا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى
جني رفسها . وأفهم ريا رياض فضائلها . وأفهم حيا حياض
فواضلها . واسع سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها
مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
ناصر دعوته . وداعي نصرته . وولي الطائع . وسيفه القاطع
والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر
على الآباد بفرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد
معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ
والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على
جلالة قدره . وتنوينا بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل
الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال
لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه
بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو
القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث
وثمانين وخمس مائة بدأت بها . وأنشأت رياضي بسحبها . وما
شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي
عهدته . وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على
أس ما تبينته فبينته، وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا
ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط .
وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة؛ وكتب الملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد .
واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت
مستهل المحرم قبل استنجد الجند . واستحشاد الحشود .
وإصحار الأسود . واحضار البيض والأسود . مضي العزم ماضي
العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود .
وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج
اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب
الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس
الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب
الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار
خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا
حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . وبخلوا إلى
أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر
السلطان وصول العسكر المصري المستدعى . ورعى منه حصول
العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده .
فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده
عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمع العساكر
الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى
الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق .
ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجود بالمعدوم . وأتي
بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع .
واستأصل الأصول والفروع . حتي أقوت من الأقوات . واستعرت
الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت أجال الأرزاق . وانحلت عرا
الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسار إلي
الشوبك فأسار به شوبا . وألحقه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع
ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع .
وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر
الثرى ويشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون
مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها
المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعمرم العرم . والهام الملتهم . والجيش الجأش . والترك والأكادش . والجذود والبذود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعاذقة العدى . ظلمات إلى ورد الوريد وما أحسن حلبي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعزره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهاز الفرصة واحرز الحصاة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرى الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهام الهمام . والاسد الاسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكري دمشق قايمان النجمي ، وعلى عسكري حلب دلدريم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصباحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . ولداوى دوي وللاستباري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض القضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايمان النجمي في صدورهم . وأشرع الأسنة الى نحوهم . وروى الهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكثرث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدريم بالوجه الابيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الفبار . وقد عم الفرنج القتل
والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله
حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص . واخلفت
رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه الذوبة بلا ذبوة . والهبة بلا
هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه
البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك
من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة
بالنصر . وأحسنت الألسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم
يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من الزكاية في العدو
يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال
بالنجاح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل
السير بالسرى وخيم بعشتر . ففصت بسيول الخيول الوهاد
والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما
رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان
يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (وله جذود
السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور
الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم
كالليل عجا . وليل كالיום ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت .
وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في
صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار
المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب
راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض .
وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث .
وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم .
وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب
لأنحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن
حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم
مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز
إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلاف مذيعث . وحلف منتكث .
ووقع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استندوا

حين حينهم . سـعـوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأذنة . فاصطحبها بعدما اصطالحا . وأصبحا بعد ما جمحا . وتجاوز الفرنج وتجاوزوا . وتأمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى بنا منه الوها هوى . وعود إذا عادته الأذى ذوى . فالدمسح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لواننا اللاواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بشار . ولقرن الباروني من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاهد والمعازل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلاموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القساطع ويقاطعوننا . وطالما ناصفوننا وما صافوننا . وهادونا وهادونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسر كم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغة والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك : أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت للخور رخو . والخشية حشو . وأنا لا بد أن أصدمه وأصده . وأكده . وأراده حتي أرده . وأقيم صليب الصلابوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحدش والذشر والطبي والذشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلاف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما. وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفذوا في ضرمه • وتسمنوا بورمه • وصدوا بسقمه ورقوا في سلمه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١) ملكهم هذا ولا يكرثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معاررا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرک والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفيه مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لا يستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبته كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعت على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • ورأى غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليس بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتضى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم
مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه •
ولا يغيب جمعه ولا يبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماسة
من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا
بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة موارينا ومصادرنا •
ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع
اعنتنا • وميادين جربنا • وبساتين وربنا • ومواقف صروفنا •
ومصارف وقوفنا • ومرامي مراننا • ومجالي مجالنا • وقوى
الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح
المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • وهب الجياد
واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر
الخزائن • ونذل الكنائن • وانفق النخائر • واستتد كرائمها
والاخاير وقسم احوال الذشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء
الجعب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد
الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب •
وقوى القى—واطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا
محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت •
وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابرامله • وفاح نشره •
ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وابقن بالظفر وظفر
باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضح
عرايه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء بين الدين • وانس
ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه
السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح
للأسراء • وأجم العرب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مساييره •
والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد
مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره •
والاسلام شاكركه • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيئة التي
قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهذبة • والسلاهب المجنبة • والصوائب
المجعية • والقواضب المقرية • والثعالب المذرية • واللهانم
الهائمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على
خسفين • وقد ابني الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر
وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة •
والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة •
والقلوب بالاخلاص عامرة • والالفس للانس مسامرة • والاقدام
بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبحت سائرا ونزل على الاربن بئثر الاقدوانة • بعزم
الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط •
وضاق ببساط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب
اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن
المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج •
وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج •
واعاد الاقدوانة رياضاً نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد
وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات
كأشجار البساتين • ورايات صفراء تخفق بعذابات الياسمين •
والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران •
ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج
كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقدوان • وجبب ترائك على بحور
الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين •
والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود
الضوامر الزواجر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتامة
النائر سروج السرجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات
اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا
بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاباش • ورتبوا الجيش •
وثبتوا الجاش • وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل •
ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب
الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصـالـبوا
الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن
العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين
الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد توافوا على صعيد •
ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لايرومون حركة
ولايريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم
ويشرف عليهم • ويراميهم • ويذكي فيهم • ويتعرض لهم
ليعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله •
فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم
القتل في مضاجعهم • وعايذوا مقام صارعهم • في سـوقهم الى
مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبذوا عما له تشجعوا •
فراى السلطان ان يطيب ريه • من طبرية ويشرف على خطتها
بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على
الاردن اردان الربينيات • واطلع الذق المثار من البحر بحوافر
الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات •
فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج •
ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى
الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب • وثبوا
بهم وثوب الاسود بالارانب • وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا
في عونها • عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خـواصه ، وذوي اسـتـخلاصه . واحضر
الجاندارية والنقابين . والخراسانية . والحجارين . واطاف
بسورها • وشرع في هدم معمرورها . وصدقها القتال . وماصدق
عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ
النقابون الذقب في برج فهدوه وهدموه . وتسـلـقوا فيه وتسـلـمـوه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العدو معتكر .
وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيتها . ولما
سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد
جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا تعود بعد اليوم .
ولا بد لنا من وقم القوم . واذا اخذت طبرية اخذت البلاد . ونهبت
الطراف والتلاد . وما بقي لي من صبر . وما بعد هذا الكسر لي جبر
وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وما حاضه فما
ماذقه وواذعه فما راذعه . وواعد فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره
وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحيه . واتباع غيه .
واشباع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبرته .
ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا .
وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار . ولبوا الثأر .
وقدموا للنزل بالدار البدار . وذلك يوم الجمعة رابع عشرين ربيع
الآخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه .
وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل
المخطوب . وجاءنا ما نريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد . والحد
الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صحت كسرتهم .
وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع .
ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم
الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون الى طبرية
بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد ماجت
خضارهم . وهاجت ضراغمهم . وطارت قشاعهم . وثارت غماغمهم
وسدت الافاق غمائهم . وشاقت ضاربها جماجمهم . وهم كالجبال
السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزحمة .
وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى
الضو . ودوى الدو . والفضاء منفض . والقضاء منقض . والثريا قد
استزار الثرى . وجرنيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحوافز
للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . وذئاب
النياد واجلاد الجلال قد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فرتب
السلطان في مقابلتهم اطر اطلابه . وقصر على مقاتلتهم اربابه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . وللقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتذليل مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر الذفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار . وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلال . وبرزت البيض من ملائها في الملا عارية . ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية . فرجا القرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتمهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا . وناشبههم الذشاب فعادت اسودهم تنفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . والقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطلبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقة قبل اتساع الخرق . وافلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوعي . ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وماونى . ثم استجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حوالىهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وقلت حدود الرماة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشغلوا عن اصل الحياة وفرعها . وترجوا خيرا فتـرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها . واسر الشيطان وجذوده . وملك الملك وكذوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاستبارية . واحضر الملك كى واخوه جفري . واوك صاحب جبيل وهنفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهو اول من وقع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لا عجلن عند وجدانه عدمه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له: كم تحالف وتحذث . وتعهده وتنكث . وتبرم الميثاق وتدنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال الترجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وما سلكت غير السنن المملوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سكرة الرعب منتشيا . فأأنسه السلطان وحاوره . وفتا سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبه . وامن قلبه . واتى بماء مثلوج ازال لهثة وأزاح من العطش ماكرثه . وناوله الابرنس ليخدم ايضا لهبه . فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أننا . فلا يوجب ذلك له مني أمنا . ثم ركب وخلاهما . وبنار الوهل اصلاهما . ولم ينزل الى ضرب سرادقه . وركزت أعلامه وبيارقه . وعادت عن الحومة الى الحمى فيالقه . فلما دخل سرادقه . استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه . وحين صرع . امر برأسه فقطع وجرد برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامرہ الجزع . فاستدعاه واستدناه
وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته .
وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها
عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم
السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودوا
فعادوا من النكد . فما اقلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من
اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلا الملا بالاسرى والقتلى . وانجلى
الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة
القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت
حطين تلك الجيف عن متنها . وطاب نشر النصر بنتنها . وعبرت
بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاء . بالعراء عراة . ممزقة
بالمزق . مفصلة المفاصل . مفرقة المرافق . مفلقة المفارق .
محذوفة الرقاب . مقصوفة الاصلاب . مقطعة الهام . موزعة
الاقدام . مجدوعة الأناف . منزوعة الاطراف . معضاة الاعضاء .
مجزاة الاجزاء . مفقوعة العيون مبعوجة البطون . مخصوبة
الضفائر . معضوبة المرائر ، مبرية البنان . مفرية اللبان مقصومة
الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة
النحور . منصفة الاجساد . مقصفة الاعضاء . مقلصة الشفاه .
مخلصة الجباه . قانية الذوائب . دامية الترائب . مشكوكة الاضلع
مفكوكة الاذرع . مكسورة العظام . محسورة اللثام . بائدة
الوجوه . باية المكروه . مبشورة الابشار . معشورة الاعشار .
منشورة الشعور . مقشورة الظهور . مهدومة البنيان . مهتومة
الاسنان . مهركة الدماء . مرهقة الذماء . هاروة الذرى . واهية
العرى . سائلة الاحداق . مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة
الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللببات . عديمة الارواح .
هشيمة الاشباح . كالحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار .
وصارت تلك المعركة بالدماء ادماء . وعادت الغيرة حمراء . وجرت
انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخباثت المظلمة وجه الدين المطهر .
فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث . وما الهب عذابات العذاب
في تلك الجثث . وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث . وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذا وحساب من قتل فقد
حصرت السنة الأمم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف
اطناب الخيم لقيده وشده • ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين
يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس •
وهناك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو
الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي
الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس • والرؤوس تحت
الاخامص • ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص • فكم اصيد
صيد • وقائد وقيد • ومشارك مكشر • وكافر مفكر • ومثلث
منصف • ومكيف مكثف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملاك
مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب
في الكبول • ومغتال في الغلول • وحر في الرق • ومبطل في يد المحق •

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صليب الصليبوت • واهلك دونه اهل
الطاغوت • وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع • سجد له كل نصراني
وركع • وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها
معبودهم ومسجودهم • وقد غلفوه بالذهب الاحمر • وكللوه بالدر
والجواهر • واعدوه ليوم الروع المشهود • ولموسم عيدهم الموعود •
فاذا اخرجته القسوس • وحملته الرؤوس • تبادروا اليه • وانثالوا
عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخاف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في
نفسه التصرف • واخذ اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب
لهم في ذلك المعترك • فان الصليب السليب ماله عوض • ولا لهم في
سواه غرض والتأله له عليهم مفترض • فهو إلههم • وتعفر له
جباهم • وتسبح له افواههم • يتغاشون عند احضاره • يتعاشون
لابصاره • ويتلاشون لاظهاره • ويتغاضون اذا شاهده •
ويتواجدون اذا وجدوه • ويبذلون دونه المهج • ويطلبون به الفرج بل
صاغوا على مثاله صلابنا يعبدونها • ويخشعون لها في بيوتهم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليبيب الأعظم عظم مصابهم . ووهت
اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما .
فكانهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم
العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان
على صحراء طبرية كالاسد المصحر . والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

ونذب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا .
وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته
وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بذسائها ورجالها
ورجالها . وسارت الي طرابلس بلد زوجها القومص بمالها
وحالها . وغادرت طبرية أهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها
صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا الملك
الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتيارية من
ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح
بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتيارية ، وقال : أنا أطهر
الأرض من الجذسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا
خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وأمر بضرب اعناقهم .
واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم
والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل
واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه
باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر .
ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك
القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكلم وعد انجزه . وحمد احرز .
واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعنق اليه بعنق براه . ونصل
خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه
لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للواء طواها . وكفر أماته لاسلام أحياء . وشرك
هدمه لتوحيد بناه . وعزما مضاهها . لأمة ارضاهها . وعدو قصمه .
لولي عصمة . وسير ملك الفرنج وأخاه وهنقري وصاحب جبيل
ومقدم الداوية وجميع اكابرهم الماسورين الى دمشق ليودعوا
السجون . وتستبدل حركاتهم السكون . وتفرقت العساكر بما حوته
أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا .

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث ميلا
للطيب . مزيلا للخبث . وسار عسكره . وثار عثيره . وظهرت
راياته . وبهرت آياته . ونعرت كوساته . وصاحت بوقاته . وجالت
خيوله . وسالت سيوله . وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته
وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه . وحفرت متوافر الصلاد م
أصلاب الصلاد الصلاب . وفصحت بساعراب الحماحم صواهل
الجياد العرب . والاسنة مشرعة . والأعنة مسرعة . وبحور السوابح
متموجة وغدران السوابغ مترجرجة . وبوارق البيارق متبرجة .
وأوضح الجرد وغررها كأوضح النصر وغرره متبلجة . ونزل عشية
بأرض لوبية لداعي الفتح ملييا . ولجيش النصر معيبا . ولولود
الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا . وبات بها معرسا بانيا
على عروس الظفر البكر . جانيا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر • وأصبح وقد اصحب جماح الدهر • وصح نجاح الأمر •
وحص جناح الكفر • واسفر فجر الفرج • وسفر وجه البهج • وسار
سارا سره بارا بأرباب الدين بره • زائرة أسوده • طائرة بذوده •
ظاهرة جذوده زاهرة جدوده • سامية أضواؤه • هامية أنواؤه • رائعة
مواكبه • رائقة مراكيه • مجنبة عتاقه • فكأن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به • وهذا الأمير عز
الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أو ان
عود الحاج • وهو ذو شيبة تقد كالسراج • وما برح مع الملك الناصر •
مأثور المأثر • ميمون الصحبة • مأمون المحبة • مبارك الطلعة •
مشارك في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق
مطلع من النصر الا بذوره • فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسائرا •
ورأيت السلطان له مشاورا محاورا • وأنا أسير معهما • وقد بذوت
منهما ليسمعاني وأسمعهما • ولاحت أعلام عكا وكان بيارق الفرنج
المركوزة عليها السنة من الخوف تتشكى • وكأن عذبات النيران
تصاعدت لعذاب أهلها • وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من
وعرها وسهلها • فلما قرب منها خيم وراء تلها • وأننت عروش
معاشر الشرك بثلها • وعقود معاقدي الكفر بحلها • وأصبح يوم
الخميس وركب في خميسه • ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل
البلد يطلبون الامان • ويبذلون الانعان فامنهم وخيرهم بين المقام
والانتقال • وهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه
يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى
ينتقل من يختار النقلة • واغتندموا تلك المهلة • وفتح الباب
للخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة •
فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المخرج • كيف
يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم
انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة •
الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على
الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف
يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار • وكان السلطان
جعل للفقير عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالدالية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع . وهب عكا
لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل •
وبدخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة •
ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا
جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي
الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام
بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف
ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء
والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة السادة تلك
الغابة ، وخلقى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومنخورهم وتركوها
لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، واقتقر من الفرنج
أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل
وحصلت تلك النخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع
الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في
خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها
ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل
مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولملكتها
متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر
وهو بمصر ، بما أتاه الله من النصر ، وقبضه له من اقتضاض
الفتح المبكر ، فوصلت البشرى بوصوله باشرا ، وللاواء الحمد
ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشرة ، وأنه فتح
حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتممها غزوة ، وتسلمها
حظوة ، فقصد من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا
الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع
والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالذقود ، ووعدهم مما سيحصل
بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستفيض حسنى
وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزيل من الكفر
يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، واللين بسيف سيفه
منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل مالك
بعدله ، سالك نهج النجاح بفضله ، فائز العزيمة حائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتبية ، ميمون النقيبة مأمول
الرجبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغذمه ظاهرا بكرمه ، شاكرا
عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مرويا أوار لهذمه ، وأمر
أمرأه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة
المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبـوري الى الناصرة فاستباح
حماها ، واستبي دماها ، وحلها واستحلها ، وأزالها
وأزلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشفها ، وشافها
بشفار البوائر ، فشقه منها موارد النخائر ، واجتلى
عرائسها ، واجتني مفارسها ، وجمع نفائسها ونزع
ملابسها ، واستدر طبييها ، واسترد سبيها ، واستقل منها بما
استقل به من كل غانية عانية • ورقيقة رقيقة • ومصابة
مصيبة ، ومسببة مصيبة ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة
مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعذف جارية ، واسيرة
من أسره ، وحاسرة عن حصره ، وثاكلة لواحدتها ، وأكلة
لساعدها ، وعاضة على يديها ، وقاضة ختم الدمع على خديها •
وناهدة متتهدة ، وفريية متفردة ، وناعمة شقية ، وقينة
نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة ، ومخطفة ، وقوية
مستضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة ، وساجية
عبرى ، وصاحية سـكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضة ، وفضة منفضة ، وخمارة
مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخدرة مهتوكة ، وموقرة
منهوكة ، وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقوين
في الأقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق
وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من
النخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر اللين دلدرم وغرس اللين قليج وجماعة من الأمراء
الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس بها
حاكمي الحتف والحيف ، وسلبوا ، وحبسوا ، واحتوا
وسلبوا ، وجلبوا ، وجالوا ، ونالوا ووقدوا ، وأخذوا ، واحتوا
وارتوا ، وربطوا ، وضبطوا واستفادوا ، وفرسوا
الفوارس ، وكذبوا الكنائس ، واستتبوا الأبركار
العرائس ، والعون العوانس ، وتسلمت بعدها حيفا
وأرسوف ، واستولى على تلك الشמוש والأقمار الكسوف
والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام اللين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس
حاسما بحسامه داء الشرك ، مائلا بسهام الفتك جعاب
الترك . تاليا أي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى سمسطية
فدسلمها ، وتعجل مغنمها . ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد
اتخذ القسوس كنيسة ، واعادوها بالصور والآلات النفيسة
أميسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد

والالات . وأعانه مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، وأصبح الدين به مثرىا والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف حده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم ان اقاموا لايأمنون المذنون ، فان المسلمين بها وباعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم وأخلوها ، وتسألوا منها وسلوها ، وتحول الأقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بذلعتها . ونازلوها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما . ولقاتلها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا بأحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فأنمى بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه اهلها بعد العبوس . وقام جاه الأذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي للداوية حصن حصين . ومكان مكن وركن ركين . وفيها مشتاها ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلبانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طلول الفولة . بحدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المطلولة . ولم يجتمع شمل غموودها
بالسيوف المسلولة . ولم يبق بها الا رعايا راع . وغلمان
واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا
امنهم في الاسـتـئـمان . فسـلـموا الحصـن بمـا فيه الى
السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . ونفائس الأعلاق . فوذكوا
بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . وبخلوا في الذمام
لاجين . وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من
البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون . وبيسان
والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا
والبعنة واسكندورنة ومنذوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصت من الضلال تلك
الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن
أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه تقى الدين بقصد حصن
تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جـران
بأسه ، ولقي بالتلليل حـران ناسه ، وأخذ في مضايقته
بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسنح له
قنصه فاشرب باقتناصه واقتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على
الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره . فضرب
الكوس ، وسمت الذفوس ، والنهوض في ظلام القتـام من التـرك
والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع
تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل الذقا ، واشتبك على
الأساد غيل القنا ، وسالت الاوبية بالسابحات العتاق ، وطالت على
السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر
رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الافواج ، وتفوجت
الأمواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السوابق ، وتدركت
ضوا من الضوامر بالأرفاد في ارداف الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل
وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث
مراحل ، فرمينا أهل التذليث فيها بثلاثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه
الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من
المجانيق عليها أيدي الغوازل ، فقتلوا من الرعب ، وتجلدوا على
الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجأروا ، ورغبوا
ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحو ، وعجزوا
فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب وندبوا فدانوا
وبذوا ، وأنغذوا إنغذوا ، واعتذروا مما جنوا ، ورأسلوا
السلطان ، وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم
فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من
بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق
الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصبح
المكسورين مجبورين ، محبوسين بالفرج بعد الشدة محبوسين ، وسر
بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم
وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل
بلد يفتحه وماك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد
بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها
بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر
أكثر من عشرين ألف اسير للقيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار
مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من
العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه
سنقر الدووي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل
عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا
لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعميس
الكاfer ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين
ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخذقها كل مايمكن من التوشيق
والتعميق ، ورحل معه رفيق التفويق ، وكان النزول على تبنين
يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الأحد الثامن
عشر منه .

فتح صيدا

يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لناشق أهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، وأوجهننا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواطرة ، وجلت بياجير الذقن من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصر المتواترة المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيدا الى منهل فتحها صابن ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صابن ، ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمننا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارج والأتريج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان القرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتبهنا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصاييحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياها ب تلك المذاهب بنوارها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت أربابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدق منبرها ، وصدق
مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة
والجماعة ، واستندمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني
عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس
التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيحاء وتبنيين ، وجمع لهما التحصين
والتحسين ، قال لعصمة الله شبيدي ما بصيدا وتبنيين
تبنيين ، والدفيعما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولا يطرر
ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سناناه ، ورحل على سمت
بيروت ، مالئا بعسكره الأكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك
الجحافل ، يجر على البحر مائج ، ومجر مجر الى الهياج
هاج ، ونقد من عقد الجد رائج ، وعزم على صدق القصد
عائج ، ووصل اليها ونزل عليها ، وبنيت القباب ، وطفا على
خضم المعسكر من الخيم الحباب ، وزحف الى الأعداء
الاخباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد ، وأحاط الرجال
بأرجائه ، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في
سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك
الجمع الجم بأفواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه
الباس ، واصططفت التراس ، واشتد المراس ، واحتد
القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خروج
الجروح للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت
الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد
النصر المواني المواتي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل
الذفت ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق
الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتي الوادي فطم على
القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث
الذبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجرت مـواعـد
الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالذوازل
نوازي الأهوال ، ورعدت بـوارق البـوار ، واسـعدت
الأقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت
الذواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت
سـتائر السـور فـوهت أشراك الأشرار ، ودام
القتال أياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا
واضطرابا ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت
بشهب الذفافات شياطين الداوية المردة ، وتعدت الأسود
العابية ، على أولئك القرية ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق
الذقاب بالسور فذقب وعلق ، وكاد الذقب يتسع ، والبـرج
يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تذفض وترفض ، وسوار
السور يذكسر ، وقناع الذقع لا يندسر ، وخرج من البلد رجال ، الى
الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولماشر أصحابنا
بمعاطاة كؤوس المذون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام
الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا
بالقواطع ، وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا
وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض
يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل
الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام
يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللد ، وضافهم
الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا
وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين
دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سـكـينـتهم ، ليركبوا
سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي
الأمان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

يحرّمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن
ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض
أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، وانقطعت عن الحضور عند
السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الأمان ، فطلب السلطان كل
كاتب في ديواني ، وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك
وأعيانه ، فلم يرضه ما كتبوه ، ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك
الحالة من استملاّه مني ومرضت أذهان الأصحاء ولم يمرض
ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان
الناس قد اندسوا بما أسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ما أذكره
وأحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، وأقوا السقم في غيره
فأنفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله
توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولا رتق فتق الا باصلاحه ، ولا جلي
ظلام الا باصباحه ، ولا وري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة
الحر متوهجة ، ووقدة القيق متأججة ، وضرر مرضي
ملتهب ، وروح روحي منتها ، وبقيت مضطرباً ، وأقيت من ذلك
الوصب نصبا • وحصلت من الإقامة أو السفر على الخطر أو
الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن الآء شغلي بالآلام ،
وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي
مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت
على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في
مدفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد
الذل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبذل الكدر بالصفاء ، وعدت
الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الودحشة الى
الأنس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من
جمادى الاولى مطاع الأمر ، مذاق السر في تضوع الذشر • وتوضح
البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارادة ، راجح العبادة ، رابح
المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى
واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد
ملكا ، واستزاد ملكا ، وبرر بيروت ان برت ، وحفلت له اخلاف

الفتوحات قدرت • واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه
فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشرين جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه
دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه
في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل
سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرفت . واخرجتها من عصمتي
وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وأزيلها من وثاقي
اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيد . واحضاره في
قيده . فأحضر في صفده وسامع ببلده . فخلص ناجيا وملص
راجيا . وملك مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن
يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون
مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل
مسلمين . مساكن لمساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد
الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصبحت
المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت
الآيات . وجلت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس
وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط
الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست
الذواقيس . وبطلت الذواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا
ذفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة
عارهم . وقروا في بيارهم . وقروا ابصار بأنصارهم . وكان كل
من استأمن من الكفار . يمضي الى صدور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجأ
شريدهم . وما من خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر
القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص وبخول المريكيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلها . وأوى
الى طرابلس وتوافى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبقي نجوة من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاده فوقع في
البلاء . وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماعها
اذعن . وان كفاحها امكن . وان فرصتها انتهزت . وان حصتها
احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعرضت
عن القومص بالمريكيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس . فادرك
نماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط
صور بمن فيها . من مهزموي الفرنج وبمذفيها . وكان المريكيس من
اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . واضرى سراحينه . وأخذ
نثابه . وانجس كلابه . وأنهش ضلاله . وافدش ضلاله . وأعوى
اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . وأجفى جفاته . وأرعى
حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وأفجر
فجاره . وأروغ ثغالبه . والسبب عقاربه . وأحدث
معاهديه . وأذكث معاقبيه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له
ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا
العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف
الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن
فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشيني بالينا . ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعازل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة . ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بامرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعقدها . ولا متئد في توريدها . وعلم ايضا انها ممتعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس يالساحل بلد منها أحسن . فغطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاهد المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشييدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصهار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا ونادوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعازل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة . ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والارض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتراح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعقدها . ولا متئد في توريدها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سوما مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس يالساحل بلد منها أحسن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلىة . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاهد المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشييدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصهار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصادوا . وحاذوا ونادوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحالفوا . واحزنوا في الالباء وما
اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت
نيقها . وفرجت بالحجار طريقتها . ورجت بالتفريق
فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق
وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس
والحجارة) (البقرة ٢٤) ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد
الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة مناهم
الخرارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بـ ورهم
بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع
الحجاب . واشتد القتال . واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك
المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت
حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك
الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما
استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس
مالك . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا
تخلصت خلصت . واذا استنفذت استنفذت . وخرج . مقدمون
وشاوروا الملك . ونهجوا في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان
على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق
واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة . وتلايلات
السعود في أوجها بالأوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان
من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح
بالشهادة . واختتم بالسعاية . وكان السلطان قد أخذ في طريقه
اليها: الرملة، ويبنى، وبيت لحم، والخليل . واقام بها حتى تسلم
حصون الداوية: غزة، والنطرون، وبيت جبريل . وكان قد استصحب
معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم أطلقه . فسلم
هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقته . واجتمع بالسلطان ولده
صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة
وبشارة . وراية وآية . وهياة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعه .
وجبة وجده . وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغة . وروعه . ونخوه .
وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . ونهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب
وانجاد . وجلب ولجب * وبيض ويلب . وبيض وسود واساود
وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعقاق .
وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف
وذيال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحدلا يكل .
وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق
كمأة الاتراك . وهداة التوحيد عادة الاشراك . فقررت عينه
بولده . واعتضد بعضه . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد
استدعى الاساطيل المنصورة فوافقت كالفتخ الكواسر . بالفلك
المواخر . وجاءت كأنها امواج تلاطم امواج . وافواجا تزاخم
افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل
سحائبها . وتجر بالذوايل ذوائبها . وتزاخم مناكب الاطواد
مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها * وضرغام غابها
وهمامها * فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق
على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على
مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن
موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر
مصاحبا ولذيل العز ساحبا . قد اصحب ريش مناه . واخصب
روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارحاء سيب العرف .
طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض
بالفضاء فضاء . وملا الملا فافاض الالاء . وقد بسط عتير فيلقه
ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح
الغسق . فالارض شاكية من اجحاف الجحافل * والسماء حاضية
بأقساط القساطل * وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على
ما تشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر
ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس
عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعي ليحمل عنها
بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعنية
لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع
زهر المصابيح في سماءها . واعادة الايمان الغريب منها الى
وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء النين اقصاهم الله
يلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات
الناقوس منه بانطلاق الاذان . وكف كفا الكفر عنه بايمان
الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . واناس اننى
الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى
القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا
من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها
ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك
الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاستبارية والداوية المقدم . فاشتغل
بال باليان . واشتغل بالنيران . وخدمت نار بطر البطرك . وضاعت
بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في
مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من
الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسبك
الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح
الجروح . ونسمع بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها
مقامتنا . ومنها قيامتنا . وتصيح همامتنا . وتصيح

ندامتنا . وتسبح علامتنا . وتسبح عمامتنا . وبها غرامنا . وعليها
غرامتنا . وبإكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها
استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وإن تخلينا عنها لزمنا
لامتنا . ووجب ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح
والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي
والمرقب . والمشرّب والملعب . والمموه والمذهب . والمطلع
والمقطع . والمربى والمربع . والمرخم والمخرم . والمحل
والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد
والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام
والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في
احبارهم . والرهبان في صوامعهم . والاقساء في
مجامعهم . والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة
والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوث . والمنعوت
والمندوح . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة
الكبش والحمار . والجنة والنار . والذواقيس . والذواميس . قالوا:
وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله
الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل الذور . وزال
الليجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الوجود
بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول
بالمولود . وأضافوا الى متعبدتهم من هذه الضلالات . ما ضلوا فيه
بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت . وعلى
خوف فوتها منا نفوت . وعننا ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا
نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا .
وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستقدوا . وتأهبوا
وتباهوا . وما انتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امام الاسواء
على الاسوار . وسبوا بظلمات الساتر وجوه
الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطفرت
طواغيتهم . وأصلت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسمرت
مساكيرهم . وهاج هائجهم . وماج مانجهم . ودعت
دواعيهم . وعدت عوايهم . وسعت افاعيهم . وحضتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤسهم . وحركتهم نفوسهم . وجاءتهم
بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية
منصورة الجنود . منصورة البزود . موصولة القواطع بالاشاجع
مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهوية الكتائب . مقدوة
الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة
العزائم . مجذونة الصلادم . مسلولة الطبيا . مطلولة
الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسذونة اسنة صعادها . مطلقة
اعنة جياها . محققة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد
باكامها . وجالت الاعلام في اعلامها . وسدت الفجاج
امواجهها . وحجبت الفزالة عقبانها . والهبت الذبالة
خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالحبال رماحها
واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظام قبيلا . ووافى كل
واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض
شربه . خاف في لبوسه . باسل بباسه . عاسل بأمراسه . ناسل
بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند
بسواعه . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعه حاد بجده . جاد
بجده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب بين لئين الرب
راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذباب عن الهدى
ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة
عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل
السلطان باقبال سلطانه . وابطل شجاعانه . واقيال أولاده
واخوانه . واشبال مماليكه وغلمانه . وكرام امرائه . وعظام
أوليائه . في مقانب بالمناقب مقنبيه . وكتائب بالموالك
مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجحافل بمضاء المضارب
محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق
العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن
صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل
للشع بدينه الذفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه
الابنى . وفريقه الاسنى . يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من
الحسنى .

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا . وأي يد له عندنا اذا ايننا . فانه مكث في يد الكفر احدي وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما اخبر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر للين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمذشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جنة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواريها من الكوثر الحوض المورد . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى» . وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الانبياء والآء الاولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالى القدم النبوية . وتوالى البركة العلوية . وعندها صلى نبينا
صلى الله عليه وسلم بالنبیین . وصحب الروح الامین . وصعد منها
الى اعلى عليین . وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله
فيه : « كلما دخل عليها زكريا » . ولنهاره التعبّد وليله
المحيا . وهو الذي اسسه داود واوصى ببناؤه سليمان . ولاجل
اجلاله انزل الله « سبحان » . وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به
سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمه . واعلاه
واجلاه . واسماه واسناه . وايمين بركاته وابرك ميامنه . واحسن
حالاته واحلى محاسنه . وازين مباهجه وابهج مزايينه . وقد اظهر
الله طوله وطوله . بقوله : « الذي باركنا حوله » . وكف فيه من الآيات
التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف
السلطان من خصائصه ومزاياه . ما وثق على استعانة آلائه
مواثيقه والاياء . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفع بأعلاه
علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصفي الى
صرخة الصخرة . ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقا
بكمال النصره وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل
على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفر قد
وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب . والقدر قد
اظهر العجب . وكان في القدس حينئذ من الفرنج سـتـون الف
مقاتل . من سائف ونابل . وبطل للباطل . وعاس عاسل
بالعاسل . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون . ويعاجزون
ويناجزون . ويرمون ويديمون . ويحمونه ويحمون . ويحتدون
ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشدون
ويسدون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتفـوـثون . ويلوذون
ويلوبدون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمون . ويتململون
ويألمون . ويتعاون . ويتضاعون ويحترقون بالبلايا . ويقترحون
المنيا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضال . ونازلوا اجد
نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظماء من ماء
الأرواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الأجال . وصالوا لقطع

الأوصال . والتهموا . والتهدوا . وتأشبهوا ونشبهوا . واستهدفوا
للسهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل
عشرين بمئتين . ودون الإقامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى
السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل
السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم
هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب
المجانيق . ومري من أقاتها الافاويق . واصرخ الصخرة
بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا
يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم
العبوس . ويلقون على الردى الذفوس . فلداوية دوي . ولبارونية
من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من
الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم
حجاب . وفي كل قلب من الفتتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه
لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي
على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والذفوس لاستبطاء الهمم
في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجز شراريقه بالاحجار
الخارجة من الكفات مهدومة مهذومة . فكائن المجانيق مجانين
يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال
تتجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا
حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها
الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكمن نجم
من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها
ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات نكاياتها . وركات
ادراكاتها . ولفقات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع
بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتج بأشطانها . وتمرح في
ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصعد . وتنهز
بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد
جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبيدها وتقوض القواعد
بضربها من اساهها . وتقوض المعاهد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت
الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق
الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتحة والكفر الحثف . واخذ
الذقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل
المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى
الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من
الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنا خندقه . وبرز ابن بارزان
ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان
وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم
لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من
الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وأبى في
تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة
التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا
من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا
صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل
فدقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري
بالشر . ونقتحم اقتحام المستشري من الضر . ونلقي انفسنا على
النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا
حتى يجرح عشرة . ولا تضمننا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك
منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا
السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من
عنينا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من
الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطيها ولا
نعطيها . واما الثناري فانا نسارع الى اعدامها ولا
نستبطيها . فاية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا
الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى
الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد
السلطان محضرا المشورة . وأحضر كبراء عساكره
المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاوهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستكشف خفايا
سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم
على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصلحة المربحة . وقال ان
الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت
وذستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا
تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه
العبادة . ورأيك حاشد . وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضوع
الشریف مناشد . واستقر بعد مرادوات ومعاودات . ومفاوضات
وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها
الفبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم واموالهم
وخلصوا بها رجالهم ونساءهم واطفالهم . على انه من اعجز بعد
اربعين يوما عما لزمه . او امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه
الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة ننانير
وكل امرأة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . وبذل ابن
بارزان والبطرك ومقما الداوية والاسبطار في الضمان . وبذل ابن
بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام ابالاداء ولم ينكل عن
الوفاء . فمن سلم خرج من بيتسه آمنة . ولم يعد اليه
ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على
هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوبيعة . وكان فيه أكثر
من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم
الابواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل
باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحمي الداخلين فمن
استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم
الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر
حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى .
وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلى من السور
بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت
لبسته فخر بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم
تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهية . وفي التمسك بملتها
متعصبة . انفاسها متصاعدة للحن . وعبراتها منحدره تحدر
القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع
واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . وانن في
اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت
من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المؤسسور ابنة الملك
اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول
والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن ادعى انه
ممن صاحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري
اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب
البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم
الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء
الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له
على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان
منها عدة من الذواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ
من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه
على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في
مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا
خطا لمن نفعه في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت
المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وبقي من
بقي تحت رق واسار . ينتظر به انقضاء المدة المضروبة . والعجز
عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه
المعراج . وتم بما وضع من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من
الاسنة بالدعاء والابتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء
الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه
الابرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه
مفتوح ورفده ممذوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه
مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبتة تروق ومهابته
تروع . وأفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء
السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة
الامل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسسته به هالة
القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف
يشدون ويثشدون . والأعلام تبرز لتدشر . والأقلام تـزـير
لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة
تخشع . والألسنة بالابتهاال باله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي
ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي
الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي
الطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع
الفواضل . ويشيع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان
في حجه قصر . ويصول بالهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن
الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض
الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري
بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلاف والوفاق . والارقاق
والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق
والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع
العروش . ويوحش المستأذس المستودش . وينعش العاثر ويعثر
المتنعش . يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء . فبشرت
باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملاط
البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت
ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنيد
والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت
فضيلتها وبينت . وابت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكننت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من الذوبة
فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدييري وادبر
علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت
خفة في النفس وأذست بابلالي بعض الازس وامنت لو ثوقي بالصحة
والاستقامة من الذكس ، فاورجعت الى تلك الجهة وسرت بطاعة
النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المذكرة واخترت تعب السفر
على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة
ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجاح
فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة
وسرى عنه سر وابر وبر وقال: اين كنت. ولم ابطأت. وحيث اصببت في
المجىء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك. والسؤال عن اخبارك. وهذا
اوان احسانك. فاين احسان اوانك. فاجر بنانك بجرأة بيانك. واجر في
ميدانك. وما للبشائر الا واصفها. وللفرائد الا راصفها . وللقصاحة
الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على اذشاء كتب ما ارتضاها .
واقترضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان
العزیز. فقال لهذا من هو اقوم به وعناني. فلما رأني ناداني
واستناني . فصرفت الى امتثال امره عناني . وسلم إلى الكتب
التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولا تسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها .
وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بآيات الذكر .
فاستجديتها فمما استجديتها . واستجديتها فمما
استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا
قد تعاودوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في اقتضاض الابكار .
واقترضاء الافكار . واقترأح القريحة . واقترأح رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز
واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت
واشعبت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت .
واطريت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت
وجانست . ووافقت واذنت وبينت فضل عصر الامام الناصر على
الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله
لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا
بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو
واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه .
وذكرت من هذا كل مارق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح
تفوح بارح نشره . وتحى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه .
وما اسعد اماننا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف .
ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي .
وحليت المعالي . وقدرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت
شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر
المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت :
(شرع لكم من الدين ما وصى) (الشورى ٤٢) وهنأت الحجر
الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر
سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم
بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام
اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر
الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا
اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق .
وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة .
وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ما وجدوا من امور لهم منتشرة . وكذبوا كنادسهم . واخذوا من نفاذسهم . ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنادس الكنائس . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ما كان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للاسسلطان بهذه اموال وافره . واحوال ظاهرة . تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لا اموال الكنادس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولا نتركهم يرمون اهل الايمان بذلك الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز . وخف ونقضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الى صور . وكثفوا بالديجور . وبقي منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق . غاموا الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم افوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي ايدي سباً . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقدسمة . واصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكة ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت . وفارغة شغلت . وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولباه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة اصبحت . ورضية اصبحت . فكم تسرى منهن سري . وتجراً عليهن جري . وقضى وطره عذب . ونفى نهمه سغب . وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت . ووحشية صيدت . وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابنى النصارى بعد اداء القطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذل . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . وبخلوا في الزمة . وخرجوا الى العصمه . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنة . وعدوا المنحة في تلك المنحة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الایجاب . وكان الداوية قد بذوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بذوا من غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسة رفيعة . فاعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحوله من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واطهر المحراب المطهر . ونقض ماحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلى التنزيل . وحق الحق وبطلت الابطاطيل . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واقیمت الصلوات . وادیمت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات . وانجابت الغیابات . وانتابت الهدایات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبدوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من مدینه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاولاد . وعبدالواحد .
ووجد العابد . وتوافد الراكع والساجد . والخاشع والواجد .
والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم
والقاعد * والمتجهذ الساهد . والزائر والوافد . وصدق المنبر *
وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر . واملى
الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث
الرواة . وروى المحدثون . وتحذف الهداة وهدى المتحذفون .
واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المترخصون .
ولخص المفسرون * وفسر المخلصون . وانتدى القضاة وانتدب
الخطباء . وكثر المترشدون للخطابة . المتوشحون بالاصابة .
المعروفون بالفصاحة * الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب
الرتبة * ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقا .
وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا من البلاغة فائقا .
وفيه من عرض علي خطبته . وطلب مني نصيبته * وتمنى ان ترجح
فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهم طال
الى الانتهاء بها عنقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا
من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعرض
ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه .
وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان
لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهم من يقول ليتني
خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان .
اصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان * وامتلأ
الجامع * واحتفلت الجامع * وتوجست الابصار والمسامع *
وقاضت لركة القلوب المدامع * وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك
البهجة الروائع * وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور
الشوائع * وغصت بالاسابقين اليها المواضع * وتوسعت العيون *
وتقسمت الظنون * وقال الناس هذا يوم كريم * وفضل عميم *
وموسم عظيم * هذا يوم تجاب فيه الدعوات * وتصاب البركات *
وتسال العبرات * وتقال العثرات * ويتيقظ الغافلون * ويتعظ
العاملون * وطوبى لمن عاش * حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وما فضل هذه الطائفة الحاضرة •
والعصبة الطاهرة • والامة الظاهرة • وما اكرم هذه النصره
الناصرية • والاسرة الامامية • والدعوة العباسية • والمملكة
الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه
الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا
فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفويض •
وتحدثوا بالتصريح والتعريض • والاعلام تعالى • والمنبر يكسى
ويجلى • والاصوات ترتفع • والجماعات تجتمع • والافواج
تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات
الحجيج • حتى حان الزوال • وزال الاعتدال • وحيعل
الداعي (١) • واعجل الساعى • فنصب السلطان الخطيب
بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القاضي محيي
الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بان يرقى ذلك
المرقى • وترك جباه الباقيين بتقديمه عرقى • فأعرتة من عندي اهبة
سوداء من تشريف الخلافة • حتى تكتمل له شرف الافاضة
والاضافة • فرقى العود • ولقى السعود • واهتزت اعطاف المنبر •
واعتزت اطراف المعشر • وخطب وانصدوا • ونطق وسكتوا • وافصح
واعرب • وابدع واغرب • وابدع واغرب • واعجز واعجب •
واوجز واسهب • ووعز في خطيبته • وخطب بموعظتيه • وابان عن
فضل البيت المقدس وتقديسه • والمسجد الاقصى من اول تأسيسه •
وطهيره بعد تنجيسه • واخراس ناقوسه واخراج قسيسه • ودعا
للخليفة والسلطان • وختم بقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل
والاحسان » (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب • وافتتح ببسم
الله من أم الكتاب • فائتم بتلك الامة • وثم نزول الرحمه • وكمل
وصول النعمة • ولما قضيت الصلاة انتشر الناس • واشهر
الايناس • وانعقد الاجتماع واطرد القياس • وكان قد نصب للوعظ
تجاه القبلة سرير • ليفرعه كبير • فجلس عليه زين الدين ابو الحسن
علي بن نجا • فذكر من خاف ومن رجا • ومن سعد ومن شقي • ومن
هلك ومن نجا • وخوف بالحجة ذوي الحجا • وجلا بذور عظاته من
ظلمات الشبهات مادجا • واتى بكل عظه للراقيين موقظة • وللظالمين

محفظة . ولا ولياء الله مرققة ولا عداء الله مغلظة . وضح المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت الذعرات . وتحدرت العبرات . وقاب المذنبون . واناب المتحويون . وصاح التوابون . وناح الاوابون . وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت . وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بذوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولا العيون المدركة ملمسا ولا مطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهب . باعمدة الرخام منصبة . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة . فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفرض غطاءها . وابرزها للزائرين . وأظهرها للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراة حسنھا . واضاءة یمنها . وابداء وجهھا الصبیح . وجلاء شرفھا الصریح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القنادیل من فوقھا نورا علی نور . وعملت علیھا حظیرة من شبابیک حدید والاعتناء بها الى الان کل یوم فی مزید . ورتب السلطان فی قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازینهم تلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم فی الدیانة صیتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطیبهم فی العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف علیھ دارا وارضا وبستانا . واسدی الیه معروفًا دارا واحسانا . وحمل الیها والی محراب المسجد الاقصی مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بین ایدی الزائرین علی کراسیها مرفوعة . وعلی اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه • قومه تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاکفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج لیلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقین الدموع • واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي یعبد ربه ویأمل بره . وكل اشعث اغبر لایوبه له لوا قسم علی الله لابره • وهناك كل من یحیی اللیل ویقومه • ویسمو بالحق ویسومه • وهناك من یختم القرآن ویرتله . ویطرد الشیطان ویبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن افقه لتجده الاوراد والاذکار . وما سعد نهارها • حین تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس انوارها أنوارها • وتحمل القلوب الیها اسرارها • وتضع الجنة عندها اوزارها • وتستهدی صبیحة كل یوم منها اسفارها • وما اظهر من تولى اظهارها • واظهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطنیة . ونقلوا منها الى صدقلیة . وقیل باعوها بوزنها ذهبًا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانَت مقاطعها . فهي الان مبرزة للعیون بحزها . باقیة علی الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال
السلطان . والشروع في العمران . وامر بترخيم محراب الاقصى وان
يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثر بها من
الاثار الحسنه . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الاسنة . فما
منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ما يمكن . وجلى وبين وحلى وزين .
واشفق وانفق . واغنى واقتنى . واعتني وابتني . ووفى واوفي .
واصفى واظفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع
بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جليل . ومن جلى ومنح
جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمة . وفضيلة بها ترجع .
ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم به
العرف وغمر . ونهى وامر . وبني وعمر . ومن جملة افعاله
المشكورة . ومكرماته المشهورة . انه حضر يوما في قبة الصخرة .
مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولأجل
الصدقة والرفد مال . فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها
بالافتراض . وتولى بيده كدس تلك الساحات والعراض . ثم غسلها
بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت .
وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتى بمجامر الطيب
فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى . وأرغمت
أناف العدى . ومازال مع قوته . في تطهير البقعة المباركة طول
يومه . حتى تيقنت طهارتها . وبينت عمارتها . وراقب
نضارتها . ووقفت عليها الاستحسان نظارتها . ثم فرق ذلك المال
فيها على ذوي الاستحقاق . وافتخر بأن فاق الكرام بالانفاق .
وجاء الملك الافضل نور الدين علي . بكل نور جلي . وكرم ملي .
واحسان سني . وانعام هني وعرف زكي وعرف زكي . وعطاء
مبتدع . وانطاق بحمد الاسن . وبسط بها الصنيعة وفرش فيها
البسط الرفيعة . وهدي واهدى . واعاد بعد ما أبدى . وانا
واسدى . وافاض الندى . وفض الجدا . ونفض الاكياس . حتى
خلنا به الانفاض والافلاس . وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء اسوار
القدس وحفر خنادقه . واعجز بما اعجب من سوابق معروفة

ولواحدة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولا ملك سابق فيه مضماره •
واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بالاحسان الذي استظهر به
الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتح والنصر •
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلها •
وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبال • ونخائر وافية • وعددا
واقية ودروعا سوابغ • ونصولا دوامغ • وخوذا وتراذك •
ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصواقل وذوابل • وجروخا
وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • ورينيا ومشرفيا • وزيارات •
ونفاطات وقطاعات • وعدد النقوب • وجميع ادوات الحروب •
فاستظهرت بها المدينة • وتوثقت بها عراها المتينة • وكان من جملة
ما شرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم • ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباكون في اداء القطيعة مدتهم • فتوفرت بذلك عدد البلد •
واستغني بذلك عما يصل من المدد •

ذكر محراب داود عليه السلام • وغيره من المشاهد
الكرام وتبجيل الكنائس • وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن
عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع • وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي • فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما •
ومؤننين وقواما • وهو بمثابة الصالحين • ومزار الغائبين
والرائحين • فاحياه وجده • ونهج لقاصديه جده • وامر بعمارة
جميع المساجد • وصون المشاهد وانجاح المقاصد • واصفاء الموارد
للقاصد والوارد • وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام • وكان ينتابهما فيها الانام • وكان الملك العادل نازلا في
كنيسة صهيون • واجناده على بابها مخيمون • وفاوض السلطان
جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء
الشافعية • ورباط للصالحاء الصوفية • فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط . وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ما ولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة . وحرم على النصارى زيارتها ولا الالمامة . وتفاوض الناس عنده فيها .

فمنهم من اشار بهدم مبانيها . وتعفية اثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة اباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها . وازهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسرت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائنة في هدمها ولا هدها . ولا يؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لاما يشاهد من البناء . ولا ينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبتة الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الاعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . واقتضاض عذرتة . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى به من ساراه .
وزهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى ماكانت
موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح
السرى ومناخ التعريس . وقد أقصي عن المسجد الأقصى الاقصون
من الله الابعدون . وتوافد اليه المصطفون الاقربون . والملائكة
المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسبحين . وخرج المفسدون
ببخول المصلحين . وقال الحراب لأهله مرحبا وأهلا . وشمل
جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ماجمع للاسلام فيه
شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى
نصيب . وتلت بالسنة عذبة : « نصر من الله وفتح قريب » .
(الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من ندس
المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما
كاد يذسى من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجاز
المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجدد لها من
البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثاني المسجدين . بل
ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من
الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر . وتطهير
مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أناس الارجاس . وتضوع
أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحاش
بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس .
وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الاعصر
مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين
والدنيا به مكمل . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية
بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها
وأسرها . ولقد حل الكفر عروة عروة . وهدد ذروة ذروة وعادت
حباله رثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعد
أن شوهد أهل الذمة أحداثا . فالرتاج مستفتح . والرجاء
مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي
مسترخصة . والعقائل مفتضة . والمعازل منفضة . ومناهل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف
أهل الايمان منقضه . والثفور ميتسمه . والأمور منتظمة .
والحصون متسلمة . والخصوم مذنة مستسلمة . وأرض الكفر
يذقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها
واكتافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها
وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة
بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع
أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الافتح من جلالة العظمة
ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي
ولو جئنا بمثله مدا » (الكهف: ١٠٩) والفاضي ضياء الدين القاسم
الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء
البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه
عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور
مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ماتسنى
من فتحه . ويحدث وهو الضياء ياسفار صبحه .

عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم ما بقربها من حصون .
واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله
الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسة وجوده ناثدا . ثم تبعه الملك
المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما
جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه . وفرضه
بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن
السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيي به سنن المكارم . ووضع
في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي
الاضافة . والانفاق في أهل الفاقة . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل للمجاهدين منه وظائف . وابقاه بأفئائه ذخرا للأخرة .
وكسبا للمحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أ منع الحق مستحقه . وهذا الذي أنفقه هو
الذي أبقيه . وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فإنه
يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة
أحفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة
في نظم من حمده ودثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتقيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوائد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق .
والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا
بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . أو مستضعفا بفاقه . أو
مستسعفا بفاقه . أو ناشدا بذشيد . أو مسمعا بتغريب وتغريد .
وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو أرضي بقسم . وأصيب وأجيب .
وأجيز بتقرير وتقريب ، فقليل له لو نخرت هذا المال للمال . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسئح من الاختلال .
فقال أ ملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء
المطلقين . وكانوا ألوا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في
مصالحه مستتيما . فقليل ما قعودك عن صدور . فأنهض اليها
عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظي منها بمرادك
وسؤالك ، فأزو السير . وأخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار
الانام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بإبدارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع . وأكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من اكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وببيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحضر . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها . وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشغلا . وعلى الاستهتار بتحسينها مشغلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق إليها مضيقا . واحكم اسباب الاحكام . واخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان . وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايه لكرامية فراقه مقدار مرحلة . ثم اوصاه وشيعة واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظفرا بأخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغناؤه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل . وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالافضاء فائضه . والخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة . ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه . باهرا بتأخيرته وتقديمه . قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره . وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهل . ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وثقوت باللبث . فسار لندائه مليبا . ولجيش النصر معيبا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيذا . فوصل الى صور تساع شهر رمضان يوم الجمعة .
بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها .
سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجنوبة عرابه . محجوبة
بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . مذشورة راياته منصورة أراؤه .
خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء
ثرات صوب صوابه . قد كست خيامه عري العراء . وفشت أشعة
بيضه وسمره الفضة بالقضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه
وأرائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين
للموحدين بهر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل
العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصفار
والكبار . ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم
الخميس . في خميس يسير في الوشيح كالأسد في الخيس . ونزلت
النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس . فوقع في
الدرديس . والعذاب اليبئس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر
أهل جهنم وملأوا السور . واتصلت زيارة الزيارات للجروح
بالجروح . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت
الحجارات حاجرة حاجزه . وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء
راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من
القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا
وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا . وشدوا من
كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا
من الشراقات الشرفات . بالشرو والافات . وسلب الحجار
حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت *
ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزلت . وطود
نسفت . فحول السلطان الى قريبا له خيمة صغيرة . وانهض بنات
الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها
الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق
بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط
رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج
العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك
الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين
غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي .
فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه
عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر
والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب
واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته
وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام
المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقيب
ناجح ، لصم الصفاق مصافح ، وكل جاندار جان در الردى
للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على اهل النار بالنار ، وكل
منجنيقي من جناته تقبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال
بالهدى لأصماء اهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الأفق
قراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدم قرنه
دام ، وكل ضرغام صريعته في رغام . وكل قمقام ضارب
بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل زمر
مشيع ، لذار الكفر مبيع ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح
مزيج ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم
العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد
ساع ، وللإسلام راع ، وللأشراك ناع ، وكل فارس للفوارس
فارس ، وللذوابل في النصور غارس ، وفي اليوم العابس غير
ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر
الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المذنون لمن يلاقه شاج ، وكل عتال
عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين .
فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا .
وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الأقواس الى أوكار
الأحداق أفراخا . واستصرخوا الأقدار لأقدارهم فحببتهم حين
أحببتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا
الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا
ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والآن الشديد . وأعان

السيد . وأفلح ففلح الحديد بالحديد . أوجد الجديد ومد المديد
وصور مرتجة أبوابها . مرتجة أربابها . مفتصة جوانبها . ومرتصة
عصائبها . مشدونة أبراجها مسجونة أعلاجه محصورة كلابها .
مدسورة ذئابها مدشورة ثعالبها مدشوبة كتائبها . والمركيس بها
متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسخط لبلده .
وارتبط بجلده واختلط بكمده . وغلت مـراجـل غلوائه وعدت غوائل
عدوانه . وطاش وجاش وأوخش الأوباش والأوخاش (٢) .
وتوشح بالشر وتودش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره .
وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجهه في مكر مكره . وكـرفـي وكـره
وعشا عشه . وثبت على لجـاجـه . ونبت في اجـاجـه . وتعسر وتسعر .
وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . ماض
عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت
اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فازتحم على بابـه
ودول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجار جار .
وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل
عاصف قاصف وكل أكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب .
وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب
مجرد . وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث .
وكل غيث غياث . وكل سفاك لدم الكفر سفاك . وكل جراد لسيف
الفتك جراح وكل مكنتم في درعه . مكتمن في نـقـعه . ملتم بزغفه . ملثم
بحرغه . مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سايح في بحر الموت بسابحة .
سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمراءه . واستحضر
عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه من الارض
مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطريقه
الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعوا
بخندق في عرضه . وعمقوا ونزلوا في أرضه . وكان من احكام
الحزم . واتمام العزم . تكميل الآلات وتتميمها . وتحصيل
المنجنيقات وتقييمها . وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها . وتقريب
الجفاتي وتصفيفها . وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها . وتنحية
أثقال العسكر وتخفيفها . وتنحية نخب الرجال

وتصريفها ، وتسنية الاسباب ، وتهيئة الأخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياء ، وتيسرت وتوفرت الأصول والاتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الأوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناعات بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مابذل النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيبي ، وصفت من سور سور وبالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لمقلع ، ومدير بايجاف . ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجـروح ، وأطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد ألف تيسر الفتـح ، وتسرع النـجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يـألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله . والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما تـوقف هذا الفـتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شدة شدة ، وفي جده جده ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويههم بجوده ويوجدتهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولا مصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكان السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا ماكان
بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على
العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهازها للقتال
واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المركيس
واشياعه منها الويل ، وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها
مناكب ، وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة
محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريتها ، وتجري سواريتها
وتسري جواريتها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس
عزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتلاطم الامواح
بأمواجها ، وتزاحم الاثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة
بشراعه ، وتقلع عرش الغواه باقلاعها ، وتنقض على شياطين
الكفر شهبها ، وترفض بشأبيب الذعر سحبها ، فكأنها الاسود
والسود ، وركبتها الاسود ، من كل افعان وان يحمله
افعان ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدى
ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالها من اغربة دارت
بعقبان . وأجنحة طارت بظلمان . ورواس سوار ، وغواز
بغوار ، وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق ، وزراقى النار
وطراقى النار ، والخطافين بالخطاطيف . والقاذفين بالمقانيف
والكالمين بالكلايب . والساليين بالاساليب والحاربين بالحاربي
والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فاندشت مرائر الفرنج
وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزة البيزانية . وتقلصت جناة
الجنوية ، وكثرت ادواء الداوية . وكثرت اسواء الاسبتارية . وزادت
الام الألمانية . وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في المينا
لاتيين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن
فلو خرجت كانت جبالا تسفن . وأنس اصحابنا بعلو
الامر ، وخلوا البحر . وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف . ودام

موقفه.

واشار الناس
لاتكفي للملاقة في
جـه
بتسييرها الى بيـ
الساحل يباريها

بجانبه
الساحل يباريها

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروهم . وفروا وفاروا . وطاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدحم دعاؤهم الى التجمع الا تشيتا . فظهر بهذه الذوبة الواقعة . والذبوة الرائعة . ان نواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آفة ولا مألوفة . فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجربة ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحة الدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهات . فنجأ النجباء . وأب بهم الالباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها حمايتها الواقية . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنقيات ترميهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم . والقتال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحللل . والاطوار تضعضع . والابراج القيام تسجد وتركع . والاصلاذ تقدح . والاجلاذ تقرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع موسومة . والحنايا واترة مواترة . والمنايا مأثورة مؤثرة . وظلعائن الضفائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بالأسنة الاسنة . وعنت الاعنة من الغريم الكافر . والادواج شاخبة كالعيون البواكي . والابشار دامية من الزنابير والناوكات النواكي . وهناك العقل معزول بالتهور . والرأي مشغول عن التدبير . والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرحي يبتدىء ببسم الله . والمنجنقي يختم بلا اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحرق الساتورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظلوا فينا الفتور لأجل تلك
الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبتها . وكتائبهم اختل
ترتيبها . وستجربى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم
الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعنا
عنهم . ولا وجه لتباعنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . وأقدمنا
عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوماً قبل العصر . في عدة كالليل
خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأوا وانضموا والتظموا
وتقدموا . وأقدموا للطوارق حاملين . وللجمالات مطرقين . وعلى
الفرق مجتمعين . وللجماعات مفرقين . وبالرهق جابين . وبالجد
مرهقين . وللعقود حالين . ومن الغمود سالين . وللمناصل
منتصبين . وللطوائل مقتضين . وللسيوف مجربين . وللسيول
مجربين ، وبالزغف ملتئمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات
طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مغوار وار . ومحضار
ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عنود . وكند
كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا
وتر . مصم اذا وتر . مصم اذا نعر . مصر اذا نعر . هائج اذا
استعر . مائج اذا نخر . متتمر اذا زار . متذمر اذا
زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبدوا من متارس
المنجنيقات . وجنوا من مفارس الجنويات . وبدوا امرهم على ان
الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون
قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى
الأقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشته
للقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب
القواضي . وكل ابيض بالبيض ضراب والبيض رضاض . واغلب
المغلب قضاقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد
مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعانة . متمدن للمنون . متجن على الحنون . مضرم نار الحديد في
ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العيد . مفرغ ماء الطباء
على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلتئم
باللام . وتلفح بالثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجوشن
بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال
بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحرالجي . فلم
يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتار . من كنين
الأوتار . وهفيف السهام . لذفيف اللهام . وصليل بنات
الغمود . من غليل ابناء الحقود . وهمهمة الابطال . وغمغمة
الاقبال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الطـبـا
بالطبـا . ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من
الحديد . وعجة الشيد . وجعجة رحي الحرب . وقعقة اداة
الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهديل
حمام الحمام . وهدير قـروم الايدام . ووعوة ذئاب
الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدة صاع المصاع . وجلجلة
سباع القراع . وصلصلة الزبر . ولولة الزمر . وحيلة دعاة
النصر . وهيضلة رعاة الكفر . ورفرفة المريشات
الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة اعطاف
المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغاليين . وصخب
الساليين . ولجب الجالبيين . وزحير الطالبيين . ونهيت (٦)
الاسود . وقصيف الرعود . وهدة الاركان . ودهدة
الرعان . وقهقهة الاقران . وقرقرة كوم البكاء . وصرصرة بزاة
الغزاة . وكشيش صلاص الضلال . ونشيش مـراجل
الرجال . وهزيز ريح الياس . وهزيم رعد المراس . وارنان
المعاجس . وارزام القناعس . وهيعة الصارخ . وصيحة
النافخ . وزعقة المستفز . ونعقة المستنزع . وشعشة
الخرسان . وزهزمة النيزان . وهينة الاجل . وجمجمة الزجل
وتكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابواب الجنان
للشهداء . وصرير انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى
اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعت الاصوات . واشتبهت

الاحياء والاموات . ووقع اصحابنا فيهم وقوع النار في
الخطب . واروهم في مـرايا البيض وجـوه العطب . ولوا
مدبرين . بعد ماتولوا مدبرين وجنودنا تشـلهم . وجـدوننا
تـفلهم . ولـتوتنا تـرضهم . وليـوتنا تـفضهم . وعادوا الى
البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نوادب . وايدي الردي
بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخل الليل . وعمهم الويل . واسرنا
منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، ومن اسر فخر قومص
عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشف عن حاله
بالنهار . وكان الملك الظاهر غازي . لم يحضر فيما تقدم من
المغازي . فرأى ان يحقق اسمه بقتله . فحضر عنقه بحد
نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هو
للشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثم عرف ان المركيس في
نفسه لم يذكأ ولم يذكب . ولما عطب اشياعه لم يعطب . وندم على
ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر ما دبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتج العدو ولج . ضجر
العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافلات . ولا يكرهون
الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومزاولة ما لايزول
تصعب . ومحاولة الممتنع محال . ومطال غريم هذا الفتـح
مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان
جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لا يكثرث بالكارث . ولا يدخل
سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمن ولي أو
ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا من
النصب ، وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يره ولم
يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف السبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعاfe . وبم ننتـوسل
ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله
يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومرب به ما
امروه ، وهمه ما به هموا . وآله ما به آوا . فراسلهم بالهيات
وواصلهم بالصلات . ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل
ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا
في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا
بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه
المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه
شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا
الارب ما يخطر بخاطر الارب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين
اذا تركناه ، وكيف نقول فائقنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة
اذا فاتت لا تدرک ، والبغية اذا وانتت فحقها تملك ، ونواظر الناس
الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجاوها
الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا
يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى
تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا
الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق
ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج
قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت
منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس
ابعد الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لالتطاول
الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج
المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . وانفقه في اهل باسه .
وواصل البنل وهجر العذل . وملا الايدي بالغنى . وروح للرجاء
نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر
فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعاة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . وبنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانث . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام الذكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولا يشطون ، فاول ما قالوا امهلونا حتى نعلم ما يكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بنفاهه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر النين دلردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لذسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبي الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجائكم وبان الياس ، واذا ابستم التسليم عدتم سلامتكم ، واقتمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولقاتلة اهلها مستنيم . والى ما عند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرج بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن وشقيف ارنون . ومن عمل طبرية والفور: صدف. وكوكب. وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين . من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صور محاصرا . والذين
الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح .
ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تستكين . وشدتها تلين وابيتها
تلين وسريها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشتاء
المكزون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي
النشاط . وعادت العزائم المتوهجة تبرد . والصرائم المتأججة
تخمد . والنخوات المتحركة تجمد . والحميات المتيقظة ترقد .
والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخدّم ينبدو . والطباع تتكره .
والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل . ومعاقبة النزال تنحل .
فلحاهم السلطان على ملاح . وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم
بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفر الا مع الصبر . وان
الظلم تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمراء جماعة منتجون
منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة
ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون
بانفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان . وعصيان الشيطان في
مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا رأي المشير
به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمّموا وتلوموا . وقالوا كيف
نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . ونذر كفرا طويناه ونهجر
خيرا ذويناه . ونداوي توحيدا شفينا . ونشفي اشراكا ادويناه .
ومالالراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن امسى
وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصبح وهو مغلوب . وهذه
صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنها
وخليناها ترفهت واستفهرت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت من
غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بالثابرة
مثاب . فمنهم الامير طمان بن غازي مااطمان يوما في الفزو
ولاسكن . وعز الدين جريك النوري كم جرد على اعناق المشركين
سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدمان . من عادتهما
الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخر
بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكروهون . واما الباقون فانهم احبوا
البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الالتقاء . وابوا الا الباء . وقالوا قد

لغبنا . وما بلغنا . وجرحنا ، ومارجنا . فلورحنا استرحنا . ثم
عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر .
معتف للعقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت
العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم ما برى من
غروب الحروب . وبقدر ما هدم من مباني البلد هدم اكثر منه مباني
الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما .
ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع
النواحي . فان تعذر لاح العذر للآحي . واصبح العسكر وقد
استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البصر والنصر استمد .
وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر
فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحدف . وكلما ترجلت
طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت .
وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم .
واجترأ اصحابنا . وراض جماهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في
البحر خلف منهزميهم . واقدام من احجم منا لاحجام مقدميهم .
فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام
الضراب مساعيرها . وامتلات السعير بقتلاهم وقالت هل من
مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد .
وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت
قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض .
وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاونا البلد
بمثل ذلك اليوم اياما . لذلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم .
والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقبلت عثرتنا لانجبرت
كسرتنا . وفيما الجريح والطلح . وحتى متى لانستريح . وقد توالى
الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات
كثيرة . والاحتياجات بها مشيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد
الخلعة وتسديد الخلال . وما زالوا يرسلون السلطان ويشيرون
بالرحيل . ويدعولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولا تذهب الايام
في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله
مودعه . ونشتغل بفتح الایسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق اموالا كثيرة على تلك
الالة والعدة . ومامكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقاها
لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها . وفك
بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشئت بعد التجمع شملها .
وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب ماتكاد
تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتأخر
السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى ويد ايده على
جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف . وتزود للانكفاء
والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . ونهب
من نهب على مواعدة في المعاودة . ومسارة في الرجوع الى
المساعدة . وودع الملك المظفر تقى الدين من هناك . واوعد بوعد
عونه الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت
معه عساكر الموصل وسنجار ونيار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى
وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعباً كثيراً . وان هذا
الهدو الذي مالوا اليه يصير لحديث حركتهم مثيرا . وبقي السلطان
يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتح الذي مالدركه . والنين
اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب . ويقولون
نمضي ونعود . وتساعدنا السعود . وتتجددنا الجنود . وتتجدد
الجدود . ويورق العود . وتصديق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبل
الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسعاد وساعد
الامكان . ومازالوا بنا حتى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهم
احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره
محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامر
لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عبادته . وان تبقى صور في تلك
الحالة للكفر وكرا . وللمكر مكررا . وللشرك شركا . ولنار جهنم
دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني
وعم البرد في القاصي والداني . وتوحدت السماء من حوامل
السحاب . وتوحدت الارض من سوائل المذاب . والنكب الرياح
عواصف عواصف . قواصف قواصف . والسحب الدلاح (٧)
حوامل حوامل رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بقات . وما مع مقامه وثباته مقام وثبات . وسرنا
عبايد في لبايد . وبين جليد وجلاميد . على الناقورة وطريقها .
والاثقال قد ازحمت في مضيقها . والاحمال تتواقع . والاجمال
تتقاطع . والسبل تذسد . والسابلة تترد . وسالكت الخيل الجبل .
وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل . وتأخر الثقل . الى ان
تخلص . وتقدم من سبق وتملص . ووصلنا الى عكا في ثلاث
مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب
البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الامر وتدمير
الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جاولي . وكان من جملة
الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي
صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السلطان لعلمه
بديانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقلته ونهضته وحزامته . وكله
بحصن كوكب الذي على الغور . وكانت فيها جمرة الاسبتارية
القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم . واشتدوا
بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضام . ومعقل لايسامى
ولايسام . وذروة لا تفرع . ومروة لا تفرع . وعقيلة لا تفرع . وبكر
لا تخطب . وقلعة لا تطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت
الحصون في سلك الحصول . وظفر الاسلام بالفتح المأمون
والمأمول . وافتتحت طبرية وأعمالها . وتملكت أغوار تلك البلاد
وجبالها . تمنعت قلعتا صدف بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر
فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهما .
فرتب على صدف جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الايية والنخوة
والحمية . ومقدمهم مسعود الصلتي أصالت سعادته منه سيفا

إصليتا . لا يلافت عن إلقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصر . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حذب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عقر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا . وكان ذا بين متين . ومكان من النسك مكين . وهويسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . بارية مقشعرة . أنوارها بائنة . وأنوارها جائئة . وهزيع جناحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مثيب . لا يفرق فيها السماء من الأرض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود . والعدم قد بنا منه الوجود . فما أحس محمود المحمود . وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدرُوا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الأمير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع . فلما عرف السلطان ما أصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد إلى الجنة مأبهم . فندب إلى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الاسد . والاحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول إليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل
للأمال فيها نجاحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح
النصر من مطلعته .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من
صدر

استأنن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأنن له وودعه . بعدما
أمره بكل ما يجب تقويمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك
العدل وأوجه إلى مصر . مستقبلا الظفر والنصر . وأقام الملك
الأفضل بعكا مستقلا بالأراء . ومستهدا بالآلاء . مستبدا بتدبير
أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم
لخدمة السلطان ملازمين . ولإقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب
أننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من
عنينا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت
الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج
الودق . (٨) وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح
الأوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الأوتاد . وتجللت بإبراد الجليد
من البرد الأكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام
تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان إلى المدينة . وسكن بها
في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة
المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وأبرام معاقد الحل
والعقد . وأحكام قواعد الدين والمجد . وأحياء سنة السماح
والفضل . وأعلاء سناء الاحسان والعدل . وأفاندة الكرام وأكرام
الوفود . وإعادة ما بدأ به من إفاضة الجود . وإجازة الراجين .
وأجارة اللاجين . وأسعاف العافين . وأبعاد العافين . وإناء أهل
العلم . وأغناء ذوي العدم . وإنجاح المقاصد . وإنجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل أفاق من: الروم، وخراسان، والعراق . عاكفين على بابه .
قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابيه . مستسعين لنعمائه .
مستعطفين لابائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه .
وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهواه الى سبيله وقد تعذر
بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون
الاولى . وتقاشرت عنه أيديهم المتطاوله وتمكنت منه يده الطولي .
فما منهم إلا من يعترف بيمينه ويعترف من يمه . ويقر بحكم النزول له
وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة
لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء
والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن
بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالكهمذان،
واذربيجان، واران . وهو عز الدين الطالبلي الطالب للعز . الراغب في
الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول .
ويتصل به رسول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى
وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا
فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها
فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده
الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقفا . واجنى المستحقين
منها قطوفا . وأسدى معروفها . وأعطى ألوفها . وأرغم من الاعداء
أنوفها . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا
للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة
للمتفقهه . وللطلبة المتعفة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل .
والنجاح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب
مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل ما يحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولأمنة الا قلدها . ولا أجرا
الا أجراه . ولا هدى الا أهده . ولا أمرا الا أمره . ولا دارا الا
أدره . ولا فريضة الا أداها . ولا فضيلة الا اتاها . ولا فرصة
صواب الا انتهزها . ولا حصة ثواب الا أحرزها . ولا رمم فواضل الا
أنشرها ونشرها . ولا أمم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك
قارئاً الا قرأه . ولا راوياً الا أشبعه وأرواه . ولا حافظ حديث الا
حفظه من الحدثان . ولا مدحسناً صنعة الا اصططنعه بالاحسان .
ولا ناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولا موافياً بقريض إلا وفى
قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي
بالتردد في الاعمال . وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال
وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل .
فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق
الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من
دار الخلافة إلى الرسالة في العتب على أحداث ثقلت .
وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعائيات في
السلطان عثت . في الأحوال . وشعثت . وذلك في شوال .
ونحن على حصار صور ونزاع ونزال .
ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الأكبر . وخص وعم النجح الاظهر . وقطع دابر
المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بطلين . أمرني
السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق . وتقديم البشرى به إلى
العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . وملك عقيم .
وسمو وسيم . فلا يجب أن يكون مبشر دار الخلافة . بما أنزله الله
لنا من الرحمة والرفقة . الا من هو عننا أجل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لقذون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه
بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولا ينبه لهذه المقامة الا القويم
النبيه . ولا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فان الشريف يتضع
شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بكرت . وموهبة
ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما
ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر
للاسترقاد . وتوجه بعد وصوله . ونبه بعد خموله . فسأل في
البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغاذ . وشفع له جماعة
من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر . فقلت هذا لا يحصل له
وقع . ولا يصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير .
وفي هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب التفهيم
والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعظيم . ثم سار المندوب .
وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس
أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندي .
فلم تجل به على كفو الجلالة من الهدى الهدى . وحقروه . وما
وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به
من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب
المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بكلام اخذ عليه .
وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة ذكره . ما
يعرض عن ذكره . فخيّل وموه . وتذكر وتكره . وظن أن لكلامه
أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانتهت الى العرض الاشرف مقالاته .
وعلمت جهالاته . وتجنني على السلطان بارساله . وطرق الى هداه
ما أنكره من مقال المذكور وضلاله . ووجد الاعداء حينئذ الى
السعاية طريقا . وطلبوا لشمّل استسعاده بالخدمة تفريقا .
واختلقوا اضاليل . ولفقوا اباطيل . وقالوا هذا يزعم انه يقلب
الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام
الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق البيوان العزيز
على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي وانفاهه .
وقالوا هذا تاج البين أخو العماد . يكفل لنا في كشف سر الامر
بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتظم في سالك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . ورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فسار وهــويـبـذخ وقـدـد
أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحف من
نور الالهية العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع
الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة واشارة
رادية وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهياة
عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في
الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري . وبلاغة بابلاغ . مالميس
بلاغ . وفئة وافية وصيفة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبة طول .
وكافلة كافية وسني نور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق
به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عاليا . جاحدا للنعمة شاكيا .
ذاكرا انه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . واكثر الكلام فما حرك
شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض .
وغضب مغض . ولفظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات
المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك
من وسم الوسم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا
بعشك فادرج - وقلت للسلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهر
سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت
بارسال أخيك وطلت وما أسعني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت
بالخطاب ، والمملوك يذفعه التأنيب . ويزعه التهنيب . على أننا لم
نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأننى
الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجبين . أما فتحنا مصر وقد
باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأنفنا بها تاريخ الدولة
العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

والدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما
أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحت عن حق الملك
الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحققة بالبيت الحرام ، وألحقته
رداء الاكرام . وأعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب
بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبت الا
بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الفريزة .
فأهلاً وسهلاً بالرسول . وبالسول وحباً ومرحباً بالاقبال
والقبول . ومأتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار
سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصاديق يرام اذا
وعد ، وماأسرنا بالواصل وأوصلنا بالأسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا
بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وأبدى لمعي . وجمع
شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي وأصبحت لقدمه
انتخي فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقديم
لجلالة قدمه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة
بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار
الكفار ، ومواطن اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل
الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبيبي
الحب ، وسفر وجهه لوجه السفير . وأحل محل التوقير
والتوفير ، وتبلغ له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأمل . ثم
حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وأدى الأمانة في
مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت
المعرفة والذكرة ، فقراتها عليه بفصولها وفصوصها . وألزمته حكمي
عمومها وخصوصها . ووقفته على ظواهرها ونصوصها . وكانت
في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة وخيلت سقطه ، وجلبت
سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ اللفاظ .
والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا
وارفق وأوفى منها فضلا وارفق . ومعاذ الله ان يحبط
عملي ، ويهبط أمني . وامتعض وارتمض . ثم اعرض عما عرض
ورجع الى الاستعطاف . وانتجع بارق الاستسفاف . وقال اما
ماتحله الاعداء وعدا به المتمحلون . وتنفق به المنقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • وماهزرت منذ
اعتززت اعطاف العزال لما يعزني من العاطفة ، وان شرقي بالنعمة
السالفة ، يوجب أنفي من هذه الأنفة ، وأما النعت الذي اذكر ونبيه
على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا من عهد الامام المستضيء
رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الاسنة . ومتي عد سيئة
ماعد من الحسنه ، والآن كل ما يشرفني به امير المؤمنين من السمة
فانه اسمي الذي هو اسمي واشرف . واطرا وأطرف وأرفع
وأعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلاص ولاء ، وخصوص اعتزاز
واعتزاء . ثم قال كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر اعداء امير
المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فاني
افترض الطاعة الامامية للدين لا للدنيا ، وما أتقوى فيها الا
بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع
دابر المنافقين والمبشرين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن
العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد
الاباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجرى
اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر زعر الخاشي . وجرب غش
الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت هموم ذوي الهمم ، وأوليت
كرامة اولي الكرم ، وما زال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري
في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكررات
البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من
الأكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له: قد نسب حقك الى البطلان .
ورميت بالبهتان ولمحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت
وما عفت والفسدت ومسا انفسدت . ورغت ومسا غرت .
وصبرت ومسا سبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت •
وراقبت ومسا راقبت

فقال تذالي للديوان العزيز تعزز به أئين . وتوسلي إلى مرضاته
توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي
تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له
واوضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت .
ووسيلتنا التي نجحت وكتابها مسعودين . وعليها محسوبيين . وقد
شملت بها برركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع
يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفذك ، ولا تثبت
لمن لا يثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي
واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر
بأن يقف به على مواقف الظهر التي ظهرت من أهل الرجز
والرجس ، ثم ودعه واودعه من شفاهه كل مافي النفس وبالح في
ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى
الديوان كتباً معه وبعده ضمننتها كل ماحلا وجلا جنة وجده ، وكل
ما يبطل سوق المتذققين ويعطل ذفاق المتسوقين . ويهجن خلق
المخالفين . ويزيل تليفق الساعين . ويزيح سعاية الملققين . ويتعرف
الى العوارف الغزر بالشكر ، ويسستعطف العواطف الغر
بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه
البشر ما عليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا
ومضى ما مضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدّم بالموقف في
عرفة لابداعه رسماً ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطاً وذلك ان أمير
الحاح طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به
بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت ذفره ، ولما نمي
الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان
طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان
العزیز هذا من ندوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد
سنتين .

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله
علاءه ، وظاهر آله وضافر نعماءه ، وأظفر بالانجح
رجاءه ، وأضعف حساده وأعز أوليائه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه
بالإيمان مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد
منمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاليه بقهر
الذقم مقمرة ، ودالة على البشرى بالفتح الأكبر ، والنجح
الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهـر . والفضل الأكثـر .
والافضل الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر
الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج
الأبلغ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والنور الأنم الأنمى .
والظفر الأجل الأجل . والوطر الأحـل الأحلى ، والشرف الأسنم
الأسنى . والعزم الأغـم الأغنى ، والسعد الأجـد الأجـدى . والصيت
الأبدى الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهـاب الفتوح . وتبوح
يسر روحه ومـلكه سرائـر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غواـدي
النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي
لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالسـاوجه السـافر والصـدر
المشروح ، وتتوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على
قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس
الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه
واستحكم وهنه ، وقوى نكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال
حسنه ، وأجـدت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوـفة
وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام لأسببه وساء ظنه ، وذكر فيه
الواحد الأحد ، الذي تعالي عن الولد ، وإن المسيح ابنه وأربع فيه
التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهيـ متنه ودرج
الملوك الأقدمون على تمنى استنقائه فأبى الشيطان غير استيلائه
باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفاذه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصلنا نص النصر . وأطلع الليل
عزمننا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسباب الاسلام وقطع دابر
الكفر ، وذلك انا استفتحن سنة ثلاث وثمانين بقمع اهل
التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا
من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفر
والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصد الفرنج
فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بردهم عن
المراد وصددهم ، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ،
وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا سلك امدادهم في ذلك
المسلك ، حتى وصل الحاج سالما . ونزل الكفر عن قصده
راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا
الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا للجهاد في سبيل
الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع
للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمرنا ولنا
الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ،
وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها ، وأحرقنا
غلاتها ، وقطعنا ثمراتها ، وأزعجنا ساكنيها ، وأخفنا
أمينها ، وأجلينا عنها فلا حياء . وأقمنا الذوائج عليها في
نواحيها ، ووصل اليها ونحن بالقريتين العسكر المستدعي من الديار
المصرية ، فقويت به قلوب الأمة الحممية ، واجتمع بالمخيم الافضلي
برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية
والموصلية والديار بكرية ، فانتهز ولنا هناك فرصة
الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا
سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسبوا وسلبوا فلم
يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، واخذت دون
خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح
العواصف ، وشرعوا الى عراني الكفر اسنة الرماح
القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه
مملوكنا قايماز النجمي صارم الدين ، فلقيا بصدريهما صدور
العوامل ، وحملنا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من
الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والبررة
الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشري ، وشكرنا الله
على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من
تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حرق
الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا
دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد
تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج
الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد قض الفضاء ختام
الافتام . وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيما بعشرا
(١٠) شهرا . وقد أعدنا بدشهر بنات الغمود سرها
جها . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها
مها . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم
فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك
الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب
الصليوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره
فراشهم . وتواني الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامه رعبهم
قائمة . وسوابج جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية
وسراياهم طالع . ومقدمات رعبهم منا السائرة لجذوبهم وقلوبهم
مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجة وعجيجه على
الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم
العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات
والارض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الاعداء . عالية
كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في
كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الارض بمثار نقعها . على
السماء . وقطعنا الاربن . وتأيد الله مواصل . وقدره باقدارنا
على الاعداء كافل . فما المما بطبرية حتى فتحناها
بالسيف . وبخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا
المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث
والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجه العريس . هذا والملك العادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية . ان نلاقي الفرنج على صـفـورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانة (١١) . وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج في مجتمعهم . واشرفنا عليهم في موضعهم . فما برحوا من مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتبنا في صحراء لوبية موضعا للمصاف واسما . وفضاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اسباب الظهور ميسرة . ووجدنا في خـواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجربة على طبرية . واخذ النصابون ساعة النزول في الذقب . فصرع قائم سورها للجنب . وبخل الناس اليها ليلا للنهب وكانت ليلة مدلهمة معتمه . وارجاء المدينة مظلمة . فاشعلوا واوقدوا . وبخلوا الدور وتفقدوا مالم يفقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان غلقت بها النار . فاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصن اهلها بقلعتها . وتمنعوا بمنعها . فأصبحنا على حصرها . وسالطنا جدد الجد في امرها . فجاءت رسل الامراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهم الندم كيف تركت وما ادركت . وأنها قد عبت جذودها . وشبت وقودها . ولبت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابجها الاعوجية . وان جمرهم قد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهم قد اتوا في عديم وعييدهم . وحدهم وحبيدهم . وخيلهم ورجلهم . وطلهم ووابلهم . وفارسهم وراجلهم . وأحزاب ضلالهم وابطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخواتهم نار الحمية . وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصصنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر
القاسي . ولعلت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت
قوانس قوامصه . وارتعبت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس
فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بدوساوسه . وماجت بحار
سلاهبه . واشتعلت نيران قواضيه . وشدت الاجادل دون صوار
صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات
بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في
اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت
الاسنة . ونقع النقع . (١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي
الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح
السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرم-رم
عارم . ومجر جارم . وعوامل ج-وازم . وصواهل
صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت
اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوايح قد اقلت
بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واولقناهم نهار يوم الجمعة
وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفذ
وجدارهم لا ينفذ . وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران
محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات
الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعى الموت بتلييتهما . واصبنا
يوم السبت واهل الاحد على حالهم ولم يريموا موضع
قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣) تتواثب
وتتناوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى
رواع . والمنايا تنن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور
لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في
اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران
شواب . وضماثر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد
تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامبرار أمراسنا
والهجير يتلظى وقد قد عليهم بناره . والا وام يتوقد ولايتوقى
احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة
للارتواء . فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم . وحالناهم عن

الورد . والجائناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل
حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي
القواضب . ونشبت من النشاب بهم نيوب الذوائب . وكان جمعهم
جمرا وقد وقد . فصب عليهم السيف نهرا فحمد . وفضوا
بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج
بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابـردنس الكركي
ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية
وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهذفري بن هذفري وابن
صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان
والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما
ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القومص
فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد
الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم اهل الجبروت . وحيز صليب
الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت
واللاهوت . ومك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا
الابرذس وضرنا رقبته وفاء بالندر . وعجلنا به الى النار مأوى اهل
القدر . والحقنا به الداوية والاسبتارية . وادنا عليهم صبرا
كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبي من نجيعهم . وقربنا سيد الافلا
من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعته . وحلنا عقدتها
وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها
بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد
الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها
امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفر غير سورها . وانها
وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد
المحاصرة الاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدانا بالنزول على القدس
وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب * فـرجف
بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من
بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقات هدت احجار الاسور
بسورة احجارها . وانن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القل لاقالة مادام
بها من العثرة . وكشف النقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل
جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبى الدار . وأيقنوا بالقتل
والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب
الامان . فأبينا كل الالباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي
الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم
البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا .
فأمدوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفي منهم
بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق .
وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من
التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر
قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها . ودخلت قبة الصخرة
لفضلها . وبشرت الحياة بها مواضع سجدوها . وصافت ايدي
الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج
وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . وبنا المسجد
الاقصى للراكن والساجد . وامتلا ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد .
وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجلبت
هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر
رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح .
وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار
التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما
من المهج والاذفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد
اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان
المجال . وهو للحرمين ثالث ولا تثلث في حرم توحيده . فتجدد جد
الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدييره . وقضينا حق تقديسه
وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي
صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شرمته .
وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا
عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من
مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤنن بأصحابها . واذا تسلمناها
تسلمنا بأن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقع
بهم واق . ثم رأينا ان حصار صور يطول . وان مسألة بيكار
(١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفوت . وله وقته الموعود
ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل
الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء ، وتواصلت
الانداء . ولا بد من استئناف جمع العساكر في ايام الربيع .
واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الافتح شمل الجميع . ورحلنا
عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . من يديم شن
الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليها . وفسحنا لاجنادنا في
الاستراحة مدة شهرين الى النيروز . فان في تلك الايام تتوفر
العزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاونة .
والمعاقة للمعاوضة . والمعاودة للمساعدة . فليس في الفرنج من
يقاقل الان على الخيل . والنهار عليهم في اظلام الليل . والعز
متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حربنا
مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الافتح على البلاد المعينة . والمعقل
المبينة . وهي طبرية . عكا . الزيب . معليا . اسكندرونة .
تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صفورية . الفولة . جينين .
زرعين . دبورية . عفريل . بيسان . حيفا . صرند . صيدا . قلعة
ابي الحسن . جبل جليل . بيروت . جبيل . مجدل يابا . مجدل
حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التل الاحمر .
الاطرون . بيت جبريل . جبل الخليل . بيت لحم . لد . الرملة .
ققيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشقيف . ولم
نذكر ماتخللها من القرى والضياح والابراج الحصينة الجارية
مجرى الحصون والقلع . ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها
اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقد جاس المسلمون
خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصيدنا البلاد .
وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سيف الدين ان
يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه
الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون)
(المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل
الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من
مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش
بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل
من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عذوه . ونال
العسكر منها بالتهب والسبأ حظوه . ثم حضر مجدل يابسا
وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك
الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد
مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجه . الي ان نفتح مافي
جانبا من البلاد ونسلمه . وننتهز فرحة الامكان فيما نحن بصده
ونغتمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفرورية .
وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها
سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت
بالامان . بعد ان قاتلنا اهلها قتالا شديدا الجاهم الى الازعان .
فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة
السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى
خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك
العادل على عسقلان . وهان لنا كل مااستصعب منها ودان . وظهر
لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فواندها لمارمينها بمصائب .
واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها
وعصيتها . واقتدنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيتها . وصافحنا
ببيض الصفائح يد الرضا من أبيضها . وباشرت سهام المجانيق
بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى
احجار البناء فهدمتها وهدمتها . وغنى فيها معول الذقاب . ولما ايقن
اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين
مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم
وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر
منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها
العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعازل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة
بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب
والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناء الله
من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لملوكنا حسام الدين
سذقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها
بحق منابه . والمجلس السامى يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو
عروسها البكر في حسننها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله
التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم
النعمه . لازل المجلس مشكور الشئمة على الهمة . منصـور
العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسماية

والسلطان مقيم بـكا وربيب الربيع رضيع . وشي الروض
وشيع . وصنيع القدر تصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض
وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار
منيع . واريح الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيح . والدهر قد
ثمل وفاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب
اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون
النرجس مصفره . وشفاة المنابع مخضرة . واحداق الحداق
الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت
متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه .
وجفون النوار متوسنة . والافنان مسورقة والورق متفننه . وخد
الخبري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه
الجنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل .
وشارب الذبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى
وسر . وطبي الطيب قد حقل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العرين . فأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده ويوارقه . وانفق خزائنه . وانفذ دفائنه . وبذل في صون الدين بيناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتدكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتال العدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج الالهيب المضم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتدكب . وهي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتركب . فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السلطان ورازه . واستصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تطول . وان مسألته تعول . وان محاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرتة . ولا مطمع الآن في فرع نروته . ولا قرع مروته . وكان في خواصه . واهل استخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللإشغال مدبرا . وبالإستظهار متأيذا . وبتأييد الله مستظها . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان سعد الدين كمشبه الاسدي بقلعة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك في الشرك . بمعتكرو يومه في المعترك . وافتتاح الفتح بحذفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعت اساسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهاال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تزداد ولدها . والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدتها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها . سائلة في فلنة كبدها . جائلة بجذوة كمدتها . باسطة يدها . نائرة خرزات دموعها . عائرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بنوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنتها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . بايا صبح وجهها اليقوق (١٦) في ليل شعرها الحلك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهضة متنهدة . واجدة متواجدة . معترزة متذلة . مهتزة متملمة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعنية . عاطية مستعطية . ساكية عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها النذب ناذبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنتها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . وبخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذري من دمشق اليها واقرب برؤيته عينها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنهم وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأقدشوا لها في خطأ الخطاب . وأودشوها بالتلحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسببوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها . وكلما قاربتهم باينوها فوجدت ذبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها . وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوبتها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن ، ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما الت بالشوبك ألّت من شوب كدرها واملت دفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فأبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال زعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرغد والرغد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا . الى صور . واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعده في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها . ويفي بمصايرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هذه المآرب . أقام حتى وثق
باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الآراء في امر عكا فانها كانت مدينة متخرقة . وبيوتها
متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بلا سور . ورأوا أن في
إبقائها خطرا . وأن في إخلائها ضررا فمن أصحابنا من أشار
بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قال اذا
صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية
قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قائل بإبقاء برج الداوية
لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أبنائها . ومن قائل نجدد
سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على
أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح إقفالها .
وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلها . ويحلي عواطلها . ويتوحد
بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها . ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان: ما أرى لكفاية الامر المهم . وكف الخطب الملم . غير
الشهم الماضي السهم . المضي الفهم . الهمام المحرب . النقيب
المجرب . المذهب اللودعي . المرجب الالعي . الراجح الرأي .
الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح .
وهو الثبت الذي لا يتزلزل . والطود الذي لا يتحلل . بهاء الدين
قراقوش الذي يكفل جاشه بما لا تكفل به الجيوش . وهو الذي أدار
الأسور على مصر والقاهرة وفات وفاق الفحول بأثار مساعية
الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

ونؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بالحضور .
لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل . متحملا
للثقل مذكر الصديق بالعمل . مذكرا بالسر والامل . مبتهجا بالامر .
ملتجعا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب
العمارة والاتها وأدواتها . وانفارها وأبقارها . ورجالها وعمالها
وعمارها . ومهندسيها ومؤسسيها . وحجارتها ومعماريها .
والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير للنفقة والذهب
الابريز والورقة . ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب . وحضر
الموكب وشرف باسني الخلع وأعطى الملابس والركب وفوض اليه
وقلده . واسعفه من عنده واسعده . وقوى جانبه . واعذب مشاريبه
وأوضح مذهبها . وانجح مآربه . وأجد جده . وكثر مدده . ووفر
عدده وعدده . وخصه بعطايا . واستخلصه لوصاياه . فتوجه الى
عكا وشغله متوجه . وعزمه متنبه وسره متفره . وفكره في رياض
الهدى متنزه . وامره ماض وحكمه قاض . والله عنه راض . وقام
بما أقيم له . ونهض بالعبء وحمله . ومشى بكفايته عمله . وشرع
في التعمير والتسوير . وتسوية الأمور بحسن التدبير . وسياتي
شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه . وما ظهر من حسن اياته
واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره
من الرسل .

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد . واستعلائه في
الجهاد . وتارجت الارحاء بعرف عرفه . وأرخت السير بمحاسن
وصفه . عنت الامصار لمصره . وأعنت الاملاك لملكه . وانقادت
الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح .
وشروح ايراده واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه
بالضراعة كل عظيم . وتأهب له بالطاعة كل اقليم . ورهبه ملوك
الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه اهل الاشراف . فكاتبوه

مستسعين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خالف الامتزاج . والاتشاح والاتصاف بحلف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . وليده وقدمه من تمكينه وتأييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوصل . وبذلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتصاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الاذعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى للرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب النذب . وأنفذ أكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعنداهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولا تصرف له في ملك ولا مال الا بتصريفه . ولا تعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشديد المقاصد . وتجديد العهود . وتأكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقيل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالاثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج السلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب . وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقى تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وأبعد باناء مآربه مارابه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأواه لولائه . وعرفه بالتعريف الى الآئه . ونصبت له خيمة مسرده . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مفدقة . فأقام أياما بيا من مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام .
ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين
سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا . باحسان الخطبة
وخطبة الاحسان . راغبا في تديم الوصلة . وتعميم الصلة . أخذ
لصاحبه ملك بيار بكر عهدا محكما . وعقدا من الميثاق مبرما .
وقد أحضر قضاة بلاده شهودا . واقتضى لصاحبهم بحضورهم
عهدا . وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل . ومات بكثرة
الشوافع والوسائل . وكان خائفا على آمد فانها من فتوح
السلطان . وهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان . فاشفق من
استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع
بلايه من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة للمظاهرة . وان يفتح
بها باب المزاورة للموازرة . فأواه الملك العادل الى ظل هذه
المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم
يمينه . وزاد قربيه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده
الامائل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد
مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك بيار
بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار
مصحوبا . وقال له : قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركك فالى
سواه لا تركز . وما من كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه .
لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم
رأينا انه يطول حصرها . ولايقوت أمرها . وان الافتح يبطيء . وان
كان السهم لا يخطيء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من
الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان
نحو دمشق طاهر الشيمة طاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس
سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطول . وتلقاه
اهل البلد بوجوه لاقباله متهلة . والسنة بالدعاء له مبتهلة . وعيون
لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممثليه . واسماع لامره مستمعه .
وايد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه مذرحة . وأمال في
انعامه منفسحة . ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة •
واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل
اليها السكينة • فوجدت الروح بسلطانها . وعادت الروح الى
جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها .
وابتدا بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من اهل
الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتألمين .
وكشف الظلمات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل
قصة . وقرأها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقام
للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه
كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السماح .
واصبح جراح النجاح • وأعدى المستعدي • وأروى الصدي .
وحيا الحي وأورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحق حتى قيل
هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانقضى اولئك القوم • الا عن
مظلوم أجبر بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم
أهين . وهاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقد ومعتل
شفي ومعتز كفي • وما حل جيد • وأمل زيد • وركن حق شد
وشيد • وخن باطل أبير وأبيد • وراح أننى فوزه . ولاح أسنى
عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والاماثل . والاكارم والافاضل .
فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهدى . وكر
الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتظم
الشمس • وصان العلماء بالبذل . واعان بافضاله أعيان اهل
الفضل . وفاز بالحمد وحاز الثناء . واجاز الشعراء واكرم
الكرماء . وروح الرجاء . وأولى النعماء . ونعم الاولياء وتقاضاه
عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واستضافة المملكة الى المملكة .
فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جذبية لحب لقاء العدى اهل النار نار • وكان الصافي
ابن القاىض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة دارا .
وأذهب في نضارتها ذهباً ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مطلة
على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن
الغوطتين • صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهو . شهية
الزهور . مجدة لأهل الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد .
وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها . وأعلى نورها .
وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسمى
أنوار مشارقها . وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه .
ونهب تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقرظ
بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه
بنشيد . وكل قاصد جلاله أرجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب • وكل
مطر مطرب . وظن ان السلطان تروقه تلك الحلية والحالة . وتلك
الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعة المقدسة .
وذلك المشرف العالي . وذلك المشرف الحالي . وانتظر نظـر
استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا .
ولا لمحة بطرف استطراف . ولا منحه حرف استعطاف . بل اعرض
بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضارة . وغض عن تلك
الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة . فالعاقل من
لا يتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا
يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف
يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم .
وقال السعيد من يبني دار الآخرة . وينجو من امواج الدنيا
الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصافي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخزانة
على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد أجرى له حديث
من يفرح بمنزله ؛ كان من نذوب الصافي عندي انه بنى لي تلك
البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال ما يعمل بالدار من
يتوقع المنية . وما خلقنا الا للعبادة . والسعي للسعادة . وما يخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومالنا وللمقام في البلاد والبلد .
وما جئنا لذقيم . وما نروم (الا) ان لانريم . وما تحركنا الا
للسكون . وما سهلنا الا للعود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحة
الا من مغرس التعب . وما يجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب .
فأين الاين . الذي تقر به العين . وما يحصل السكون في المسكن .
ولا يكمل الوطر في الوطن . لاسيما والدين يطالبنا بدينه . والكفر
يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . وللبلاء هائبه . فلا تفوح
الفتوح الا بهبوبنا . ولا ينزل النصر الا بركوبنا . وغدا للحزم
متمما . وللعزم مصمما . ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق
بالغرب الماضي ، والحد القاضي . والجمع الوافر الوافد . والجمر
اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قد اقبل
بقبيله . ووصل برعيه . وقدم بجده ، وا قدم بحده . وانه حل بحلب ثم
سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعا .
فأرهدف العزم السلطاني خبر وصوله . وحل بالشد للرحيل عقد
حلولة . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة
والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبرها . واستقام
مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثرها . والسلطان بنجح
سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقوله عامل .
وبعبارته قائل . ولا شارته قابل . فأراد السلطان ان يقدم بلقائه
الاجتماع . وبرأيه الانتفاع . ويستشير بنوره . ويستشير في
اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه
ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السعاده من مطالعه .
واجتنى جني الاراة من صنائعه . واقتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه .
وجاءه بالوجهة في بينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خرج
الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى .
فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الاول على
الرحيل . فقصده لابرام ما وجده في مملكته من الامر السحيل . واقام
عنده في الجوسق الى الظهر . مستظها به على الدهر . حتى كشف
مهمات مهماته . ورشف شفاه مشافهاته . وانتجى معه في الاراء
والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل
الفاضل وشيعة . وبات تلك الليلة مخيما بالعراة . محتما بالسعادة
راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سلك في جبل يبوس الى عين
الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه
والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلبك المحروسة . وخيم بمرج
عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله .
وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه .
وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من
المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاية برعاية
امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة
الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة . معصوم الذبوه .
مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر
قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد
كحل عتير العسكر طرف الجو الامره ، (١٩) وقد آن لعين الشمس
الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع من الزراعة من
السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق
ذلك الفضاء الواسع بحط رجال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع
من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس
(٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدمه
تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك
ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف
على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهاره نهاره ، وسرنا
بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب
مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملاقه ، ونزلا

فتعاقبهم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجثمنا وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجنان ، وسعد الجدان . وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظامان واتحدت الكم ، واتأدت الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبووره ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختطين . وجلسا مذسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ القراء واورد الشعراء . وتجاذب بينهم اطراف الطرف والاداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم . ومن عاداته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأنشد مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهارة من كل حاجة وباجه . وخروف وبجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه (٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . مطاب مذاق مذهه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من نايه القرى . وفرع بأيديه الذرى . قدم ما عده للهدايا . والتحف السنيا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعدد المعجبة . والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضئ ويضوع . تم انفض النادي عن ندي منفض . وسدي ليكر الشكر مفتض . وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن ستمته وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادي بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على البسط ما حضر من الياسمين والورد . وفاح النثر . ولاح البشر ، وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . وشرعت القباب . وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح النوافج . ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جنبه .
وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس
رسمه . وسما في الرؤوس اسمه . ووقف الامراء والحجاب .
والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتزاز في
معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبا . والذرا رحيبا .
والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل مورودا . والحفل حافلا .
والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والذشاط مقبلا . والمرئي عاليا .
والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخير جليلا جميلا .
والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمــــــــــــــــــــــــــــــــان
جليا . والربيع في انتهائه . والصنيع في اشتهائه . والمصيف في
ابتدائه . والمضيف في انتدائه والنعيم في نضرته . والاريب في
اربه . والطروب في طربه . والضرب من الخلق الحسن في
ضربه . وكانت ايام المشمش وقد وصلت من دمشق
احمالها . وحلت في تلك الحالة حالها . واقدام الجند
قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبر
مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية
حلا وذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى
من السكر . واعبق من العبير . واحسن هيئة من النارج
الاحمر . والليمون المركب المدور . وقد زفت عروسه في الثوب
المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل . وخلط
بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربه مثل
الثلمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر . وما
حظر ما حضر . ورئي هناك لقطوفه قطاف . ولطوافيره
طواف . ولعقوده مصارف . ولنقوده صيارف . فكأنها وجوه
العشاق اكتست اصفرارا . أو جمرات تشتعل نارا وتبدي
شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بل هي
احداق الحدايق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه
البرق . وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت
من مهابة الجنات الجناه . وانتظمت من جواهر الحيا
للحياة . واضطربت لهاها شوقا الى فتح اللهاة . ثم صرفت

الاطباق . ونظفت الأفاف وبسط المكان . وسقط الخوان . ونبهت
اجفان الجفان للقدور الرقود . وشبهت المراحل لقلبانها بصدور
نوبي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري
بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف
السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب
المطبـوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبـوب . والاغنية
واللحمان . والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي
والروابي . والصواني والاولاني . وقد صفت البوارد . وصفت
الموارد . وتقوت الطهارة . وتنوعت المشـهـاة . وحلت
الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط .
وعاش اخوان الخوانسلاز الفابط . وتداولوا وتتاولوا الذوات
والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا
مورودا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا
مسعودا . وصنعا محمـودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت
المقاصد . احضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من
تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياد من
طاوآذ الطرفيات . وسـوابق سـوابج من العتاق
الاعوجيات . والمذاكي المنسوبات . من كل مطهم مطهر
الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاديم . ومعرب
مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سهلـب . وبحر
جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيعظم . ويعبوب صلدم . واجرد
قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهـد . وجواد ورد . ومسح رفل
طمر . واشق امق غمر . ومفرع طمـوح . وعتيق غير
جموح . وهيكل عال . وعنجوم نيال . فاختر منها كل طرف . قد
حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل
سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم ادوى . واشقر
مدمى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسمند
اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف
الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابقات
والدروع والزريبات . والرؤوس والرانات . والخـ

والتراذك . والبواقر البواذك . والدلاص الموضوعه . والنصال
المسذونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريية . والملمم
والديقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تونة
وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على
الذمت والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده
متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامره متحبر
متربح . ووده مترح مترجح . ودعاؤه صالح . وثناؤه
صاح . ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده
ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي
بما في الذفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد
ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضوع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي
العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها
وعقورها . والنزول بعقورها . وانها اذا ملكت ملكت
طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسكر اياما
على قدس . ويقبس النصر قد تأنس . ولسنا الظفر قد
توجس . واتي العرب . واتي الارب . واجتمعت الجيوش
وجاشت الجموع . وأن الليل العزم المدلج من صبح النجس
الطلوع . ونبتت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمار
المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة
تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى
الجهاد هوائي الجياد . وادينا قطاف الطاف الله لاجتناء
الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشواثب من
المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار
الرب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر . وطاف الذعر . وقال
نفر الشرك نفر . ولانستقر . وتشاوروا وتشاوروا . وحاوروا
وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من
الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على
التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر
عن الاثقال . وتجراً على اخذ اهبه القتال . وسار السلطان ومعه
عماد الدين زنكي . وسيفه بصلقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهو الذي حين يوارى صارمه
المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصحبه من فرسان
العرب كل فارس معرب . ومن شجعان الاكراد كل فاتك
محررب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصنايد كل
كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكيدش على اكيدش . وقارح
على قارح . وخضم على سابح . وجري جار جارح . وبهمة
وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر نكل وورد على ورد
ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس
اليس . واحمي احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدم . وباسل
ذي باس . وعاسل عاس . ورئباك على رئبال . ومشتمل على
شكال . وبجر على بحر . وصقر على صقر . وركبوا
سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا
بالذوابل ذيولا . وطار ايليس طرايلس بخروافي الخوف . ودام
الجوى في رعب اهلها بدم الجوف . وماसार الا من خف في
نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكار . وصفت
على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقرت . وتعمرت
العريمة وتعقرت . ومزعت تلك الاعمال ومزقت . وارهقت
وازهقت . ونفرت انقارها . وبقرت ابقارها . وملئت بالدوائر
ليارها . وسيقت مواشيها . وحشيت بالنيران اوساطها
وحواشيها . ونزل السلطان على حصن يحمور فما قدروا
يحمونه . وابتذل مصونه واسـتخرج مـكـذونه . وفتحـه
ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقام في تلك الليار عشرة ايام
يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفاذسها ونفوسها . ثم رحل
بمغنمه . وقفل الى مخيمه . وعاد العسكر مسرورا
منصورا . محبورا موفورا . قد اطلع من تلك البلاد على
العورات . واضطلع بالغنائم في تلك الغارات . ونكا منها في الاعمار
والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المريج يموج بالعساكر
موج البحر الزاخر . وقد وصل قاضي جبلة يحـث على
قصدها . ويحض على انجاز وعدها . ويحرض على اعذاب
وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقول

ان الاشتغال بطراباس مع احترازها واحترازها . وكثرة
ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها للحصار . وتجنبها
عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما
وراءها من المعاقل . قنيصة الحابل . وفرصة للمتناول . ولهنة
للآكل . ونغبة للناهل . وامنية للعاقل . لم يفتزع عذرة امنها
ذعر . ولم يفتأ سورة دفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان
سلكنا سبيلها . ملكنا سلسيلها . وان جزنا ساحتها . حزننا
راحتها . وان استقنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها
حويننا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة
مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم .
فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه . واصفى السلطان
الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له
العطاء واكملة . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم
رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالماهوب
واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع
السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجاهل . ورحل يوم
الجمعة رابع جمادى الاول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي
المنصل . فسرنا في اجام مؤتشفه . واکام معشبه وحزن
وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . ورواب
وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا
الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك
النواحي المواجهل . ومعنا احمال واوساق . واثقال
واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل
عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل
العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد
نشأ العجاج كعجاج النشاص . فاندحت بدلولنا معاقد
المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه
سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة
واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياح وارتقاء . وفتك
باعاء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل
ويل • فما نقطع الا وايا يغيظ الكفار ، ولانحضر الانابيا نزيدهم
به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى
وصلنا الى أنطربوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من
البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها
الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا
ساعة ، فلم يجد اهلها للدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها
وتخللت من مذهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها وفل
غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نساءها
وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما
هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم
مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون
الناجون ، والقارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر
الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم
الى الخروح بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمذوا بميثاقه • ومكن كل
منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه
وهده ، وحل من احكامه ما الكفر شده ، وركب النقب على ركنه
العالي ، ونكبه في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب
الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية
بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمررد هوى طاغوتهم
الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطربوس
وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج
تركناه ، وما كانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح
برج عن البلاد ، وللفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك
الجدد اللاحب لا يعرج على بنيات الطرق ، ولا يستغني مدلج الليل
بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين
على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها
وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على
الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبترارية عالي
المنكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق ، وقد صفت الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب ، وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح ، فعرس العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الأعواز ، وذلك ان صاحب صدقية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الايام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العابية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط . قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلى ولا أمر . ولانفزع ولاضر ، ولاستقل ولاستقر ، ولانقض ولامر بل صار على الفرنج وبالا ، وحدث لهم بما يسومهم من مؤنثه امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيهم فلم ينتفع ولم يرتفع شان شوانيهم ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجنبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطعت اقطاعه . وتتابع في الفرار اتباعه ، حتى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي الى هناك وتصفيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها ، الكماة النخية . والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها الحن ، وأنحت الأحن ، ورحل العسكر فعبر أمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنبتات الوادي مريضة ، والنسيم العليل ليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسوم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ، (فساء صباح المنذرين) ، (الصافات ١٧٧)
وسرنا وسرنا في سرور ، وسرنا في سرور وجمعنا في اجتماع ، وجبنا في ارتفاع ، ونهجننا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازبحم العسكر عند ذاك النهر ، وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده . وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطئ هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة القناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سبلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، وافينا بلدة خاوية على العروش . حاوية للوحوش . خالية من الأندس والأندس ، (وكأن لم تغن بالأمس) (يونس ٢٤) ، وقد انزعج اهلها ، وتششت شملها ، وتخوف أمزوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضع في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتصافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعز الاسلام معتصمين ، وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الاسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قال انه بحصانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا من استرهضوه ، في انطاكية من أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم من سلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتســــلــــمنا الحصــــين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بالكرام جبلة جبلة ، ونفت عنها بالفئة المقبلة ، الفئة الشقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة بالرءاء ، وافضى اليأس بهم الى الرجاء ، وفاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل الايمان ، وكان حصن بكسراثيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي جبلة مذعنين بايمانه مؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقائه محيين . ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار والاستغفار والاستغفار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سكانها حانية ، وتلك المدينة لأهل الدين دائنة دائنة ، وتلك الجنة العذبة الجني لورد دم الجنة من شوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم اساس الاساءة بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية والرتبة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحالة حالية ، واقام السلطان بها اياما حتى أزال شععتها . وأزاع خبثها ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، حتى أزال كفرها ، وجبر كسرهما ، وجد بها جذبها ، وحض بها خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبالرعاية ملاها

واللرية كلاًها ، وبل قاضي بلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا
ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور
الاولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب
راجح الآراء ، وسار يرعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو
يصممه ، وأمر لأمرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين
يقفة ، وحد في تدمير المارين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله
يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار
يشعلها ، وجيش للوثبات يذشطه ، وجاش بالثبات يربطه ، وهيبة
تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من
اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن
اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد
فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة
منهم خافقة والانية بهم متضايقة ، والمهيج في سوق الردى
نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر النيل ، ومن السوابق
في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم
في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتقاء ، ومن انتقاد
العناق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في
انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات
تسرج والسريجات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب
والصوامر تنتضى • والصرائم تفتضى ، والقوارح تضر ، والقرائح
تخر ، والضوامر تجرى • والبواقر تعرى ، والصلاد تلجم •
والدلاص تستلام • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية
تعبي ، والجاوشية تلبى .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . ولجاش فرح . والجيش مرج . وقرح العدو
مقترح . وزند الافتح مقتدح . وباب السماء لنزول ملائكة النصر
مفتتح . وأحدقنا بالقلع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من
موقها أماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها
الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا الذشاب الى أوكار المقل .
وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل
الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل .
وأشرفوا من الشراريق قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا في
القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال .
وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرج دورك . وقلنا للكفر اخرج
لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك .
وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم
بسواننا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من
الصور حجاب به بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار .
وأخذت عليهم الذقوب . ووقذت منهم القلوب . وبلغ النقب من
الشمال في الطول ستين ذراعا . وأربعة أذرع في العرض اتساعا .
وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول القل متناسقات . كأنهن على
رأس رأس راس رخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها .
وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا
بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضفائن .
وأثارت من مكان الاحقاد كوامن الدفائن . ودام الرماء . ومريت
الدماء . وانتجع النجيع . ووقع ذلك الرفيع . فاستبطني السريع .
وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعابذوا ما عاذوه
من غريم الموت المطل في مطله . وفتح الحذف بابه . وحفز الزحف
اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدسه المطلول مصبه
ومصابه . وذفر الناس اليهم . واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم .
والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم . بدواء
في بوارهم . وويل الذبل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام .
وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع . ومنافيهم
الطمع . حتى ازبحم على القل الصغار والكبار . واستشعروا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق
وأرهف فقبل خده سهم . فرجع وإذا وجهه طالق لاجهم . وهو
بقرحه فرح . ولافرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح . وحسنه
القيح . فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون .
صاحوا الامان . واستمادوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس
والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله
مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع . ولم يكن للكفر غيره مفزع .
وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صالحا
أشبهه عنده . وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلي
النور . وأشرق الفلق وزهق الليجور . وبدا الفجر وباد الفجور .
وسرت القلوب وأقبل السرور . وساموا القلاع بما فيها من عدة
ونخيرة . وأسألحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم
وأموالهم . وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم .
وخفوا من أذقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الزمة . وتمسكوا
بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا
بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من
خواص مماليكه . وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد
مصونا من الاشرار وتشريكه . ثم ولى بها سنقر الخلاطي
مملوكه . وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه . فتولى الرعية
كافة بالرعاية والكفاية . وانتهى الى غاية في نهى أولى الفواية .
واقام جاليا للغاية . عالي الرأي والراية . وركب السلطان الى
البلد وطافه . وهز إلى إحسانه أعطافه . وأدنى الى عدله قطافه .
ووفر الطافه . وأصفى نطافه . وامنه بعد ما أخافه . ورأيتها بلدة
واسعة الافنية . جامعة الابنية . متناسبة المعاني . متناسقة
المفاني . قريبة المجاني . رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي
كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتها
مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة .
ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة .
ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية . وقطوفها
دانية . وأسواقها فضية . وأفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موزقة . وأرجاؤها فسيحة . واهواءها صحيحة . لكن
العسكر شعث عمارتها . وأذهب نضارتها . وأزعج ساكنيها .
وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للموحدين . وطهرها من
رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامراء الزحام على
الرخام . ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجوه
الاماكن . ومحووا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة .
نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاء مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة .
وأجناس تصاويرها متذوعة . وأصول تماثيلها متفرعة . وهي
متوازنة الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه .
وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخوان الشيطان . وعينت
لعبيدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها . وشوهوا
أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهد
أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابلاسها . وحكموا بعد الغنى
بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخربت وتربت . ثم لما طابت
النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هذه الكنيسة
بالأمان القسوس وهي متشوهة متشعثة مستمسكة بأركانها
وقواعدها متشعبة . ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت .
وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بأنها
عادت للاسلام مراتع . ولسروحه مراتع . ولجموعه مجامع .
ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها
من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت . وشأت البلاد اذا
شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسلام الى أحسن
حاله . وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان
البلد من النصرارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض
مأمول الجني مأهول الجنب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحاب .
وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار .
والاشرار أهل النار . وكانت شواني صدقية . قد قابلت في البحر
اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنياده عنها ودفاعها . فلما
خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب من
يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها . فامتنعوا عن

الانتقال . وأمذوا بعقد الذمة على الذفس والمال . وكان السلطان يوم
الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة
مناها . فطلب مقدم تلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه .
فأمنه حتى صعد . ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر
الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان .
وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك
رحيم . وقد شاع عدلك . وذاع فضلك وقهر سلطانك . وظهر
احسانك . فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت
عليها وأحسنتم . لما كنت قيادها . اذا أعدت بلادها . وصاروا لك
عبيدا . واطاعوك قريبا وبعيدا . وان أبيت غير الغيرة والاباء .
ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة
البحار من يسد فضاء السبع الطباق . وأفاق للتناصر على دفع هذا
الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار . وخرج الفرنج
أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك
والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون
منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد
الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في
الجهاد . وامثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح
البلاد . ولا تكثر الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض .
ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد
الاعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على
وجهه . وركب بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في
نصره بين أنصاره يتهدى وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى . وان العزم
عن الفداء بالمهج في سبيل الله لا يتفادى . وأخذنا على سمت
صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتون . وللإسلام محيون .
وكان الطريق اليه في أوبية وشعاب . ومنافذ صعب . ومضايق غير
رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطرق في
يومين . ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صهيون
يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي
قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جانبين .
والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وسور وثيق . والقلعة ذات
أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سخاب . وأسد
غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الاربع .
وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل السلطان
خيمته الى جانب الجبل بكرة اليوم . وشرع في محاصرة القوم .
وقامت أسواق الاقواس للمزون في مغالة السوم . وتوفرت سهام
السهم من المقل . وتبدت بنات الكنائن من الدم القانيء حمر
الحلل . وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور
الكنائيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مرءاء الرماء .
وزخر دماء الدماء . وطارت الحجارات . وحجرت الطيارات .
ودارت حميا الحمام على أولئك . واستنجدت ملوكنا الملائك .
وأدامت اليهم المجانيق والجروح والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك
الظاهر غازي صاحب حلب منجنيين . ونهج بهما من جانب
الوادي الى رديء الأعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد
العالى . والجد الوالى . والعزم الماضى . والحزم القاضى . والسعى
الناجح . والرأى الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فانه
اتصل بنا قبل الوصول الى جبله من طريق حماه . وقد استصحب
الكماة الحماة . ومعه الرجال الحلبية . والمنجنيقية والجرجية .
والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب
الذكر والثناء . وأثار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتال على
المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظاهر في تظاهر
ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعذفوان جلاله . وشباب
رهان مجاراته . وشبا برهان مباراته . وابراق عوده . واشراق
سعوده . وغرة عزته . وميعه منعته . وصدر تصدده . وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشوء اغتباطه • وفتاء
فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتقاعه • وايفاع يفاعه • وترعرع
سنه • وترعرع ركنه • وتسامي سيادته • وتراقى سعادته • واجد
لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واستلذ في سبيل الله
نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله نوبا • ولأحواله
رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجارات
الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم الحصن •
وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر • فله در المسمى المحسن •
وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا
تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصن • وهان بمادب فيه من
الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة • وطما
بحر العسكر بأمواله الزاخرة • وازحم الناس في الزحف كأنهم في
الحشر بالساهره • وهاج الشباب • وماج العباب • وتسابق ذوو
الجرأة والقوة • وتلاحق ذوو الحمية والنخوة • وكان في قرنة الخندق
عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقه • ولم يتم توثيقه •
فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة • وتسوروا السور وتسلقوا •
وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا • وتملكوا الذروة • وامسكوا العروة •
واستولى على أهلها الرعب • واستشرى بهم الكرب • فتعادوا الي
القلة • وتفادوا من الخوف لامن القلة • وملكت عليهم ثلاثة أسوار •
بما فيها من متاع وشوار (٢٥) • ونعم وأبقار • وصاحوا
الامان • وبذلوا الاذعان • ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا
المكان • فما امنوا على المال والنفوس • حتى قررنا عليهم مثل قطيعة
القدس • واغلقت دونهم الأبواب • وسير إليهم النواب • وما استقر
خروجهم حتى استخرج منهم القرار • وجبي الدرهم والدينار • وعم
الكبار والصغار الصغار • وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار •
ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله • وسائر ماحواه من ذخائره
وأمواله • الى الامير ناصر الدين منكورس بن خماتكين • اسد
العرين وامير المجاهدين • المقدام الهمام • والمطعام • فالفى الثغر
سداه بسداه • وامرع به مراد مراده •

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين •
ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه •
وسلكه في سلك الفتوح ونظمه •

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية
الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة
الله والنصر قد نزل . والكفر قد اتخذ . يوم الثلاثاء سادس
الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر .
وحكم السلطان في القهر ماض بانن الله على الدهر ، وتسلم حصن
بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشراك نكاية حد
بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة
الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القل • على هضبة منقطعة .
عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في
أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها •
واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق •
ولا فيها للطمع علوق • ولا للسهم اليها مروق • ولا للزحف فيها
مقطع • ولا للذر نحوها مطلع • ولا للطير في مراحها وكر • ولا للمكر
في افتتاحها مكر • ولا للوهم في توقلها مجال • ولا للفهم من تصورها
منال • ولالها بمن يحتفل بها احتفال • وماعليها للنازلين عليها
قتال ولانزال • ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل
الشفر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي
من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • ودامها بالحجارات
أياما • ولكم سد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رماثها • وابت الا ثباتها وثبتت على اباثها • وأعيا
اعضال داثها • واستفحال بلاثها • وخام الرجاء بالارجاء عن
ارجاها • ولو لم يضجر حاميا لضجر راميا • وسئم سائما
لتساميا • لكنه وهي جلده • وهوى خله وخار قلبه • وحار لبه •
وخاف من الاقامة • وخاب من السلامة • وارتاح الى الراحة •
وسما الى السماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خووفه في
الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعاء • والخروج من الضيق
الى السعة • فبينما نحن في ترو وتفكير • وتخير للرأي وتدبر •
وذقوا هذا حصر يشدد • وأمر يمتد • وعمل يصعب • وأمل
يتعب • ومعدل لا يختل ومعدل لا يحتل • ومقصود لا يدرك • ومورد
لا يملك • ومكان لا مكان لفتح • ورجاء يطول الزمان في تطلب
نجه • اذ خرج من الحصن من يضرع في الأمان ويمتري ضرع
الامن • فشكرنا الله على تسهيل المتوعر • وتيسير المتعسر •
وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتنقيح مناط حكم
الصحة عند اضطراب علة القياس • وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم
الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء • ليخبروا صاحب
انطاكية ويستأنذوا • ويقبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن
ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك
مقفر والشجر شاغر • والكفر صاغر وفسم القهر منا لهم فاغر •
والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مئاغر • والحصن البكر مفتزع •
والدين المتأصل بشعب النصر متفرع • وطلع العلم الى ذلك العلم
الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الطالع • وكأنما عذبات
ذلك الراية مفاول الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع
الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بأيدي الأيد
ايمان ذوي الايمان • فابتسم عن النصر ثغر الثغر • وفرغ القلب من
شغل الشغل ، وسلم هو وحصن بكاس ، الى غرس الدين قليج
الساقى عدوه الموت بكاس الباس • وانتقل السلطان يوم السبت الى
مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة
سرمانية ، وأرهب فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة
العانية • وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ماكانت له من المال
مستطيعه • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج
حتى خربها عاليها • وعطل حالها • وانجلى ثاويها • وانتأى
جالها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما
خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة •
مستوحشة بعد أن كانت آذسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث
والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين • ومن
نواذر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام
الجمع الخمس المتوالية • بآء فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل
السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التذليل قاهر الأيد . ظاهر
اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي
احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق
الرواسي واسماها واسم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق
اليها واشرف عليها . ثم استدعي الذقل واستحضر . وجمع بالفضاء
تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في
العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد
والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء
في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال .
مترامية في السماء ارتفاعا ، وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة
ونيفا وسبعين ذراعا . فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات
السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها
صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها .
وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماءها . وتحاجزت عنها
الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة
قلائعها . ولاطلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طواله طوالها . فكان الصخور سلم نحوورها . فإن
سورتها تنكسر دون الوصول الى سورها . ولما رأى السلطان انه
لا وصول الى نيقها بالمنجنيق . وان الاشتغال به يطيل زمان
التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك الحف . وذلك في
السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسم الناس ثلاثة
اقسام على السواء . وجعل الذوبة الاولى لعماد الدين صاحب
سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد
الحلاح (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح
وعفاة الصفاح . وذفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقدام . وشفافة
الاوام بعة الانتقام من الاقوام . واساة ذوي الاساءة باحسان
الحسام . وكساة عرى العراء اربية القتام . ورقاة اراقم اللهازم
وسقاة حوايم الصوارم . والمزاق في حومة الردى رداء الماذق .
والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد
بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبار . ولاسع بحمة
الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولايس لباس الباس كالاسد
الباس باسل . ومعتقد الدين . للريني معتقل . ومعتقد على العدو
بعادي معتقل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ،
ومجتب لحب المذون لرهون ذفائس النفوس محتاز . فاندقوا على
الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفايد هده . والصدى
يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال
تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقى . والمصاعب تلقى .
والمضايق تولج . والبوائق تخرج . والاكام تفرع والرجام تقرر ،
والصخور تريد . والجلاميد تميد . وما زالت هذه الذوبة تنازل
وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وترد
وترد . وتصد وتصيد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجم . وتصدع
وتصدع . وتحمل وترجع . وتذكر وتنطفئ . وتبدو وتختفي حتى
كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبت . لولا انها لغبت ،
وسمت . لولا انها سئمت ، والغيت هذه الذوبة خاصة ، لاهل
الحصن خاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا للتناوب
الاستبدال . ولما ظهرت في الذوبة النبوة ، وكاد جوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية .
والعزمه النايوة غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف
الى الجبل بالجمال . وتضافروا فطايروا في الاوعار كالاولع .
وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك
الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا
بجوانبها ، وتوجسوا من مشاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ،
وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها ، وبخلوا في مخارجها ،
وصارت الجروح تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهم
تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم .
وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم
وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن اقبل
اغبطه ، ومن ادبر أسخطه . ومن تقدم قرطه . ومن تقاعس
أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم
تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا .
فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك
المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء .
وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من
غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار
صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة
الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة
الاولى لنشاطها . وزادت في ادبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا
والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة .
وقلعت الطلعة . وافتضت العذرة . واقتضيت النصره . وأعان القدر
فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العدوان . وان اهل
القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لا يهلكوا . فلما
سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياحهم
والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا
من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص .
عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة .
وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان
السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفربين .
ولتجريدهم للسبي متجربين . وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا
وسببا . ومارأوا لحق من شاركهم في السعي رعا . وحرموا
ما ارتفقوا به وحرموا الرفقاء . وحازوا دون الغانمين النهب
والسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما
تسنى ذلك الافتح وتنها . وتسهل ذلك الصعب وتها . عاد السلطان
الى خيامه . وعادت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت
زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها
حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن
عليها بالاعتاق من الارقاق . وخل عنها وعن زوجها قيد الوثاق .
وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم
في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلم بعد البتات .
وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد
استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم
وقد استميدوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ما هتكوا .
وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافترقوا . وجبرهم ونعشهم وقد
انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها .
فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر
بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرج في كربها .
وتشكت لأخذ بلدا . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان
بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام
المقدم . والعظيم المعظم . والماجد المجد . ابراهيم بن محمد . فإن
هذه القلعة لثغرا فامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في
الاسلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان
هذه البشرى بما اجده الله من الافتح العزيز . والنصر الوجيز بفتح
حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثوابها . وتفتحت له

السماء لتتنزل الملائكة من ابوابها . بل سافرت به عرائس الايام في
حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في انوار محاسنها . وهذا
الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة . وكأن حجره في
حجر حضن للحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ،
وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم
يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجاً .
حتى أتت ايامنا ، وبنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا .
ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخرنا .
وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسقينا بماء
الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفارس الهدى الزاكية .
وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه
الحصون التي فتحناها . والمعقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله
الى اجتهدنا في فتح احدها . لتعذر ولو أنجبت عساكر الدنيا
بمدها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفر ، وان
حصن بزيه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب
عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسالك طريق . وحضرنا لحصره ،
متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟
فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سلاحه ،
وتوغل الرجال في ذروته توغل النجوم في الافلاك . ولنصر الله اهل
التوحيد على اهل الاشراك . وفتحناه بالسيف عذوة . ودجا يوم المثلث
عليه يوم الثلاثاء ضحوه . فاننا لما توكلنا على الله في منازلته .
واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العزائم
والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القل . وسعوا الى الاجل .
في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (وما امرنا الا
واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى
الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في
الاعتصام رجاء . وقد نقصنا اطرافها . واستبحنا اكفافها .
وشفها نطافها . وعضدنا من رؤوس اهلها بحدود الصوارم
قطافها . ولم يبق من معاقلها الا القصير ودريساك وبغراس . وقد
تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورحجت اعماله . وحل اقباله
واقبل جلاله . وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد
دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد
الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح
وللمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجدنا بتأييد الله
في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع
الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش
الداوية بل عزيمتهم . وطالما اطلال في التعدى أيديهم وعرائينهم .
وكاذوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون .
وركبوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا
على المذنون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد
وجب . ووفرت المنجنوقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم
مددات مراميها ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا . وارسلنا اليهم
امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكنا لا نذر في ارضها التي هي
في السماء من الكافرين ليارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى .
واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى .
واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا
والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من
السور الخارج . وظهر فيه عروج الدارج ودروج للعارج . فطلبوا
على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه
المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم
من وبيعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة
واصبح بهذا الافتح جماح الحصون الممتنعة .

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء
وضيقنا منهم وعليهم الذفوس والاذفاس . وهي قلعة من انطاكية
قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبة . ورايناها راسخة على
راس راس . شامخة على عاص عاس . ارضها في السماء .
وجوازها على الجوزاء . متوغلة في الشعاب ، متوقلة على
الهضاب . مذسحة في السحاب . مضربة بالضباب ، مربة على
الرباب . متعلقة بالنيرين . متساقطة الى الفرقدين . محالقة الى
الذرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مطلع فيها لطامع ، ولا
مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهي للداوية وجار ضباعها .
وغاب سباعها ودار دوائرها . وغار مغاورها . وغيل غوائلها
ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رثبالها ، ومذب ذئابها ،
ومذب ذبابها . وكوارة زنايرها . ومغارة خنازيرها . ومرقب
صقورها . ومرقد لسورها . ومكندس وحوشها . ومعرش جيوشها .
فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسنتنا في ظلماء
ذقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمع
غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظر يقظته وارقد
عينها ، فأقام على سبيل اليك . ودخل في حفظ جانبها في الدرك .
وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا . ويسومها من
الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه
الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء
الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع
جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق أمره بالاذعان على
خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته . ومازالت
الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالذكاية يجاوبه . والصخور فيه
تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه . وألجأ
جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخرج مقدم الداوية
يستأنن في الحضور . ويسأل الامن من المحذور والحل من

المحذور . ويقول انما قنينا بغراس بغراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لا يحميها الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دريساك بالامس . وسالمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد اولئك الشمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وأذن المتناول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شعبان . وسر النصر فيه شار وبيان . وسلم السلطان الحصنين دريساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفاز . وما كان في الامراء الا كابر من لا يدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حفظهما ، فسلمهما بنخائثرهما . واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر القلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والفرارة تساوى اثنى عشرة بينارا . والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنما ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان من منبج هذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها ، واعرض عن متاعب الآخرة وحوى من الدنيا متاعها . وذهب الغلة بذهب يقله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنها كانت مريضة على شفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصاها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكامل الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الإقامة . وأبدى السامة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عنة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منقذا . وعلى المقاصد مستحوزا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح
المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين وداعه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفاؤه وحسنه اصطناعه ، ولم يذفل منهم الا من وصل بصلة ، وخلفه

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل
منسكب الجود ، وذلك سوى ماغذموه من كسب وكسبوه من
غنم ، واستطاقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه من رق
سبي . وادركوه من حق سعي . وأجدوه من غرض . وأدوه من
مفترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة
الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح . وسار
السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتاح الى
العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح ، ووصل
الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل ، والملك بها للاهتزاز
بقدومه في ملابس البهاء رافل ، وبخلناها وقد خرج كل من بها
للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المتراقي ، وشاهدنا من
النظارة عيونا للمحاسن ناظرة ، ووجوها ناضرة ، وقلوبا
حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهاج
بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيها سكون
الدهماء ، وأقام بقلعتهأ أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر
احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت
الأمور بأوامره على النظام . ولم يرحل الا وقد خص عوامنا
وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل منقبه ، وأعان
بكل موهبة ، فما رآه والده مذحل بحلب الا في أجمل حلية وأكمل
حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجد لعينه ولذفسه قرة
وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا
عن حلب مذقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة
بدليلي الشكر والثناء ، وتذكبنا طريق المعرة ، بسلوك طريق
المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السلطان بزيارة
الشيخ الفقيه الزاهد التقى . ابي زكريا المغربي . وهو مقيم في
مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السلطان
على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى
بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حماة . وبتنا بها ليلة
واحدة ، ولم نر رعيتهما لما شملها من الرعاية جاحدة ، فان الملك
المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، قد كشف عنها

بأبائته الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب ، وأعاد لها
بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبتة ظلا
مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر
مع المعقل المرعية المرضية ، وهي ذات تل متبطح ، غير مترفع
ولامتسحف ، فلما تولاهما تقي الدين قطع من التل ما كان
متواطيا ، وأتلع من التلعة جيذا عاليا ، وعمق خندقها في الصخر
وحصنها على الدهر . وبني فيها الدور المرخمة ، والأروقة
المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها
بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة في الشام كل
مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من
الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على
رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا
بحضرتة ورفعنا ، والنادي قد جمعنا ، والشادي قد
اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فما انفصلنا تلك
الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضل سني . وعدل
احيي . ورسم نائل للسماح واجري ، وزند سائل بالنجاح
أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات
القصاص ، وأزال من الظلمات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات
الحصص ، وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العنق بالذميل
(٢٨) ، وعبرنا مغنين على حمص وزينا في الوصول الى دمشق
على طريق بعلبك الحرص ، وجئناها قبل شهر رمضان
بأيام ، وركنا الى ما أنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل
باستهلاننا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما
لبث السلطان ولا مكث ، ولانقض عهد عزمه على الغزاة
ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقد بقيت
صافد وكوكب وأخواتها ، وبطول مضايقتها فنيت
أقواتها ، وقواتها ، فتنهز فرصة فتحها التي لا يؤمن
فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان . وحد عزمه
رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجوه الأيام
لأبائه البيض بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيره وتسيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناحه رجائه ورواج مناجسته
مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان
مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعد من محاصرتها المضايقة
النكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في
العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا
للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في
الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي
بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه
معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت أزواجهم ونفذت
موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحت عليهم مصايفهم
ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة
السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسائل
تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى
دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا
بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت
عن السلطان في بعض البشائر ، مآلهي بحلاوته عن أرى
(٢٩) الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان
لاندستريح ، ولانثني عن كسر العدو عزما الصحيح ، فقلنا نغتنم
هذه الشتوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة
الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب
قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن
صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت
البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماع الأصحاب ، وخرج
منه الفرنج وبخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث
نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طرق

الاجتياز ، فأنقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام ، واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقد كان هذا الحصن نيب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فالحمد لله على ما قدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحها ، وادراك السعي فيه ونجحه

وقطعنا مخاضة الأحزان خائضين في بحار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشدودة اسبابها ، في اطلاب ابطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصبر قد نفذ . والنصر قد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العادل وظاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأي والصزم ما الزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمة على التصميم ونخاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة السلعة ، وجثت المجانيق لاجتثاثها وحديثها بالأسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت الى هضاب تلك الابراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطها من العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بها الحصن الراسي رأسا ، ولا الحجارة مسست منه ركنا ولا الذقوب باشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والذقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثامن شوال ، ونوعنا في افتتاحها الاحتفال ، حتى انن الله في الفتح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعدوا للضراعة وتضرعوا بالأذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الأمان ، وصارت صفد المسلمين صدفا ، وكانت بالمشركين هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردا ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتذشق الأرض وتخر الجبال هدا) (مريم ٨٩ - ٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدد ، ومرفقا للشر قطع . وناظرا للعدو غرض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويذا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فإنعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصر من الفرنج ان صفد لنا صفت • وانها على الفتح الذي يشفي اشفيت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لا يتكذب . وقد أقوت من القوة . وهي تهى ان لم نعالجها بالنجبة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها • وقل ظهورها لظهور اقلالها • وهذا أوان انجائها وانجاده . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجاده . فاذا قويناه وحميناه بقيت عنة في العواقب . وعصمة من الذوائب • فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي • ومنكبنا العالي . ومعقلنا المحكم • ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمذبح
المنيع . والمحل المحلى . والمعلم المعلى . وهي قفل من البلاء على
البلاد . وموئل من الخطوب الشداد . ولعلها تثبت إلى أن توافينا
من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا . فما تبطىء
جداتنا . وما تخطي نجداتنا . واجمعوا على تسيير مائتي رجل من
النخب . المعين لدفاع الذوب . من كل جرخي نخي . وكمي
أكمي . وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلا .
وكلب كلب . وذئب سغب . وعاسل معاسر . وباسل باسر .
ومغوار مغو . ومتلوم متلو . وزمر متزمر . وزمر متزمر . وسبع
ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من
شياطين يجزون الجنون . ويمنون المذون . ويشيذون الشؤن .
ويهدون الهدون . ويحزون الحزون . ويفوتون الفتون . ويظنون
بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضون وطريق السلامة مخيف
وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقالوا
نحن نسـ.....ير ونصـ.....ير في ضـ.....مائر الكهـ.....وف
اسرار . وعلى اجياد الاطواد أزرار . وفي اوكار المغارات اطيارا .
وفي اعماق السيول اكدار . وعلى ظهور الريود اوزار . نسري ليلا
ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج
وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر ..ومن رام النفيس الخطير رمى
نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثم عزموا
على ما زعموا . وعملوا بما عنه عموا . وخطروا الى الخطر .
وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوكلوا في الاكم . وتوغلوا
في الاجم . وتبطنوا في الاوبية . وتمكذوا في الاقنية . واحترسوا
بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السكون . وكادوا
يصلون الى الموضع . ويحصلون على الطمع . ويدركون الطلاب .
ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحه . ويأسون بعد
اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده
وقيده . واتى به الى صاحبه صارم اللين قايماز واستغرب من
الافر نجى هناك الجواز ، فأخبره بالحال . وان بالوادي مكم
الرجال . فركب اليهم في اصحابه . والتقطهم من سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشقياء . وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحن على صدد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الانصار . حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين في الاصفاد . مقوبين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان ما كان يبقي على احد من الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام مذلهم . ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سو . فعرفت ان يقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمة حركت منه الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير . وفتح الله علينا صدد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا الى كوكب . ووجدناها في مناط الكوكب . كأنها وكر العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بها ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتها وابت النزول على امنيتنا ولو بنزل منبها . واختارت العطب على العطاء . وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الالباء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمل الاصر . وترامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الابد من العار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فتجدد للاصطبار . ونشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجروح

المصمية . وصوبوا الصخور المربية ورفعوا المنجنيقات الموجية .
وتواترت زيارات الزيارات الموترة . وتناوبت نوائب الزنبوركات
المطيرة . واجترأوا على الاجتراح وجرى سيل الجراح . ودمنا في
الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرت الرمال . والتجريد للقتال .
وايتار الحنايا . وايتار المنايا . والرمي في المنجنيق . والجمع
والتفريق . والرقع والتخريق . والنقيب والتعليق . والحفر
والتعويق . والحصر والتضييق . والهدم والرد والردم . والصد
والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثر السيول .
وتكاثفت الوحول . ودامت اليم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في
الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مربوط . ولا لسالك مسالك ولا
مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتاد وتودد الاقدام .
وهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخيل الانداء .
وعدمت الانوار لوجود الانواء . وفقد ماء الشرب مع سيل الماء .
والروايا ما نهضت . ولا نزعت ولا غمضت . والرواحل في الطين
باركة . والحياة فاركة . والعلف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل
مستبينة . وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالذرد .
والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . والمثق (٣٠) ثقل .
والللق عقل . وما ثم الامانيط بالطين . وصعب علينا بصعوبة هذا
الامر امر اولئك الشياطين . فنزل السلطان خيمته الى قرب المكان .
لتقريب وجوه الامكان . وبني له من الحجارة ما صار له
كالستارة . فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعربنا .
والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهروا والنقاب قد قلع وعلق .
والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجند .
ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الثقل بذل النقل .
وطاب المقام بالغور . وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين
وتحالت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما للحصن .
وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانها .
وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . وذهب سكون سكانه .
فاخرجهم راغمين . واحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما
فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معذفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقدة . ورجعت
الىالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جماعة فلم
يقبلوها . وخلوها وأبوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فدوليتها
قايمان النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهامها لاهية . وانتقل
السلطان الى المخيم بالقضاء . وحمد الله على قضاء التوفيق
وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعد ما
استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الفتح والنصر. ثم تحول
السلطان الى ارض بيسان . وأزال البؤس . وزاد الاحسان .
واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهر . وظهر من
الفضل ما لم يكن مستورا. وأعطى الأمراء والاجناد في إنفصالهم
دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضح
الحجة لائح البهجة . وأوجها الى القدس في طريق الغور وزارا
للبركة . وتبركا بالزور . ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في
قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبرة . وعيد بها يوم
الاحد الاضحى . وأضحى بعد ما ضحى ، وقد اصحب مراده
وأضحى. وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها ونظم
أسباب أحكامها . وتديبر أحوالها . وترتيب رجالها . وأقام أياما
يوضح الجدد. ويصلح ما فسد وينشد من الذفع ما فقد . ويخدم من
الشر ما وقد . فاذا وجد شعثا له . وان ألفى نشرأ ضمه . وان
صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حقه . وان عثر على باطل عفى
اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وأثره. ثم ودعه اخوه الملك العادل
واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في
مورده ومصدره . فما عبر ببلد الا قوى عدده . وكثر عدده وواصل
بالرجال مدده . وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من
بيسان لعارض مرض سلبنى الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصنة
الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشفاء واهدى
عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قويم • وهو يبواب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حفظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها • ويعدل جوانح امورها • ويذل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهى • ويسري ما هوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ما انتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور • وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لأثار الدولة في ايثار العدل تاليا • ثم خرج السلطان وسار على طبرية • وبخل دمشق مستهل صفر • وقد استكمل الظفر ووجه النين به قد سفر • وعز من أمن وذل من كفر • وحزب الهدى قد اذس وذفر الضلال قد ذفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر • وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • واحلى احلام الحلماء • وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف واعدى الملهوف • وانكر المناهي ، ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر • واولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر ، وايامه مسفرة ولياليه مقمرة • ومغارس ايانيه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاليه في بيار الشدائد مقفرة • والملك يزهوة زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيدة • والدولة حق مدال وحقيقة وللجاء وافي جده وللجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع وللمراد مراد يمرع وللوجود بالبشر بهجة ، ولللاسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة والحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة
والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد
عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله
أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر
الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع
الندى • ومشرق نور الايمان • ومشروع فيض الاحسان • ومرجع
المرجين • ومفزع المتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين
ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ،
ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجرنيول
المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار
افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن
التنزيل • وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة • وموام الرأفة • ومحمل
الامانة • ومحل البيانة • ومطاف الطائفين • ومعرف الواقفين •
وموقف العارفين • وقبلة المقبلين • وموئل المؤمنين • وكعبة
القاصدين • ومثابة الوافيين • ومعفر وجوه العظماء • ومكفر نذوب
الكرماء • ومعصب السيادة القرشية • ومنصب الوراثة النبوية
والسدة الشريفة الناصرية • ودار السلام • وقبة الاسلام • فابتهج
السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السؤل • وسر سره • وأبر
بره • وصدر بذشر الانشراح صدره • وقدر على الاتسام بالتسامي
قدره • واحتفل بأسباب التلقي بالتحف باثواب الترقى • وسأل عن
الرسول المندوب • للسلامة على الخليفة طوب •
فقل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكيته • وصل بالضياء
والسكينة • والاحوال الحالية المزينة • وكان وزير الخلافة يومئذ
معز الدين بن حديد • فعين لهذه الرسالة ابن سكيته حين عرف

اراهه السيدة • فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان واولاده •
وكان يوم مشهودا حضره اعيان البلد مائل العسكر واشهاداه •
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة • ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدأت في جبهة الدهر البهيم غرره وواضاحه . وملا
طرفي الزمان والمكان افراحه • وجاء على وفق الآمال اقتراحه .
وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل ما بهج الاولياء • وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه • وشئ
عطف تباهيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة .
وجلالة في مهب المهابة انوار الجلالة . وتلفظ له بالفضل . وتطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده • الى ولده
عده الدين ابي نصر محمد من بعده • واخذ بذلك العهد على من
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ماؤلاهم الله به من
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة • وامر بذكر اسمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة .
والشكة. وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر .
ولم يبق من الامراء والامائل والافاضل إلا من حضر • واحضر معه
البنانير ونثر • وتولى ذلك الملك الافضل فاطهر ابهة ملكه وبهاء
فضله . وحصل الاسلام من ري رأيه على نهله وعله . وندب
للمرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن
يحيى . لينشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيى . وسيرت
معه الهدايا . والتحف والطرف السنيا . وأسارى الفرنج
الفوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب
والصليب • والمالبوس والطيب • واضفيت على رسول الامام ملايس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاعة مطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطراف •
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امور الجمهور
لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى
وصل الى بغداد • فتلقى الرسول بالرسول • وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده
الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم
قراعتها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعتها . وقد
نكست بذودها واتعست اذوقها . وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها .
ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها . ثم عطف به الى دار
الكرامة فنزلها . والفي الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته
واعتزل . وتصدر في الدست للنياية . وسماع الخطاب والاجابة . من
له المجد الاثير: الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء .
وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع
الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في
موضعه ذكر ما انتهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت
العوائق وعاقبت الاشغال .

فصل مما كتبه في المعنى عن السلطان الى الديوان العزیز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امثال المثل . وأداه من فرض
الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به امر الدين
والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار
العزیزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من
حباؤها . وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها .
وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد
عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها . ونهض من
الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين . وأبرم من عقد عبوديته
الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق
المراضى الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى بين الدين
الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق
به جواد صدقه في جواد قصده . وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهاية النهى . وأطاع
ما أطاق فيما أمر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يده حتى رفع
بالدعاء يده . وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وأقد النصر
ومدده . وان يعضده بولده ولي عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا
والدين . ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البركات . وأضت
الحسنات . وأضاءت الكرامات . وراضت جماح الاماني المبررات
المبررات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المربيات . وعمت الميامن .
وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسكون
الدهماء اهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المنابر . وصدقت
المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت القواقر . وصدمت قلوب أهل
الذفاق من بواعث الرعب والبواعث البوادر . ونقشت صفحات
الدرهم والدينار . ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات
الانواء والانوار . وعرشت اسرة المبار والمसार . ورفعرت رغبات
الابرار . وسمعت دعوات الاسحار . ونزل النصر . وفضل
العصر . ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر . واصحب
الدهر . وسحت سماء السماح . وصح ارواء الارواح . وتضوع
نشر الانشراح . وتوضح صباح الصلاح . وطال جناح النجاح .
وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامر . وحسن الذكر .
وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشام .
وتبلجت ايا من الايام . وتزوجت اماني الانام . وأرجت أرجاء
الرجال . وثبتت باسناء الاسناد رواية أمالي ري الامال . وقرت
الاعين وابتهجت بالسعد الطالع . وأقرت الألسن والتهجت بالحمد
الجامع . وقرت الأنفوس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع .
ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع في دفع الاوام
(٣١) ونقع الانام مناب المنابع . وأرخت السير وسييرت
التواريخ . وخلقت ملطقات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها
التضميم . وشرق المغرب من بشر البشرى . وانارت مصر من
حسن هذه الحسنى . وبسمت بسمة الشرف منابر الأقصا
والأداني . موافقة لمنبر المسجد الأقصى . وتطرزت الفتوحات
الفاضل عصرها . الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهـاب المحـاب نفحات هذا الزمن الأظهر الأطيب . وعاد الزمان الى
اعتداله . وعاذ العدل بزمانه . وتاب الدهر من عدوانه . وآب إلى
احسانه . ورجع الدين إلى سناء سلطانه . وفجع الكفر بعبد
صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص من الشرك بلدانه
بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتب
العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحدث الحب على
اقامة ســـــــــــــــــنن الجهـــــــــــــــــاد وفـــــــــــــــــروضه . فقـــــــــــــــــد
درت افـــــــــــــــــويق الافـــــــــــــــــاق . وذرت أشعة الاشراق . وافترت نضرة
الحدايق لنظرة الاحداق . وراقت أوراق الألوية كالتواء
الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهار الرياض . وأنف غرار
الجفون في الاغماض . وتيقظت الاقدار للاقدار على
ايفاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطول . وتنزل البركات في
انتجاع المراق من تجيع المارقين لا تزال نص النصر على النصل
المسلول . وقد آن ان ترعى الحشاشات منهم على رعي
الحشيش . ويطير الى اوكار المقل طير السهم المريش . وترتع
ثعالب العوامل في عشب الكلى . ويطن ذباب المناصل في لوح
الطلى . وترن رقاق المرففات في الرقاب رنين الخطب على
الاعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على
رؤوس الأطواد . وتحمل اشجار القنا بثمر الهمام . ويجيش
الفضاء المعشب بزهر الجيش الهمام . ويقطف ورد الموت
الأحمر . من ورق الحديد الأخضر . ويوقف حد الهندي الأبيض
على قصر بني الأصفر . ويجري في ورد الوريد جـــــــــــــــــد اول
البواتر . وترمي من الحصون العالياى الى حصون العدا جنادل
الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر
ضوا من الضوا مر . وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان
الجو بالفتح الكواسر . ويعبق ثوب الدارع من ردغ الثواب بسهك
الماذي . وتعلق في ملتقى التقى الفات السهمري . بلامات
السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي
مع الفرنج من معاقل المعاقل . ويفرق بحر المجر الجرار ما تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنيعه الا صور
وطر بلس . ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة يعون الله
تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء منبوذة . وعند الاتجاه اليها
مأخوذة . على انها بوقم قومها عام أول موقونة . وحدود العزائم
اليها عند انقضاء هذنتها مشحونة . فانها قد نقصت من
اطرافها . ودخل عليها من اكفافها . وجذعت بفتح حصونها
عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المدشورة فيها
عريتها . فهي نهزه لمقترض . وطعممة لمقتنص . وسالعة
لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخل البلاد .
ويستأنف بجهده الجهاد . ويسـتقبل الربيع بربيع
الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات
النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان يجد جند
ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امه في تطهير الأرض
من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فالجافل
حافلة . واسراب الكفر بين يديها جافلة . ومعاطف الاسلام في
لباس الباس رافله . ونصرة الله بانجاز عداثه في قمع عداثه
كافله . والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته
لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهره . واقتناء كل مذقبة
حقوق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما
يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف اردون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لناشق الآمال من نشره الذشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعة . متوجها الى شقيف اردون . ليقر يفتحه العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرح الوســــــــــــــــيع . والروض الموشيع . وأسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط . وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولأجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصر من اهله ، وأظهر انه محتـرر من علم المـركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل بيته يسليه . فإكرمه وقربه . وقضى اربه . وأجابه الى ما سألـه . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهي (٣٥) غرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في نايه بنداؤه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وتـرميم مـســـــــــــــــــ تهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة . ويكثر فيه النخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشغول به من عمارة يجدها . ونخيرة يعدها . وثلثة يسدها . وقوة يشدها . وميرة يستمددها . وكان بالمذكور سيد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصدىء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والذقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيق من عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعزب . فلما علم صاحب الشقيق بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك بالعصمه . وذكر انه متعزز بذل الطاعة . وبذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه يترقب وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكر النكيث . واقام يوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امه . وكانت المدة قد دنا انتهائها . وقرب انقضاؤها . فانها الى اخر هذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به الابتهاال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ غرسا سقاه فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فانماه وقد اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرقيع . ولا تضع الصنيع . وسأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنه في حقه حسنه . وان يرخي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء ألمه ألمه . فراقه قوله . فرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فغادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما
حاوله . وأقام اياما يريده . ويخصه من الكرامة بما يجده . ثم
كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما
لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجد ما عنه رقي . وانه كيف يلقى
بالكفران ما من الانعام لقي . وانه لم يسعد بامهاله في الشقيف
شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى
وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه . ويحضر بوصف ما شاهده
ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن
قد غيروه . وانه قد استجد في سورة باب . واستمدت له من احكام
احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياح . وعرف ان السرح قد
حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن
فلا يدوج الى عقابحته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة
المضروبة . والمهلة الموهوبة . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة
وتنقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة
وضراعه . وقال سمعا وطاعة . وكان له ملقى وملق . وفي لسانه
زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى نوابي
في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا
عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا
العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه
الى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول
شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع
الخروج والدخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه
المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء
ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك
رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسرع باس . فصادته في حادثه
بلغته . ونافته في كارثه بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في
الشر . وكأنما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس
الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد
وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم
استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالحق في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلمّا لم يفد خطابه . ولم يجد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاء وشجته . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بملازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحكم السلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سالم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلاص من الأسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تواصلت الينا امداد البحر . فثرينا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور . وفارقوا بالاستطالة القصور . وجرت بين المركيس المقيم بهما وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمكنه من دخول البلد . ولج معه في اللد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الأمر . ويصله من الأمر . ثم اتفقوا على ان يقيم بصور الماركيس . ويدوم منه لملكهم التأسيس وملكهم التأسيس . وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم . يتساعدون علي رم ما تشعث من احوالهم . ويتعاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختلالهم . ويقصدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالذوازل اقامة المنازل . والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الي هذه الغاي . وشرعوا فيما شرعوه . وفرعوا ذروة الاصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة
اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجراءة وصدتهم . وتزاحموا على
الجسر . ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يومنا علينا
ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجبال . والحرب
سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على
العدو لله قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من
المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعادة . الامير غازي
ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب
شابا . ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في
اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة
ليبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه موارده . وأوجد
جمعنا الاسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر
مساعي ذلك المساعد . وضائق القلوب . وفاضت الكروب . وألم
البوس . وألمت الذفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت .
ونذير حدث وحادثة اندرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ
اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات
مرارة هذه المرة . فايقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس
حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله
وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١)
وعبادهم هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان
على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبروا الجسر
اليهم . والاحداق بهم من حواليلهم . وشاع صيت هذا العزم
وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل
البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فقتباشروا وتبادروا . وتسابقوا
وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل
واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق
وحوران . يجرون الى مرالموت . ويجرون المران . وتوافد من بالمرج
والغوطة . على الحالة المغبوبة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر
المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت
الفرنج من هذا الجمع . واناقت على القمع . وتعدكست الى سور

صور . وعاین اولئك البور البثور . وتحرزوا وتحرسوا . وتوجلوا
وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمكن على غرتهم
حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى
تبنين . صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . لذهب
احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا
جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سيدة . ووصى رجالها
بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقظ . واسرع عودته الى
المعسكر . عظيم المفخر كريم المعشر . ——— وفق المورد
والمصدر . مقرظ المنظر والمخير . وأقام الى يوم السبت سادس
جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يمج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاده عدة من امراء العرب

وانتهى الينا ان الفرنج ينتشرون في الارض . وينبسطون في
موضع القبض . ولايتحفظون في الرفع والخفض . ويحتطبون
ولايحاطون . ويحدثشون ولا يخذشون . ويجذون ثممار
الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة من
غارهم . وفي جسارهم تعود عليهم بخساره . وفي غفلة تجر
عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العذاب ظله . وانهم اذا خرجوا
للاحتشاش والاحتطاب . وانتشروا لضم الاعشاب من
الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفظهم من
متعد . ونفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك
الملاعين . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها
الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر
المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ الى عسكر عكا
ليكن في موضع عينه . ولا يظهر مكمنه . حتى يكون من وراء
القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السلطان ليلة الاثنين
على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت
وابرت وابارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقف عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمن بتلك
الارحاء كمأة الرجال . وانتخب من كل طئالب عشرين
فارسا اجوادا على الجياد . واجلادا في الجلد على الجلال . فامرهم
بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون
قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها
عليه . ويوقعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما
حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم
فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم
المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات
الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت
عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم . وانحطت نرى القمم . وعدم
كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم
انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد
اعتركت . وان البرك قد ارتبكت وابتتركت . فتواصل انجادا
للانجاد . وتراسل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المدد
يكثر والعدد يكثف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم
العزيمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى
اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين
مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مثقلة وكان قد حمل العرب
على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى اسد ذلك العرين . ولم
يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم
عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى
منهج ملاذ . وراهم العدو فعدا وراءهم . وسار بجمعه
ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدر ان
يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير
زامل بن تبل بن مرى بن ربيعة امير النقرة . وسري
الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير
مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرى بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء
اربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض
النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من الممالك الخواص . من ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضد فري السطوة . فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على صخرة بنحوه . ونثّل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقداوتر قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصايب بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه ويرموناه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح . وقد نزل قدمه ، وترجع على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضائه عليه وقد شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجدته في أجله مزيدا ، وهو أيبك الساقى زاده . ماجرى اجتراء على الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولا أبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في رجله ، وسرحت ذئابه ونجت كلابه ، وجاش عرام جيشه العرمم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من النواقيير ، وأضرم بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن نفرا منهم نفر ، وسبق الى النواقيير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمعون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويضمون نحر الكفر ، ويجبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون الحراسة ، ويطولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقسارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد مارجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف زفور زفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالذو ، وللعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في ابناء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة .

ووصل اواذلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان الذقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحنة في الاودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، أخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الغروية . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، وينا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في ارض صفورية بالانفال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رايه بذور فطنته وطيب فطرته أذكي وأزكي ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلّقوا في جو الدوطاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطلبهم طلب الغريم ، وما هون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا اقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التناول فيه عذر ، فزمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان اصوب فان نزالهم عند نزولهم صار اصعب ، ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها للحصر . وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالأجام المؤتشبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو ، حتى استتظهرت بقوتها . وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاول والآخر . كهي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل كيسان في ذوي اختصاصه ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب ، فدارت رحي الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد احاطنا بالعدو وهو وبالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ، ورتبنا بالزيب والنواقيير رجالا يصدونهم عن سبلها ، ودمنا نصابهم بالقتال ونماسبهم ، ونراوهم ونغالبهم ، ونعاوهم ونبايهم ، ونقدم بعوايننا على عواينهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجددهم البحر ونعدهم ، وما زالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتناول ، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون مترادفون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبمسكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس أضر رجب لانسلاخه ، والاسلام ينادينا باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهل رأياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، ومامنا الا من اسرج الجرد وجررد السريجات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الرينيات ، وربان العقليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهل ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الالسنه والقلوب في الضراعة الى الله في نصره المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وقلل مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطنهم ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل ، وكالاسور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافية متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قائمة ، وبيمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى بخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

وأهلوا عنه وأذسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس
الظهر ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض
النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ،
كانت لمن قدامهم من الفرنج مييدة ، وفرشدهم على تلك
التل ، وردوا مضاربهم من فلهم بادية القل ، وانهزم الفرنج الى
تل المصلية نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك
الجانب ، وأخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت أطماعهم
عنها ، واندفع لنا طريق عكا . وبخلها الرجال . وحملت إليها
الغلال ، ونقلت إليها الأحمال ، وبخل العسكر إليها
وخرج ، واندكف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من
سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازنة على
قتال العدو العادي ، وترك الهواة في قصر القصر ، والهواذي
والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن أصحابنا رأوا أن
انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت أرادوا كانت منهم غزيمة .
ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقدموا عن مقام
الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هياتهم وهيباتهم ، لباء
الاعداء لنجحنا بخيتبهم ، فان الصدمة الأولى أخافت
وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم
حتى عادت اليهم الأرقام ، وعاود فرقههم الافراق ، وأبصروا ما بين
أيديهم وما خلفهم . وأزالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في
مستنقع الموت أرجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا
هؤلاء قد سهل أمرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم
حصرهم ، وهم في قبضتنا أي وقت أردنا ، ولقصدهم
تجربنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود
وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على
عد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلغ العدو ريقه ،
ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار
راجله ، وزم راحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات
والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروح وفوقوها ، وجمعوا
العدو وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقسم ، وفي المجان

علاجهم ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختالفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتستترهم بتراسهم ، فمننا من يقول نصبهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب . وتتشب من أسادنا في تلك الخنازير من الذشاب الاظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننصفهم ولو أنهم جبال ، ونطفئ نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال .

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعد . فاذا زحفنا اليهم . واوقفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين . ولا يبقى للدين يعد درك الثار منهم بين . ومنا من يقول لابل نفرج عنهم . ونبعد منهم . فما دمننا على هذه المضايقة والمصابرة . والمحاqqة والمحصارة . والمكابدة والمكابرة . فانهم يتيقظون وينتبهون . ويتحفظون ولاينهمون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما ما استقلوا . واطمانوا فطمعوا . واذا ابطأنا تسرعوا واغثروا نانا على غرة فاغاروا . وظهرت لهم اثار ركوبنا عنهم فظهروا وثاروا . فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقمهم الا العدد الكثير . ولا يقمهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابطادتهم البادي والحاضر . ونستجيش الحافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم . وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولراكبهم في الشتاء شتات . ولحبائهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤنن فناء ارقاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في ذلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال) . (الاحزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خطر .
وفي المباشرة بحربه غرر . والمصلحة العامة تلحظ . ورأس المال
يحفظ . ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها
الباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونستعدي على هذه الافاعي
بعقاربها . ونستطيل على الشنأة المستطيلة بشوانيتها . ونعدو على
عوادي الاعادي بعوانيتها . واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر .
وصلت لنا اسباب النصر . وحينئذ نقاتلهم برا وبحرا . ونوسعهم
بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . ومازالت هذه الاراء بيننا متداولة .
وخواطرننا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفرنج جاريه
وزناد الهيجاء لاشعال نارها واريه . وفي كل يوم نتصافح
بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بكلام الكلوم . ونلحق
منهم الموجود بالمعدوم . والطلائع وقائع . وللاسهم افواق فاذقة .
وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتأسر .
وتبري وتأبر . وتكسب وتكسب . وتسي وتسلم . والسلطان يباشر
ذلك كله بنفسه . وهو يدأب في يومه لغده مجتهدا في الزيادة على
امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم . ساهرا لهم في ليلهم .
قائما بأمرهم في نهارهم . والعين الساهرة في سبيل الله
قريه . وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر نخير

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم . وتقدموا
من موضعهم . واشتاقوا إلى مصرهم . وفارقوا الحزم في
تسرعهم . وخرجوا عن رجالتهم . وتجردوا بخيالتهم . وحملوا على
الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد . فتحرك الصف الثابت
الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلل من القواعد . وتراجع عنهم
المسلمون استدراجا . وملأت الارض السماء عجا وعججا . وزخر

بحر الحرب على أمواج امواج . فما قريوا من خيام اليزك . الا وقد
اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت
إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على اعقابهم ووصلت الى
رؤساهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وثنت وجه
الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر
عائر . والذمر الباسل باسم بالوت باشر . فلما جن الليل رجعت بما
جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة
متنبهة للتدفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما
اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعابيتهم الى
الهيحاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها
مشروحة . والفرنج قد ندموا على ما قدموا . وعدموا بصيرتهم بما
صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل
العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل
المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام
الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا
وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة
مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه
بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهام الباسل . والقرم البازل
والندب الحلال . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية
المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فدواته . أسف
على عمره . وأسى على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم
يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال : قدموا حصاني حتى اشهد الحرب
واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على
الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، ودوني عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبواه الله الجنان ، ويشر به رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فارس الحرب . ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب . حسام الدين سذقر الخلاطي النجيب المنتجب فذبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجل اجل الهمامين ، فوجمت النفوس ، وامت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهى الينا ان الفرنج . يتطرقون ويتطرقون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاب ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون . وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم رؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السلطان فاجتأبوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتساق ، وكم قتل من حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتوافقا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ماجري وغرائبه ، وملح مساتم وعجائبه ، ان الطائفتين في بعض الايام . ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا . وليكونوا في

امانكم واماننا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخران . فقاتلوا مليا ، والافوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المسلمين . على احد الصبيين الكافرين . وضرب به الارض . وقفز عليه وانقض . وقبضه كسيرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم ببينارين . وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظاهرة . انه اقلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربطه . ومازال يعوم في البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصحابنا اليه . واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورايناها لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان . وقد رفعوا الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان . وجرت بالجمال منهم رياح . وجالوا دون التل كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبيه . وشفعوا نداء الكفر بالتلبية . وشفعوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتمزين . وعزموا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفوا اطلابا ، ودبوا ديبب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق الى القرار . وجروا نيول السوابغ الى الغوار ، وتحركوا وهم هضاب ، وتدرکوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتكثف . وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثور . وترود وتدور . وتهم وتهمم . وتدمدم وتدوم . وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت . وحزبه في صف الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهويمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحضر علي حظ الابد . ويحدث على الجلال والجلد .
ويثوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شاهد شروق بروقهم .
وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو حشود كثرتهم . انهض
رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين
من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلما
تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لا قبل
لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميعات مقاتلته ، فتركوه واستقبلوا
القلب وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منها
الدو . واسود منها وجوالجو . ووصلوا الى جموع ييار بكر
والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة ،
وكانت من القلب الى الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجريان
فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألوا بها فما ألت .
وهموا بها فما همت . واندفعت وما دفعت . وتراجعت وما رجعت .
وتعكست وما عكست . وادبرت وما تدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال
الفرنج هابت وما هبت ولا بت (٣٤) ومالبت . ورابت وما رابت .
وجاؤوا الى القلب وقلوبه . وحاربوه وحربوه وخربوا حربه .
وخرقوا حجه . وهناك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة .
واسنو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مروان . وكان
مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوة .
واخرون اعترفوا بنذوبهم فرحضوا بماء الشهادة دون حوبهم .
وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصليبان .
وكنتم في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على
القل نشاهد الواقعة وننتظر ما يكون من القوم . وماظننا ان القوة
بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم .
وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . استدرکنا
امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهزم عما
تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في الاندفاع . والفينا
الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل .
ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على
شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لا يألّف مبيتا . ولا يلقي بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد انّ ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق . واقمنا بموضعنا على الخوى والخيّل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفرق غير مفارق . والقلوب مرتاعة مرتابه . والادعية الى الله مرفوعة مستجابة . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جده . وعدا جنده . وان الكفر حاد فله وفل حده . وان الميسرة ثبتت فثّاب اليسر . والاسدية انتصروا فأسد النصر . وكان هذا الصدى يقوى . والصدأ يروى . والبشرى تسري . والبرد بها تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مذهب من الظن مذهب مذهب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صافي . وقد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العماد . فقد جاءه من النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ما الخبر . وكيف ضفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسלט القدر . والى اين انت سار بالنبا السار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال: أنا بشير دمشق بالنبا العظيم . والخبر الكريم . فقلنا: اهلا بشائر البشائر وطائر الاوطار . والسائر بالسار والاخ البار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام للنجح املا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثابين مأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى أجرى الدماء .

ذكر حصّة النصره بعد صحت الكسره وكيف ادا لاله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتريه . وكرت الكره . وامرت تلك المده .
وصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وشيم من عارض
اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جوله . وخالوا دوله .
وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشياهم . وعدموا اتباع
اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتماعهم .
فانحدورا عن التل . وقد جاؤوا بقوة العز فآبوا بضعف الذل .
واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسياهم .
وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم . وكان
في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا
وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال
الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد من كان من
الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين .
وقايمان النجمي والحسام بن لاجين . ومن ثبت من أبطال
المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دماؤها
وأعلوها . وأفوها وفلوها . ولقوها وأقلوها . ووضعوا فيها
السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . وأوسعوها قتلا ذريعا .

وما ببطاً الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعا . فلم يقلت من
الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الاقها الا احاد . وامست لنا الحرب
قراشا . ولارض المعركة قراشا . وتبعها اصحابنا حتى كلت
سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسة
الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن
اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحامية
لنار الحمية . وحكي عنه انه قال بعرضنا في مائة الف وعشرة الاف .
احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تلاف فلما عجزوا . وبالخندق

احتجزوا . وقف عنهم اجنادنا . وبلغ المدى فيهم جهادنا
واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفا فردوا
مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت
من المثلثين ثلاثين واربعين . وتركتهم بالعراء عراة مصرعين .
ولاشك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده .
ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف .
ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فارس مدجج . في بحر
الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادي بشعار
المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنامه . فما شككت
انه يشكني بلهزمه . ويفكني بمخذه . وايسر من البقاء . وانست
للشهادة واللقاء . واستعذت بالله واستعنت . وتشاهدت مما
شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني خدمته . فالتفت فاذا
هو وحصانه ملقى كلاهما . وما وجدت بالقرب احدا اقول انه
ارداهما . فعرفت انه نصر الهى . وصنع رباني في مذاق الايمان
شهى . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصر ماملكت ، الا
الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار لله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الواقعة من الالطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها . وشكر
الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها
واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالفرنج عليه من اجتماع راجلها
وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتارسها . وان لنا كل يوم فيهم
نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامل في دمائهم والفه .
ومضارب مناضل لرؤوسهم فادغة . ونيوبهم عواسل ماضغهم
ماضغة . ونيول نغم عليهم في تقليص ضلالهم سابغه . وايدي ايد
لصفحات البيض بنجييعهم القاني صابغه . وضماثر وضوا مر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لاترى عن وقم
القوم اهل الزيع زائغة . ومابرح الفرنج في برج شديد . وامر غير
سديد . وظل للذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى
ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يأسهم ووقع
بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في
اللقاء . ويهجيون الى الهيجاء ، ويلقون الالوف بالالوف .
ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون ندورهم ووجوههم على
الاسنة والسيوف . ويكشفون بشبه التثليث ادلة التوحيد .
ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الحديد . وبرز ذلك
الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان . ورفعوا الصلابان
واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا
الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحق
ابطالا . وتأمل لشمها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السليب
ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوابجها
وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم .
فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ
جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من
لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان
الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبجل قد اظلم . وهناك عرف
اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المرات على اشاجع
الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان .
وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهازم في كلا الكلي .
وفتحت اليغالق مغالق الحتف . وزحفت الفوارس الى فوارس
الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت
ضرب الاعناق بقطع الرقاب . ومازالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحل
بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم .
وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت
اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع
اجراء ولم تطوق جريا . حتى تثلمت وتثلمت بنجيعهم صفحات
الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل من مقدميهم
ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهى الاسلام بما اتسع من
عطن عطبهم . وحسن منقلبه بسوء منقلبه . وعاش بما شاع من
قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهوم بما
تم من مآثم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين .
وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين . وانجلى الغبار
عن كل قتيل مالعائره من مقييل . ولالقاؤه من مقييل . وعادت اعلام
الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهدي الهدى على النصر
مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل
من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا من فقد رجاءه .
ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف
واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا من
خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليلهم .
وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخطأهم من النصرة .
وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجع
كلهم بالجزء . ونقص منهم العدد الكثير . وركد من ريحهم ذلك
العاصف المبير . فانهم في حشد كالدبى . وجمع اغص الوهاد
والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا .
وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصنوا
وتصبروا . وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا . واوسعوا
الخنادق وعمقوها . واحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على
الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضين .
وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهم ،
وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليلهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها
للشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن
الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق من ذلك
الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . وما ثبت
الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سيد ساد للثغور .
ومجاهد الدين يرزقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجلال ظلمة
الوهم بذور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد . وماذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا من الحضور فهابوا . والفرننج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لا يصددهم . فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم واسوائهم ملازم . وتبديرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأتين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيره أهل اليقين . وما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه . وتظاهرة في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين وتقاعدهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا وأية شالة نشدوا . وأية نجدة انجدوا . وأية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم . ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجد والاجهاد . واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا . الا لمجرد الحمية لمتعبدتهم . والنخوة لمعتقدتهم . وليس احد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يد إلى بلده . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهذوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا الغيرة . ولو اذننى والعياذ بالله للاسلام عنان . او خباسنى ونبا سنان . لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على انا بحمد الله لنصره راجون . وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون . والمشركون بانن الله هالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاجة . وهو شاعر مفلق . وفقيه مدقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموي المكبس . وكان سيدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلالم في الخزانة امين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم . وفثنا سورتهم . واخمدنا فدورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا دايوتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحتباس الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . وننقيهم حر الحرب ، ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهام ، ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونفرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتفهم النشر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها . ظلوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء بين السودان . واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجريء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . ففتتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . واندشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة أمكنت . والحصنة تعينت . والجو خال . والضوء عال . والحال جميلة والجمال حال . ففضى الله بما قضى . وعرانا المضيض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبثة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل الذسور . وان قدرها بطون الضباع والذمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صيدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من
الثقل واستدراك ما حذب من الخلل

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدى عليه بمثل ما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاعت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئاً اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العليل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الوبل الرشاش . وصبح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائنها . وقضاة القواضب الى اقتضايبها . وغار الانف وانف الغيران . وتسلبت العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحذق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلي نكاح بنات الخذل الذكور . واشرب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية للتقاضي . وقالوا حتى متى التراخي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد

فقد

وحضرا اكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقالوا علموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكل كل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفذ وسعه . وإن لم نعاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل دأؤه . وتعدر غدا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الأعداء . فظهر الأعداء من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما يلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يعيدنا .
وعساكرنا حاضره . وعزائمننا للتواني حاضرة . وعيون أسنتنا إلى
الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف
الدين . ولا بقاء للذقاد إذا أضحى منه ليث العرين . فالرأي كل
الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المجازة . ثم قال ليشر
كل منكم برأيه . ولا يقدم على قول ورأيه من ورأيه . فتجاذبوا حبيل
الاضطراب . واختلّفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل
منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين
الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول .
والنائب الاعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين
يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولا سمننا لطارق طيف
غمضا . ولا شمننا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قدزفتنا المنيا وقد
دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خلقوا على
صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وقلت البواتر . وملت العساكر .
وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما
يتأتى قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم
بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لا يتمكن
منهم إلا بالجمع الجم . والسيلا لا يغلبه غير الخضم . والصواب أن
نصابرهم . هذه الشدوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن
هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من
يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء
العلوج . ونعيد السريجات إلى سلها والسلاهب إلى السروج .
والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسل إلى الاطراف
والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الامام عليه أفضل
السلام . بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون .
ويقومون بالنصر . ولا يقعدون . ولا يترك استنفار التركمان .
وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعائهم بالعطايا . والتشريفات
السنايا . ويذفد إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم
والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح الساحل . وتغلى
بنار الحميات بها مراجل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونبايهم ونفاتحهم قبل انفتاح
البحر . ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . ونذسفهم ولو أنهم
جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد
منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة
ومحاوره . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي
وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة .
والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل
الرحب . ومن المعتكك المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجبني هذه
الحالة . ولم توافقتي هذه المقالة . وقلت لعمرى أتيتم بمصلحة .
ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار .
ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتحنينا عنهم أرخيننا
خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحر
مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق
إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنح عن قطع
الطريق عاجزه . وعزائنا على مصابحتها ومماساتها لها دون
قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وإن هونا احكموا . وإن
نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم
تحفظوا . ومتي نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فأنهم لحصر
البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايبلفون . فقالوا هذا أمرهين .
وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا
إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا
بالرجاء لم يئأسوا من الارجاء . أرخيننا لهم حبل الانظار . حتى
استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة
بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم
بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان مذكرها لما أبدوه
من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

- 221 -

لامبالاة بهم ولا أكثراث . وما أسهل إذا عزمنا عليهم لأصولهم
الاجتثاث . وبسيول سيوفنا نغسل تلك الأخباث . وأي وقت
قصدهم وجئناهم وجأناهم . ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما
فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما
حفروا الا قبورهم . ومادبروا الاثبورهم ومتى قصدهم كذبت
ظنونهم مذونهم . وامتلأت باشلائهم خنادقهم . وأظلمت عليهم
بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بواذقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن
داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل باتمامه سمعه
وبصره .

لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة . وضمت
أشلاءهم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحوهم المهتكة .
وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابر انه
لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعائر . وانهم قد عمدوا القرار .
وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم
ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان: ارحلوا عنهم حتى تروا ما
يكون منهم . فانهم يهربون ويهربون . ويبعدون إلى صور ومن
بعدها من عكا لا يهربون . فمال قوم إلى مقالته . وتخيلوا مثل
خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدور عن الرصد . والجهد
في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولا يعوقهم فانهم
كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه .
وبدا وهنه . وما زاد الفرنج الانباتا ولم نعرف لشلهم على ما توهمه
شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجب قبولنا
لقول هذا القائل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد العزائم من
البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه .
ومداراة أله . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له
عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له الطافه
الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد
الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مراتبهم لوقت الرجوع .
وأقام في ممالكه وخواصه . ورجال حلقتهم المنصورة من ذوي
استخلاصه . ورتب بالذوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار
بهلاك القوم منه فلكا . وكان في ممالكه كل مقدم مقدام . وكل همام
همام . وكل ليث ذي لوته . وكل حدث محسن له حسن أحوته .
وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم .
وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطل . وكل
مغير للنصر مريغ . وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ .
وكل تركي للرما غير تارك . وللأصماء غير فارك . قوسه في ظفر
الهدى مؤثر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر .
وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد .
وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار .
وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللأسالة كاس ومن الغار
عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الأبطال
ظاهر . وكل كمي كميثش واكديش . فما خلا يوم من وقعه . وما
صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير
سهامهم إلا بلسعه . وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم
إلا على لطفه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل
صباح ومساء حيث . وبلي الفرنج منهم بالمبير والبيد . واعتاق بهم
مراد العدو والمريد . وما زال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم
ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم .
وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهدأة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلبنا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صفوة . ونشوة أعقبت صدوة . وصحيحة استصابت ضحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فككت رهن السلاو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفتـرت عزمتهم . وقصرت هممتهم . وخمدت فورتهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتنفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتذكر الضامن . وصاروا يخرجون ويخرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسسون على القتال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجمـ جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمی الخبر بوصول ملك الألمان إلى القسطنطينية في عدد دهم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور إلى بلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة ألف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلائي . وأرقش حذشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار للدرع جار . وكل ذئيب عاسل . ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

من مقنع . وأنه مع الالمانى ملوك وكذود . وكل شيطان لربه كذود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفرات
ومن أهل الزمة في المأمن . يبدي تنصحا وإشفاقا . وتخوفا على
البلاد واحتراقا . ويقطع بان الواصلين في كثرة . وان الناهضين
الى طريقهم في عثره . وابرق في كتابه وارعد . وابدع بخطابه
وابعد . ولا شك انه الى جذسه النجس مائل . وبملاءة أهل ملته
قائل . ولما وصل هذا الذبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبر وخيل
أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصدقون ويكذبون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضع هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالاسلمون يقيمون لنا ولا يقعدون . ويغضبون لله
ولا يرضون انهم لا يعضدون . على أن الله ناصرنا . وموازنا
ومظاهرنا . وحققنا باظهار القوة لمن استودحش التأنيس . وبثنا
بالارسال الى بلاد الروم عيوننا وجـواسيس . وندبنا رسل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستتفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولا يسيغها الا كل مرئى ابي . وما هذه
الكرة مثل كره . ولا يحضرها الا كل كميث كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعل له الى كل
الذي ظرف في طريقه رسالة . وأودعه اليه مقاله . فسار من عتدنا في
شهر رمضان مغدا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل السير جذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله
الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد . وذكر انه قد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
للعدة الاستنجاز وللعدة الاستنجاد . فما هذا الرسول الرائح .
وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . وإذا اختلفت الحديث حدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الفى الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجمل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من للخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما افته جميعا . فوصل ضياء الدين الشهر زوري وهو مغتاز . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخاللي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض زعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الراي الذي احكموا . غير محكم . ومازلت أؤكد الأمر حتى يؤمن انتفاضة . وتعرض دون الراي حتى لايمكن اعتراضه . وايقن ان الامر ما فيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلذث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا راى رائب . وشاو شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لا يقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد . وينجح هذا القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل ما يدخل في استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنها دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحققها خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من الجند والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقالا . فاذا عرف انك اخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . ومالك مالك الامر امركم . وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهم . وانقطع الواصل . وارتفع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بكتمر في خلاط . قد جمع الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغيابة والغباوة . فقال السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحق والحقيقة . فان وصل الينا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشهر زوري الى بغداد . صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، وندبه فيما نتخيره ، وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الاحماد وسيأتي ذكر ما آلت اليه نوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان
والاستظهار بمجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة
الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصفا شوال . في جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشكة رادعة . وشارة سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخبة منتخبه . وعدة منتقاه مهذبه . من كل أجل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على
سوذليق (٣٨) . وبحر على سابح . وجذع على قارح . ومن كل
رئبال على تدفل (٣٩) . وأغر محجب على أغر محجل . ومن كل
أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بالاسمر سلاب .
وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شجاعا . وكل أحمى
أحمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقصور قاسر .
وضيم ضاغم . وقمقام وأقم . وليث به لوثة . وحدث له في الشهامة
أحدوثة . واحضر معه من سودان مصر كل زمر كانه العبي عابس .
وكل مغامر للموت مفامس . وكل غريب حلكوك . وكل سرحان
صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خارح لثار .
وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسخ .
وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة اللطية . والصلال القفطية .
والالال الذوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم
المذروبة . والصرائم المشبوبة . والاسنة المسنونة . والصوابغ
الموضونة . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماشيح
المزدرية . والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات
واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل ما
يراد من القوة مجهودا . وأقبل في روع ظاهر . وضوع باهر . وبشر
ذائع . ونشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهزة وطرب .
وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى .
وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد
نص النصر . وكف الكفر . وسلم الاسلام . ونام الانام . وأمن
الايمان . وتسלט السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت
الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبطاء الابطال . وورت زناد
الاجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم . الابد القوم .
وادرک ما استقام من النهج . وهلاك من أقام من الفرنج . ونزل
الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى
راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل
العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من
شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صدق من صدقه . وفي كل ليلة

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالذكاية فيهم مليه . والملك العادل يركب في كل يوم وبيلي . ومن جهده في القتال لا يخلي . والفرنح على البلاء صابرون . وللعناء والعناد مكابرون . لا يبرزون ولا يبارزون . ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومجاوله أهل الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . برائياتهم المنكوسة وأرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم المدشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة المسدودة . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التذليل على التوحيد سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات التي وقعت . أكثر من عشرين الف مقاتل . من فارس وراجل ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرت الا نار حرصهم . وما قلل حد حديثهم الحادث . ولا قلل عدد كثيرهم الكارث . ولا غضوا عيون أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى . ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا بالمدى . وهم لما وضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البواثق محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون . وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون . وإن جندنا لهم المنصورون . وللعساكر السلامية فيهم كل يوم ذكاية شديدة . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ناكية . وصدمة صادعة . وخدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

الوصول إليهم . جمع راجل البلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس . ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل وفقه الله للمراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حذف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع من في بيار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة . ولا خطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وانفضت معانها . وحملت ذخائرها . وبذلت أخايرها . وثار ثائرها . وطار طائرها . ونذلت كنادسها . واستخرجت دفائن ذفاسها . وخرج بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالآفواج فجاجها ومسالكها . وتصلبت للصليب السليب . وتغضبت للمصائب للمصيب ، ونادوا في نوابيهم بأن البلاء بهم بلادهم . وأن أخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا . وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبه مستردا . ولجده في النخوة لبيته مستجدا . فقد وهبت له نذوبه . ونهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على النقص يزدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجودون . وعن اللجاج في حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر المقاطعون أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم بيارهم . ورمتهم إلي أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول . ويتناول الشرك ولكنه لايطول . فان لبن الله من خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر نجحة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

الامامية . والعواطف الذبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة
الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعين .
ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم
دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء
سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة
بالأسس والشدة وكانت عدته خمسين شيئا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر .
بتجهيز الاسطول وتجهيزه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير
عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي
سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لآياده
وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا
لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو ذكاياته ، وقد تفرد
بغزوات لم يشاركه فيها أحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد .
ما سلك نهجا الاملك . ولا طلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيب .
مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف
لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم
دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله
مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى
الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به والافرنج من
شوانيه على وجه البحر عقارب تدب ولوا سب سوابل ما تغيب وما
تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميـــــر ناقلة .
فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملات معاطنها بمعاطبها . واستطال
الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها .
وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين
الكفر رجوما . واقبلت سواريه بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبزود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجأة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . فصدتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكانما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . واناخت طعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريتها . فأول ما ظفر الأسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم ونخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محصورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الاقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الأسطول المصري المنصور فجاءها فجأة . وامتد اسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشنأة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطربتها غالبية لا

لا غبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة . وألهمت في الماء على أهل النار كل نار للذكال مسعره . واذ قطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شئت . وتبعتهم مرارا وبالفنائم فاءت . وأعشت أعين الرائيين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشائن الدين واجيء مفاجع للعدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدم إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسنمت غواربها . وملاحتها برجال أيديها على قوائم القواضب قواضب . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها رواضب . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمدافعة ويجاولوه . فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

الاولجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنههم وأننت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالى الفيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاحوال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والنخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلا البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنقات . والرمي في العرادات . والحذف بالذفافات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصله القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات . وتطيير النواكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ . والجد في الجد والجد . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا . واجتروا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه إخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويهربه بمد مديته . ويسلبه سكوته بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراز والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقههم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحدشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنه . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وتراقدن على الارفاق والارفاق . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية (٤١) . متغنية متغنية . متبرزة متبرجة . نارية متلهبه . متدقشة متخضبة . تاذقه . فاتقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة مدشيه . ملهاة متلهية . متفنة متفتية . ناشية مندشيه . مدشوقة مدسوقة . مقترحة محترقة . متحبة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثني كأنها غصن . وتتجلى كأنها
حصن . وتميس كأنها قضيب . وتزييف وعلى لبتها صليب . وهي
بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرهما في سكرها . فوصلن وقد
سبلن أنفسهن . وقدمن للتبذل أصونهن وأذفسهن . وذكرن أنهن
قصدن بخروجهن . تسبيل فزوجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان .
ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفرين بما ضربنه
من الخيم والقباب . وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب .
وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخاذ . وبحن بالاباحة .
ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماحة . ونفقن سوق الفسوق .
ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور . وتحجرن بنزو
الفحول منهن على الحجور . وعرضن الامتاع بالمتاع . ودعون
الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على الاعجاز . وسمحن
بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط .
ورمن فرشهن على بساط الذشاط . وتهدفن للاسهم . وتحللن
الحرام . وتعرضن للطعان . وتضرعن للاخذان . ومبدن الرواق .
وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتاد . واستدعين
النصول منهن إلى الاغماد . وسووين أراضيهن للفراس .
واستنهضن الحراب الى التراس . واستدفرن المحاربيث إلى
الحرث . ومكن المناقير من البحث . وأذن للرؤوس في دخول
الدهاليز . وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقربن
الاشطان من الركايا . وفدوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقطعن
التكك . وطبعن السكك . وضممن الاطيار في أوكار الاوراك .
وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجار عن
المصون . وترفعن عن ستر المكزون . ولففن الساق بالساق . وشفين
غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجار . وأطلعن الاشرار على
الاسرار . وطرقن الاقلام إلى الادوية . والسيول إلى الاوبية .
والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفان . والسبائك إلى
البواتق . والزنانير إلى المناطق . والاحطاب إلى التنانير . وذوي
الاجرام إلى المطامير . والصيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى
البطون . والاقذاء إلى العيون . وتشاجرن على الاشجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قرربة ما وفوقها قربه .
لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمر . وطلبن
بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبوا
كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من الممالك الاغبياء
والمدابير الجهلاء . جماعة جذبهم الهوى . واتبعوا من غوى .
فمنهم من رضي للذة بالذلة . ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في
الذقلة . فان يد من لايرتد لا تمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهمه يشتد .
وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت
منها الأعزب حرج . وما ازكاها عند القسوس إذا كان للعزبان
المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحر . امرأة كبيرة
القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدها مالكة الأمر . وفي جملتها
خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلماهم وأشياعهم . وهي
كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تذفقه فيهم على
المعونة . وهم يركبون بركباتها . ويحملون بحملاتها . ويثبون
لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس . لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال .
ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجا وهن ربات
الحجال . وكل هذا يعتقنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سعادة .
ويجعلن لهن عادة . فسبحان الذي اضلهن . وعن نهج النهى
ازلهن . وفي يوم الواقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسوة .
وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما
عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة استبين واشترين . وأما
العجائز . فقد امتلات بهن المراكز . وهن يشدن تارة ويرخين .
ويحرضن وينخين . ويقلن أن الصليب لايرضى الا بالاباء . وانه
لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء
فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن
للغيرة على الملة ملن الغيرة . وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة .
ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلن . ولما ضامهن من الامر تبلهن
وتبلن

ذكر ما أهده عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أفسنقر صاحب الموصل
من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة .
وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدّة . سير من
أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده ما وجده . ومن الترّاس
والرماح من كل جذس أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد .
وذاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح .
واستجيدت الترّاس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء
الارواح واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق . وطغت
وضربت منهم النحور والاعناق . وقد هدا بما أهده النصر إلى
الهدى . والردي إلى العدا . وأجود الأكارم وأكرم الأجاود من جاد
بما أجدى . واهدى ما هدى . وعاد من المكّمة بما بدا . لأخلى الله
المجالس من يد يتخذها . وأياد يسيرها وينفذها . ومحمّدة
يستخلصها لنفسه ويستنفذها . وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك
ويقنها . ونخوة للإسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشخذها . وما
طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان
الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة .
والبيض متألّمة . ووجوه الصفايح بلثام النجيع متألّمة . وعيون
النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمّام
الحمّام في مريشات السهام بكتب الكبّ من حنايا المنايا السائقة

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال النبال . والرماء
الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل .
والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا
وهو وإن كان غالباً لاغب . ولا صارم الا وهو في دم العدو الفائض
ناضب . ولا جارج إلا وهو مجروح . ولا قارج الا وهو مقروح .
ولا جامع الا وهو مصعب . ولا باشر الا وهو مقطب . فباية عدة من
هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتأسس الشكر لانعامه
وتمهّد . ومن العجب أن العدة تفنى ولا تفنى العدة . وتنمو على
الحصاد وكأنها الذبات . ويتسارع الى أمدادها الموت والهلاك
ويخالفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدّهم . والكفر إلى الردى
يردهم . وكلما اخلقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم
القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم
وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين
ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولا ينتصف فيها من
الاعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستتهاز
الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتأخيرته . والتمهل في
تسييره . فتأثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من
بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامرّه . والتقدم بتجهيز
العسكر الى نجده بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

وعرف مسير قطب الدين ادم الله له مضاعفة العلاء . وأقر باذواره
عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات . ولم
يقرب من عبر الافرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكريه
مستريحاً عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع ادعى . ومصالحة
الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب
القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالذفوس
والارواح . وتلقته القلوب بالقبول العبق بزشر الاشرار . وان
اشتعل القلب بما فاتته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر
أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار .
للاستنفار والاستنصار . وبت الكتب وكتب بالاث . وحث الرسل
وأرسل بالحث . وبعث المرشحين لاستبطاء البعث . وانهض للتبليغ
كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ .
وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب
اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جليلة الحال . وما نحن
عليه من دوام الاقتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين
واستنجد . واستلن واسترقد . وحض على حظه من انجاد
الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج
السماع . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد
الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد
الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بما دنا منه عزمه ودان .
وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدى إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين
طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه
بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل
الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز
أمير العلم . فحضر له من الخيم الخاصة سراق . ووفرت في
الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خائنه من أمرائه
ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخاصة .
وأن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة
مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوة من هذا الجانب
قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكته بقرب اربل . واران الوصول
الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن
قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم
دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بدمتكم . وانا عنده
مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان
أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت .
وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد
بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى
الاعانة . وادف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من
سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه
لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب الى زين
الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهر
زور بالتوفر على خدمته . والارتياح لمصلحته واشاعة معاونته . ثم
ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل ارسلان وهو جمال
الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كونه نسبي . ليكون
القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة .
والمصافاة على صافقة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه
وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . واقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فذقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الاخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها مدشورة . وعلى تعذرها عليهم مدسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباحج . ووضحت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيح وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الاشواق الى لقاء الاعداء لواج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزومات . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعات عجائب . وأعجبت وقائع . وأبدعت غرائب . وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لايقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحاب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على ما يظهر للعدو من الكيد . وهو لا يبعد من الخيم . ولا يقرب من مسائل الليم . وركب يوما في صفه على عادته فتصيد . وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم . وحملوا عليهم وطردهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . وما زالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشقة ومشقة . ورشقة ورشقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولة ولة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . والفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فني الذشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء الذشاب . والفرنج لا يعجزهم الا الرماء . ولا يهتكهم إلا الاصماء . ولا يذفرهم الا رنة الاوتار . ولا ينذرهم الا أنة القسي بالدمار والبوار . فلما أنسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الذنوم من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر . وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان . واشرعوا الى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان . واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التأسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة . وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العدو صار عرضة للصرة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الواقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا
للسلطان يقال له سراسنقر . وهو يتطاول في كل معترك ولا يقصر .
عثر به جواده . وثبت على الجراة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه
أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه
ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سراسنقر يعدو
ناجيا وللخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه .
وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المنون من لهاتها بعد
ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرزون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف
ارزون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج
عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب
خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني
زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر
ارتياؤه وارتياده . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة
مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام
بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور . ولبس من
التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتتم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من
مصر . فما زال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في
المراكب . وقد ملاها بالنخائر والاسلحة والكمات المساعير والحنة
المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا في
موانئها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعدد .
فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم السباحة لهم بالرغائب على
وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحوا .
واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد
على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتباً
وطيوراً . ويعودون بكتب وطيور . وكتب اليهم ويكتبون اليها على
أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المکتوب
والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر من
اتخذ حماماً تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجاً من
خشب . وهرادي من قصب . ويديرها على الطيران من البعد .
ويوردها لشبعها وربها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا
الولع بما لا يذفع . والوله بما لا ينجع . حتى جاءت نوبة عكا
فدفعت . وشفت الغل وذقعت . واثت بالكتب شارحة سارحة .
ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفاتحه . فصرنا نحبو صاحب
الطيور بالاطراء . ونخصه بالمدح والثناء . ونامر به بالاستكثار .
ونطلبها منه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة
الارسال . وكنا نعرف بها جلية الاحوال . ونعلم ان الله علمه ذلك
البر . والهمة ذلك السر . فانه اطلع على ما يدفع اهل الاسلام .
فحمى حمى هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمنية
بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيوار . جريئة
على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع
الاخيار . وحمام البلد اليها مع العوام محمولة . وعقود الاكياس
عليهم محمولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث
على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخطر . وفيهم
من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعموم . ولقد عطب
عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما
لقي رفقاؤهم لا قون

ذكر ما دبره السلطان عند اندسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما اندسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمـسـر
السلطان عساكره بالعود فتوافقت أمداد أجـواـدهم تـواـفي اـمـدـاد
الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن
محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة
وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي
ببسالته يقسر الليث القصور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام .
الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد
المقمام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من
العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء .
وكثر الجند . وانتشرت البزود . وحلقت عقبان الالوية . وتلاحقت
نؤبان الالوية . ولعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البـواـئـق .
وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق
العقائق . ونظرت أحداق الحدايق . ويسرت طرائق الطوارق .
واعجبت أزهار الرايات وانهدت غايات الفايات . ونزلت بحسن
الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول .
وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . ومضت المواضي ومضت .
واقترضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلـى .
وغربت السمر بالكلـى . واشتأقت لدات اللدان الى العناق . وتآقت
شفاه الشفـار الى لثم الاعناق وتحدث في المجارة باجراء العتاق .
وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة
الجماجم اعراب العرب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملـل .
وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته .
وفاز النصر بعدته . وجليت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند .
وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام
نصبر ولم لانشغل وكيف لانشغل . وحتام القعود . ومم الركود .
ولما الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو
وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول .
في الفصل الاعدل والفضل الاكمل . وتداني العسكران . وتعالى
العثيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر
الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تريب
منازلهم طالبا طالبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة
الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ،
والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر في اول
ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء
بالذقع النائر مذقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر
مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة
متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، مذقضة كالبزاه ،
منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، غابية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة

مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار
الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ، وهو الشريف فخر
الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فدلّاه السلطان
بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه
الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من
وقف له بالقرب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد .
وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند
القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٧)
وأصعبه من خواصه وأمرائه قبيل . حتى نزلوا به في باركاه له
مضروب ، وخصه بصنوف من اللطاف وضروب ، ووصل معه
حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتوقيع بعشرين ألف دينار . تقترض على الديوان العزيز من
التجار ، وخمسة من الزرايين الذقاطين المتقنين صناعة الاحراق
بالنار . فاعتد السلطان بكل ما أحضره . وأخلص الدعاء للديوان
العزيز وشكره . غير انه أبدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل ما
معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شملني من
عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بالفرض ، ويغنيني عن الالتزام
بالقرض ، وأركب الرسول مرارا معه واره مبارك النزال . ومعارك
القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابطال . ومطالع اللقاء .
ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقدام . ومواقف
الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكان اللبوث .
وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشهد بما يشاهد . ويبين له
المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثر أثره . ويخبر بجملة
ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طوله
دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استأن في العود
فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفرنج عكا بالابراج والاعجاز بها والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار . شرعوا في عمل الابراج الكبار ،
وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبذوها وقدموها ،
ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طباقا . وسمروها بالحديد .
وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا . ولبسوها
بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بها الى السور وكشفوا
بـالرمي منها بعض صفوف الدور . وتسلسلوا
على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر
بان التالف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخطر قد أسرف .
والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخذق قد طم .

وأنتم إن تدم هذا عراكم العار . واظلم على الدنيا والدين بليله
النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشتد وكرب وركب وكان
يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحف الى الفرنج ليشغلهم عن
الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين من ربيع
الاول يوم الجمعة . بالجحافل المجتمعة . والغماغم المرتفعة .
والصوارم الملتمة . والصلادم الممتنعة . والاسنة المشرعة . والاعنة
المسرعة . والدوائم المنتجة من النجيع . والبيارق المختفة كآزهار
الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود
ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي النقي ،
وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضايقهم السلطان
مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتى
دخل الليل . ولغبت الخيل . فقوى تلك الليلة اليك . والزمهم في
الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور
نحوهم مجاهرا . فلما اصبح يوم السبت صبحهم بالحرب .
وسبجهم على بحر الكر والكرب . ورجل الرجال اليهم . وانزل
النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد الذقع . واتسع خرق
الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقرض القوم . وتفرق
الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدماء . أو جريح على
بقية الذماء . ويات الناس في السلاح شاكين . وبنار المذاكي
ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجع السلطان الى خيمة
ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع
في رياض الاخلاق الرياضية . واصبح يوم الاحد راجعا الى قتال
أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانذقال السوق
الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهور
الانصر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم
نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقال الى المخيم لئلا يغيب
حاضر . ولا يصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب
مباشرين . ولعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين .
فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محترق

على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح بالحرب وقاع . وكل
صرار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغام .
وكل أسد

الشد له في حومة المأزق زئير وبفهام . وكل متلاف الفيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجاف . واخذوا من بيت السلاح السيوف والفراس . وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . ووضحوا بالذكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وان البلد ضويق . وان العدو المخذول يحيق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله . ويكفه بنزله عن نزاله . وجدد الكتب الى الامصار . بالاستنفار والاستنصار . فالول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظر ناضر . ورونق حاضر . وجمع كثيف . وحشد لفي . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهياة معجزة وهيبة العدو مزعجة . وصدولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوابل . وعناق وصدواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حران جريدة . وقد استأذف الجهاد عزيمة جيدة . ثم عاد الى عسكره ليقدّم به . ويحضر بجنده وتركمانه وعربيه

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها
وتلاف كل ما كان و من كان في طباقها .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون
تتابع بظهور دلائل النصر وتناصر اسباب الظهور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي الجو بشرارها مترامية . ومايدري ما سبب هذا الحريق . وكيف تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار . وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثنائه تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبأسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشارت النار . ونسير بطاقتها على أجنحة الاطيار والعجب ان الابراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدنا الفرنج لمسافات متناثرة ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف اسواره وكسفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقعة ، وكان سبب حريقها ان رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري بعمل قدور الذفط وتركيب عقاقيه ؛ وتعيين كل نوع وتعير مقاييره ، وتقدير معاييره ، والناس يخضكون منه . ويفضون عنه . ويقلولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وماهذا الهوس الذي وقع فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وابنى اليها من الذفط كل قدر وذن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل نفاطة مرهقة . وبالحق صنعتها الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس . واستسلم الناس . فمضى ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء العين قرا قوش الامير وقال قد راينا ما اعترض من التدبير . وماعرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور . فانن له على كره . وقال بما رى لاحراق هذه البروج على يده من وجه . فان الصانع قد ابلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يدسوا فلما وجد الانن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها
ثم لما استوت رمائته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدر نفط
لانا فيها . وهو يصيبها على اعالي البرج ويسقيها ، والفرنج
يعجبون من الدلال ولا يدرون بما وراءه من الأشعل ، ثم قذف بقدر
ناريه ، متشعبة بكل بلية فوقع في الطاقة الوسطى ورمى اخرى
فوقع في السفلى . فاشتعل البرج من طرفيه الاثنى والاعلى ،
وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين . فاحترقوا
اجمعين . وبخل اليه ايضا جماعة لاستنقاذ ما فيه فاحترقوا
بدروعهم وسيوفهم . وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لا استبطاء حتوفهم .
وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احراقه
التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وما كان ذلك بصنعة منه بل
لان الله وفقه . وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد انقادا حتى عاد جمرها
رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سودا .
واحتترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر)
(البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفار بذلك
الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت
امالهم . وركدوا بعد حربهم ، وركنوا الى خزيهم ، وضلوا في
سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهم بسقوط ايدهم
وحقيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا
الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القدر ، وجاؤوا الى
مواضع الابراج واماكنها واستخرجوا الحديد من مكانها .
ونبشوا الرماد عن الزريعات التي انسكبت ، وكشفوا عن الستائر
التي تهتك . فاخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا وأترب من
ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب .
وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بذلك الاوار . والحمد لله
الذي جعل تلك النار لاولياته بالبرد والسلام ابراهيمية . وعلى
اعدائه بالحر والضرام جحيمية *

ذكر فصول أنشأتها من كتب الإشارات بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرشد . واعذ به حال الظما البرج من الورد . وذلك ماضهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاثفاق الحسن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصحابنا بعكا رموا بقدر الذفط عند العدو المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قاربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تسعة اشهر يجمعون هذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سمكها وقاربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام من نكاياتها . واطلت الافاق من غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربا . فاقدر الله على احراق ما عمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . وما افصح أسن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . وما ابسط ايديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتب مبشرة بالظفر الذي ورت زناؤه . والنصر الذي قرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا . وصبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابراج الفرنج المنصوبة عليه بقدر الذفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بها أسن النار المنصرمة . ودبت من الابراج المقربة الى الدبابات المقدمة . وعلم العدو ان كرتة خاسرة وان يده عن نيل المنى قاهرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجع السنني والذور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بهكا يوم السبت ثامن عشرين ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقذور النقط المحرقة من الثغر . فطالت السنة النيران تدعو على اهلها بالبوار . وتبدي في تضرعها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم: كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عند العدو وابراجهم بقذور النقط من البلد فضطبت السنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحققتها بالوهاد . وفرشت رمادها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحتترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنقات بصدمه المنجنقات . ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدهم التاريخ . وما طول أسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبأ . وقد ابدت الى الاسلام بتضرعها وتضرعها وجه الاستبشار . وما احسنها وهي ترمي بشرر كالقصر . ويكسو سنني لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر . وما قطعها لدابر المشركين وقد خست باحراق تلك الآلات عن البلد اجنحة الحصر . ويسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر . وقد بغت هذه الفجعة فجأة من

حوته تلك البروج . وبخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع . وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف . كل ما وجدوه خلال رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج ووثقا بوثقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها . ووصلوا بها اجنتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخذت ظنونهم . وسخت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفذ الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شائخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجمهم . فلما قدموها بعد لاي . واحكموا باحكامها كل تدبير وراي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بالآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله ما لم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداءوا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . وأقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . ف تسلطت النار على عمل اهل النار . وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان . وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحللت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصق بالتراب ترتيبها .
وتدكس منها صليبها . وكانت ثلاثة أبراج شاهقة فلعبت في ملاعبها
النيران فإذا هي زاهقة . وتنقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز
شياطينها برجمات شهبها عن الخروج . وتسלט الحضيض على
يفاعها . وباد الدارعون فيها بادراعا . واضحك الله ثغر الثغر بما
اطابه من أرج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهج ما اكرب قلوب
المؤمنين من الوهج . وسان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل
التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابرار الى البلد فقربوا من اسواره . والصقوا
منها جدراننا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره .
فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحرق عمل أهل النار
بناره . وكان اصحابنا عاينوا مآلهم وهمهم . وخصهم من
الخطب وعهم . نصبوا مجانيق بازاء الأبرار . وصدعوها بها صدع
الزجاج . ورموها منها بقدرور الذفط فاشتعلت رؤوسها وشابت
وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبت . وارسل الله في
تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قد حصت
واسنمتها قد جبت . وسقط في ايديها ووجبت جذوبها وكبت على
وجوها في النار وكبت . فما افصح السنة النيران وقد نادت
بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من ذقع غليلها واحبت . والحمد
لله على الطافه التي ما غابت ولا اغبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بحقها
وحقيقتها . وحليتها وجليلتها . فانه يشتمل كل فصل على تمام ما
اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر دقي الدين بقل كيسان . ولقيه بعده الملك الظاهر خضرو المعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلاله . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك والطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر ونشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بذشره عقب وبجبه علق . وسار مع السلطان باطلايه وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قبالة العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم ربه السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى بخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وآنسه ببشر السماحة والسجاجة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والذسيب صفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . واوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملا تلك المروج بعساكره المالية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى . بالأيدي الأطول واليد الطولي . فالتقاء السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه . لكنه لم يقصر في القاعة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السراشق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي . فكان ذلك المرج بحر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صعداها الكتائب . أو غيل أساده في أجسام القنا الفوارس . أو غدير من السوابغ حبابه القزائد والقوانس . أو سحب بروقه الصوارم الرقاق . أو وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود . وهو كوالده مسعود مودود . وفي شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتدوعة . والمفاخر الاصيلية المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصنعة . وجيشه للقوة ضابط . وجاشه على الحمية رابط . وبأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهو شاب اول ما بقل خطه . وابتهج بكماله رهطه ، وكان ابوه قد عزم على الوصول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه . ثم رأى المصلحة في الإقامة وتقليم ولد المشكور المشهور الشهامة . فانهض العسكر المجر معه . ثم اتبعه بمن حشده وجمعه . فورد ورود السحاب الكنهور (٤٤) . وذور المطالع بسنى السذور (٤٥) واطلع بطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه . وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وانزله في سراشقه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الا من اقتدى به في الاحتفال بقدوم هؤلاء . واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة في الولاء . والمسارة الي الضيافة والاهداء . والاعانة الى المكارمة بعد الابداء .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله .
ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجاس في
طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حدث
همته العليا . وحض لحظ بينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده
علاء الدين من تقلد بوروبه أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه .
وأوفى جنة . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطر
بدرا . واصفر لمرقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين
ببشاه بشرى . وملا صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم
وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم
الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و
المجد المؤتل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر
بحقول ذلك الحقل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل
مقدام . وزار خيس الجيش بكل ضرغام . وزار بكل اهتمام بالمذون
همام . ووصل بكل واصل لسبب النصر . قاطع دابر الكفر . ووفد
بكل وافد باليمن الوافي . والنهج الكافي . والعز الصافي . والعزم
الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع للمنى . فارع بالغنى .
فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا . وكان هذا اول يوم لقائه
للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع
بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتويد الى الناس .
والتشدد بالباس . والتواضع مع الكرم . وبذو الود مع علو
الهمم . ماله مبذول . وذواله مأمول . وسيفه على الكفر مسلول . وامره
بالطاعة في رعيته ومن في جملة مقبول . وهو مرجو مخشي . وكريم
شيء . ومهييب مرجو . ومحسن بسنى الحمد مجلو . وكان معه خالق
كثير . في سلك الاتساق ومسلك الاتساع تنظيم نثير . وانزل بقرب
اخيه مظفر الدين في الميسرة . وتمكن الرعب بما تم من الجمع في
قلوب الكفرة .

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه النخيرة والميره . والعدد الكثيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول . وتم بظهوره النصر المأمول . فركب السلطان في جافله . وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله . واحدق به حول خنادقه . ليوسع عليه الهلاك في مضايقه . ويشغل الفرنج عن قتال الاسطول . ويسهل عليه بتشاكلهم طريق الوصول . فعمر الفرنج اسطولا . وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا . وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور . ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور . فجاءت مراكبنا . ونطحت مراكبهم وطحنتها . واوهت متتها واوهنتها . واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا . وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سببا . واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس . وعاد المسلمون بعبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية . وكلاء الله لنا ولأصحابنا وافية .

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها
وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني . وهناه من النجح السني . واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني . وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور . ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور . متوافرا بوفود الوفور . وبخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور . فآثر البلد بعد انفاضه . واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه . واستجد جنة وافيه . وعصمة واقيه . ونخيرة كافية . وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها . وبرزت مناكبها . وحمت بالرجال

والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها .
وسحبت على شبيح البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا
الحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظننت انها تستطيل على
رواسي اساطيلنا بسواربها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور
جواربها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص
العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب
بما احاط بها من الدواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر
حين زعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها . ووجدت
فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم . وكانت الفرنج
حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخرستها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالاسد
عريسه . في شوان للعدو شوائن . وشالنيات لشله وفله
ضوامن . وحراريق لاهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في
مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي
هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر
مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو
قاطعة . وقلعة لاساس اهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة
تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر
أمواج في الأمواج . وبخلت الى الثغرافواج بعد الأفواج . وكان
العدو قد أبرز أساطيله . وجهز أساطيله . وشب عوابيه
ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمى مناكب مراكبه . وجد في
امهاء غروبه وتسليم غواربه . ولما وصل الاسطول طال
وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده
واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت
اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به
الثغر بعد الانفاض . واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . وبخل
اليه ماخرج عن حد الحصر . من خيرة وميرة توجب كثرتها قلة
المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق
رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت ففضت للمسلمين
أغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو
أعراضا . وجاءت سواريقها كالرواسي . وجواريقها محكمة
المراسي . ومن شيمة حرايقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل
النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء
الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشد شد
العقاب . وعقاب مدلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب
في اعداء الله بين الاحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة
وافية من الكافرين بقطع الرقاب . وما أحسنها وقد زفت
عرائس . وجلت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل
الكفر عوايس . وعادت بها رسوم مراكب القرنج دوارس . وخلا
وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الضلال . ولما شوهد
الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من
الاعداء بحقه . وأشرق سنا النج في أفقه . ركب العسكر المنصور
للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى
الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل
والنصال . وأحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع
الزرق . وبشرت جياح العواسل من اليراع العاسل بعاجل
الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل
والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من
الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب
الشتات . وأدرك المشركين ماقاتهم من الآفات .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقبل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمتعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطط ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البرد الشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبدلوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فدفنوا وأحرقوا منها . وتركوها وسالوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلق لايعد . وجمع لا يحد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهم للوبال في أوجها أوجها . والأفرنجية لا تنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتي بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسلكها دونهم غير مصدود ولا مسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . وبخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من الموثيق والايمان . وحمل ملك الألمان له وفرا وفرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصل الى المؤمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم
من الخيل والعدة بما يرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم
الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل
الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع
الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكت
جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفائه بن لاون مقدم الارمن الى
خدمته . وبخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده .
وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريدوا بها النفوس ، وقيل عن
لكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر
والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا
سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلكه في تلك
السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد .
وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء
الفناء . وتلقاه مالك بالزيانية . وحملوه الى نار الله الحامية .
وسمعت نصرانيا يقول في معناه : كنت معه لما سلك فهلك واعجله
مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد
والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا
يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة
من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد
واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية
الفياضة . وبخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك
الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه
وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه .
وايسوا من عالجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته
وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجناده . لما كان
الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى
تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا
بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيسة ستهم بالقدس قمامة .
ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون
حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لاتلاني لما

فرط من تلقه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه . واتصل الضربهم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقول ويعدد ويدهد ويهدد . ويرى انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضح . وان الخطب فظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبا . حتى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراده وانه اخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار ، ثم وطى ارض ملك الروم وداسها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها . واحرج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

واخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومن الثياب الطلاس المعدنية ما بلغ الألوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروف كبرائه . وأخذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعدية . من مراكبه سحب . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج . تلقاه بالخيول والدواب والأبقار والأغنام تركمان الأوج . ثم وقع بين التركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان . والتقى الأقران بالأقران . وهزمه ملك الألمان . ولما أشرف على قونية خرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها . وأنه هجم على قونية عذوة . ونال منها حظوة . وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربه وانقضى . وخافه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء
ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض
عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفف . من كل سرحان أهرت
وذئب اغصف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم
طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس
وهجروا الثياب . ولزموا المصاب . وداوموا الاكتئاب ، وهم
صابرون على الشقاء والتعب . لامل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الاخبار . اضطربت الديار . وارتسعت الانجاد
والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا
يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويذل ثم ثغور
الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان
على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على
رأي الثبات . وتتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقت
عزائم النين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى
مكانه اخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد
الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج
ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين
بهرام شاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسالك . ثم
سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القصور . ثم اليار
وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد
عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد ألم به سقم . ثم سار
الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف
الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت
الغلة . وخلت الاماكن وتمكنت الخلة . ثم رحل الملك المظفر تقى
الدين لحفظ ثغر اللانقية وجبله . ويثبت بقدمه عليها الرعية
الخائفة المجفلة . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من
جمادى الآخرة . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت
المدينة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ الثوب في اليذك
مستتيما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون
وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد
للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب
العافية . مستعقبا لأطاف الله الواقية الواقية ، ووقع المرض في
الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم
فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم
سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا
وجبيل ونقل اهلها الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الارمن
واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت
في خيلهم ، فانن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتيث
جوهرة بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم
في ثلاث نوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة
عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في
مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم
ويتألفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق
به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابردنس صاحب انطاكية
نرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة
فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على
حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت
جموعه وجنوده . وبلت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة
الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج
رجالها عليهم على قتلها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا
على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفتتين ، وقيل انهم حسبوا
ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاءوا اليها سحرا بأحمالهم
واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها
وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلي عنها اصحابها لما عرفوا
الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من
مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام
عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه
انهض جماعة من اصحاب امراء حلب واصحابه . ليقتفوا
اثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم
فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة
على الحجل . وزاروا فيهم زئير الاسد في النقاد . وزاروهم
بالاجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم
متمزقة متمزعة . وعادوا بالاسارى الى حلب وباعوهم في
الاسواق . وامتلات بالاسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب
الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم
اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة
حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . وراح من الامهات
الالمانية . وذاوبا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا
اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم
العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس
بتلك الاموال المجتمعه . والنخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب
في الوصول الى بلده . ليحصل على سببه ولبده .
فأخلى له قلعه . ليذقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها .
واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق
الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة
واللائقية . وسقتهم كؤوس المنية ، واقتهم على البسوس
والبلية . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص
نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى
مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في
طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على
الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على
عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بذقع غليل ، وسألم بذكر حالاته في مواضعها . وذكر مصارف
جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمة الغماء . والذكبة
الذكباء . والشدة الدهماء واليلة الللاء . وهي ان ملك الالمان ومعه
ملوك الافرنجية وحشودها . وقوامصها وكثودها . واحزاب
الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبندوها . وصل جارا على
السماء نيدول قتامة . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه
لطلاب ثاره . سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره . وانه في
عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شياطين لارضائها
متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبة . وانه في
مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر
سوتها رعى الحرب الزبون . وقد اوقدوا للشر شرارا . وأضرمو
للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهم على قمامتهم
دائمة . وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم الى المقبرة التي
يدعونها ، والآجال تليهم لنهاهم التي يدعونها . وكان خبر
وصوله متداولاً على السنة الارجاف . وتشيعه اعداء الله من قبل
للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد
الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع
باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح . ويقين نبأ بامر
صريح . حتى اذا صح الخبر . سار العسكر ، ثم انقطعت
الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان
وايار . وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان واولاده ورسلم
متواصلة بما ينبئ عن التعاضد . ويبني امر الوفاء والوفاق منه
على التعاون والتعاقد ، وهم بانهاء ما يصح عندهم
واعدون . ويزعمون انه في رد الواردين واردائهم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا: انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخذوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفداح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتساق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه ، واقدرونا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولا يدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالمانى المخذول قد وصل فما لقعوبه عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصره الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع اهل بلاده واوان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفى بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلوجه النعمة فيها ، بل قضية وفي الله في النجاح بموعد توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اوليائه لقمعها . وثائرة كلنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملازمة الخطوب العظام . وليثب واثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتحاء ذوي الانفس الالوية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرقة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد أن للإسلام ان يسلم . وللإيمان ان يعدم . وللتأليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللکفر ان يقدم . وللهدي ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبدته . والبرأتى آتیه من كل بلد الکفر بسببه ولبدته . ووصل الالماني المخذول بعده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشرقد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وقد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبذود مذشورة . وخيول مجفجه . وسيول مجدحه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الالوية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مغترون . بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستنزون في طريق العثرة
والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى
الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تدولى تفريج هذه
الغمة . وكشف هذه الملة حتى تخلف اماني الالمني . وتبطش
ايمان الالمني . وتخذل انصار النصراني . وتجنني وتبر رؤوس
الجنوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين
المهتدون في نهج الرشاد المتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا
للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في
نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض .
لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولا بد من لقائه قبل تلفق
الجمعين ، وارة الملاعين وجوه حذوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله
الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثار الصليب
الصليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نفعه .
وما فض الفضاء ختام قتامة . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل
الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالمني مخفف بالمامه .
والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة
الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه .
واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلة

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملا
احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايقى لنا
حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فحنن ننتهز
الفرصة . ونحرز الحصه . ونهتيل الغره . ونهجم عليهم هذه
الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم .
ونمت بعز العزائم ونفل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر
يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة . في حشر يذكر بحشر
الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا
متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما
استصحبوه من البلية . في كل ذنب امعط . وسيد قد تورط .
وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي
أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري
قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري
راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء .
وسرجندي كزار . وفريري غير قرار . وفارس يفرس الرجال .
وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشي
يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى
ماترك ولابقى . وبخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت
اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه
ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايمان النجمي
وعز الدين جريدك الذوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة .
والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل .
حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار .
واقضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر
شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود .
فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر
قبل ان تتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على
الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض .
وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ .
وركبت العادلية اكتسافهم . وفلوا فيهم اسـيافهم .
وعقروهم وعرقوهم وبجوهم وبجـوهم . وحكموا في الرقاب
الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبة . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ما هناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خادمة بالعبرة قاذلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونفكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حقتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولا انتظار . ولا ترقبني ان احضر . ولا مهمل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا بانوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ما صنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والايات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجلية في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الواقعة عند من وقف عليها وقع . ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نزع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسوها . ولو وردتهم بزيينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون ما اكتبه . ولا ترغبون فيما ارتبه واهذه . فقال كاذك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدي الى طرقاتها . فقلت ما فات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له ما بقي من بشارات البلاد التي انشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جدها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المناير .
وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت
بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج
الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . وما بينها
محجه . وما اثبتها حجه . وما أفرجها مسرة . وما أسرها فرجه .
وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة
من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا
متغاورين . واغاروا للواء اللاواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى
الخيم العادلية فاخليت حتى بخلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم
وتخللوا فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعرء .
فوضى بالفضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت
السيوف من دمائهم . قبل ان تشيع الوحوش من اشلائهم . وظهرت
لنا نعمة الله في بلانهم . وحيي الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشراك
الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف
قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر .
ولو اتفق خروجهم من مراكزهم بأسرهم . لكننا فرغنا من شغلهم
واخلينا بالننا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم .
وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجو
من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان
ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هذه الواقعة بهم حقق
عذورهم والله تعالى يحقق تبارهم وبحورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . واشتغلوا باستباحة
احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحوهم
الاسنة . وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على
الارض . واديننا بارداً لهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة
الاف قتيل مشرك . وشملتهم المنون فكانهم جاؤوا على موعود
مهلك . واروينا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا اشلاءهم قرى
الودحوش لا الضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك
الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود
ريحهم . وخمود مصاييحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حوالهم . ورضتهم
بالدبابيس واللتوت . وتركتهم سرعى بتلك المروت . وساحت بتلك
الساحة دأماء الدماء . واكتسى عربى العراء بتلك الاشلاء . وافضى
بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت
ثعالب الرماح من كلاء كلالهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة
عشرة الاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم
ربيع النصر . وحنّت من سماجة مراهم وجوه الدهر . والآن الآن
الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت نكباء نكبتهم .
ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام
ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم
وتخللوا • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها
الزواجر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء
والماليك كولينا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايمان النجمي
وبشارة وجريدك وعطفوا عليهم عطفه صددتهم عن
الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر
البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار
بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالقضاء وعرتهم من كسوة الحياة
بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على
اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة الاف
قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد نلت عزتهم وضعفت
قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الواقعة • وثم
لناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد
خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسأله كم قتل • والى
اين وصل فقال: اما انا فما أبقيت • وخضت البحر وما
توقيت • وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم
نجعة • وكان النين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا
اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدا
ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعة ان فرنجيا عقر فجثا
للضرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولا عون • فعرقب
الفرنجي فرسه بسيف في يده • فنزل بجده مستنا في جده • وقتل
ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي • وحل من وسطه ثمانين
دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا • وامتلات الايدي بالاسلاب
والاكساب • وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب • وبيعت
الزربيات ذوات الاثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك
النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجح كل مرام . وبخبر بان عسكريا مجرا من الكفار خرج للفارة على الأطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع النور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنّت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطاقت ، فساءهم ما سرنا ، ونفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري
بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط
اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخالف ، حتى وصل في البحر . كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فأكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالاموال . وحلى منهم بعد عطائها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . واندسغ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان يبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمددهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتيمة . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكريا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشره . وشاع هذا الخبر على السنة الجواسيس والمستأمنين . فاحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدمه من الصواب . ويفتحه في المصالح الراجحة من الأبواب . فاشاروا بإسراع الحلقة . وادارتها بالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتى يؤنس الى الخروج لحربه . فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالي سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالذوبة في يومين . وضويق باهل الصدق منهم اهل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فالكتب مترددة اليها ومنها السباح . والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخرج ، واليها وعنها تعرج وتعرج . واخبار ملك الالمان متواصلة . بأن انصاره له خاذلة . وانه ضعف ووهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسير . واعتاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجناد والاستنجد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمع قطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مستمر على المودة راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الالمانى . وانه قد فجع في طريقه بالالمانى . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقة . ما أضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاء . وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو يذفع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بمابه كاده . وأنه بلغ في اذاه اجتهاده . ويطلب رسولا . يدرك به من

السلطان سولا، فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنوقات

وفي رجب من السنة اندفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجيق . من الرمي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صدقهم صدقها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياح . وخرجوا بالفارس والراجل . وأما بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والاستائر المضروبة الى خيامهم . وخافوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنوقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالأموال . ولم يعرفوا بال الحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه زوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخدموا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريع المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والاستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تذل .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبّت بالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء مضرّة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبوا بعد كل استتظهار . وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواربت الشكوى من البلد أن النخيرة قد فنيت . وأن الافكار باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على الأسطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالفلات . فرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يجعل به قوة وقوتا . ويجعل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السامة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيتمه الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملاها بأربعمئة غرارة قمح . ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت مندونة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكتمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومأنت بالشدوم والحدوم . وبكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعم . وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشبّهه ببطس العدو في البحر . وأن لا يذكشف للفرنج مالها من السستر فتصوروا رهبانا . وصوروا صليبا . ومسحوا لحاهم ومسحوا حلاههم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجازبتهم منبسطين . والقوم

لجهلهم لا يشكون انهم من اهلهم وذسوا الحادث وأنسوا بالحديث .
وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها
نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه
طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سد فوقها . وقد عقت رفقته .
وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب
الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزا البلد بها
شهرًا . ووجد منها لكل كسر جبرًا . يالها من لطيفة قضينا منها
الارب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه
الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملاوها بالغلات
واصناف الاقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها
عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنته
بعد الفقر . وتمادت الايام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع
امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء
يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لا يبقى لنا ليلة نصف
شعبان قوت . ولا شك ان كتاب اجلنا الى هذا الامد
موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمث القلوب والمث
الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولا يخيب
من رجاه . ولا يضيع من استرعااه فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع
عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام
واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواربها الحسان
وخفت رواصي سواربها الثقال . وذكرت بقوله تعالى: (وهي تجري
بهم في موج كالجمال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعام .
فما يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فما

تراعت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيتها . واحاطت بها
تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهي تشق عليها وتشققها .
وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منها البر الإيمان الأيمان .
وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبالها الرعان . وعبرت والكفر
خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثر . ووصلت
الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها
غمة الثغر . ودفع ما ألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التي
أدركت الأرماق . وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلاف .
وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان
لا يبقى لنا شيء نقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينما
نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هذا الهم متذكرون . اذ ظهرت
العيون بالقرة . وللقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر
مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنها
جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشعر الفرنج بها
فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقاربها وقربت من
البطس شوانيتها . وقويت في البطش أمانيتها . وحمى مافيها من فيها
من الرجال . وهي تجري بهم في موج كالجبال . وكأن جواربها
عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك
الأعلام المندشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصدقات الى
نوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة
موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شاني . وكانت
كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالي . وجازت والكفر خزيان
ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصولها أوان
انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغلاتها . وأزادها .
وعصمت أرماقها . ودسمت امرارها . وقسمت ارزاقها . واشبعت

جوعها . وشبعت صدوعها، وأنالت آرابها . وأزالت أجداها .
وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت
من الفرق . وسكنت بعد القلق .

وعاد اليها بعد الغسق أسفار الفلق . والحمد لله المغني بعد
الاعدام . المنني السني بعد الاظلام . المذفي بأوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والذفقات الى عكا
ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضميئا .
يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معه
الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتورته اسباب المتالف
والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما في طريقه
من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار ومعه من
ذفقات الاجناد وبائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمح له خبر .
ولم يظهر له اثر . فظننت به الظنون . وماتيقنت المذون . وكانت له
لاشك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهي مجملة محتمله .
فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهب حق
اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه
احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب من حاله
الناس . فلم ينهب بنهايه الذهب الذي صحبه . وظهره الله من
الرجس وعنه انهب .

ذكر وصول ولد ملك الالمان الذي قام مقام ابيه الى
الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالمانى ولمل حادثه ، ومااداه اليه من دواعي كفره
وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشرين

رجب . ولقي في طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب . وانن ضعف خيلهم . بضعف ويلهم . ووجدت لهم مابين اللاذقية وجبله ستون سبعون فرسا قد عطبت . وعلى اعواد عظامها سواد الغرابيب خطبت . وقد استقبله المركيس . وقصده التانيس . وان يهديه بضلاله الى الطريق التي تؤمن طوارقها . ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقتها . فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان . ووصل خبر وصولهم في سادسه الى السلطان . وحزهم من شاهدهم في الطريق بخمسة عشر الفا . وسمعا في حزمهم بالقليل والكثير خلفا . ثم انتقل في البحر . الى عكا في موضع الحصر . ووصل اخر النهار سادس شهر رمضان . بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع . ولم يحصل لخرق القوم به رقع . واقام بين جذودهم . كأحد كذودهم . وقال الفرنج: ليت لم يصل الينا ولم يقدم علينا . فانه لو اقام في موضعه . وامدنا بفيضه من منبعه . لهيبت عظمته . وعظمت هيبتة . وارعب روعه وراع رعبه ورجي منا وخشي من المسلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل . وحص لنا جناح نجاح حصل . ووصل في البحر وحده . ولم يستصحب جنده . ثم وصل اليه الاصحاب . وتقطعت بهم الاسباب . ثم رام ان يظهر لمجيئه وقعا . ويبدي له نفعا . ويثير لنفع غلة ثاره نفعا . فقال الام القعود عن القوم . وما بقي الا النهوض اليهم من اليوم . ولا بد من ضرب المصاف معهم . واني على الخروج اليهم لادفعهم . فقالوا له انت ما ارثت وهج قتالهم . ولا اثرت نهج نصالهم . ولا حربت بحربهم . ولا كربت بكربهم . ولو حزبت بحزبهم . لاصحب جمادك لجماح صحبهم . فأبى ونبا . وشب الشبا . فلما عرفوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سهله . قالوا له: نبتدىء بالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجل كرجل الدي . وخيل اغصت الوهاد والربا . ومرجوا في المرج . وطووا تلك المداير طي الدرج . واشعلوا الخرصان في ليل النقع عوض السر . وقربوا من تل العياضية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها الحلقة المنصورة الناصرية . والعصبة الموصلية . فلما

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من
خدودهم الى الجذور . واوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور .
وانبعت بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من
اعناقهم الديون . وطيرت ياطارة السهام الى الاحداق بهم
الاحداق . وخاطلت الاماق وماخطأت الارماق . وصار كل سهم
شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من
خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان .
فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتت . ونيول الذق تنجر
وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن
الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفرة .
فاعرضت بالوجوه المتذكرة . وابنا بالانوار المسفرة . ومر الالمانى
متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبه متكلمما . وقد عاين
ماعاناه من العناء . وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء . وبلي مما
بلي به من البلاء . وعلم ماجهله . واستصعب مااستهله . وذاق
ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتل رصعه لو تم صرعه . لكنه
تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه . وتاب وماثاب . وابى
الرجوع الى اللقاء لما أب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره .
واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة
المينا عظيم الشأن . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد .
وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين
من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابرزوها .
ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب رأي رفعوا
راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ادهفوا غراره . وعنان
عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها وعقله
معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس

صاريه . لا يطاوله طود ولا يباريه . وقد حشي حشاه بالذفت
والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان
والتصق بشرافاته . أعدى اليه بأفاته . ورميت فيه النار فاحترق .
واحترق من الستائر والابخشاب ما به التصق . وتساقطت النار على
مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه
التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب
يسري فيها الذفت ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن
التي لنا بالمينا وردوها . فتعدي عدوانها . وتثير وتسدي فيها
نيرانها . وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللاشر
مستمدون . حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من
الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج
المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس
ماقدروه . واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا .
فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري
وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت
بطسة الحطب من ورائها . وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت
على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا .
فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا
وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه
ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشيع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قذاح الرأي في مكر مكرهم .
وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . مذفرد عن البلد في وسط
البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في
المينا . واذا لم نوثر بمجيتنا تأثيرا فلاي سبب جينا . ومن حديث
هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعِد والرجال قـ ويناه .
وبالجرخية والرماة والزرايين والمنجنيقية ملأناه وبكلاء الله
وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا
على نيل غرض منه قدرة ولا حولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا
فيها مصقلا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها
بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريفه . وصعد
الرجال اليه في تجايفه . وتعَبوا في ذلك اياما وشبعوا أثـ وثيقا
واحكاما . وهو بمـ رأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه .
ويستجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بذلك البطسة
زاحفين . وعلى ذلك السلم بعدهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج
التصقت به قوارير النفط . وتوات امطار البلايا من الجروح
والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في
البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي
الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول
النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور بينه متناصرة . ودلائل نصر
اوليائه متظاهرة . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه
بالحطب . وعملوا على رأس صاربه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى
له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه
جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور .
ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت
فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحذار الفرار
وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب
والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فاهب من مهب
لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على
الوجوه الرؤوس . وتدس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح
التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا
ورغموا . واخلف ما عزموا وزعموا واشتغلوا بملء بطس لهم
شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوا .
وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها . واذوها منها
وقربوها وكانت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق . فانزل الله الفرج
وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتدة . وانزلت الريح عليهم
وعانت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة للعانة
خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بطس اولئك
الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطربة
الاناييب مستهلة الشاييب

ذكر الكبش وحريقه

بعد تعب العدو في احكامه وتدسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للفوائل غائلة . في رأسها
شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طول رمحين كالعمودين
الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فكم سور اذا نطحته
طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهذه الدبابة في حياة
الخرابشت الكبير وقد سقوفوها مع كبشها باعمدة الحديد . وكملوا
لها اسباب الاحكام الشديدة . ولبسوا رأسي الكبش بعد الحديد
بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم
يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليها دليل . وشحنوها بكماة
المصاع . وحماة القراع . ورماة الحديق وكساءه الحلق . وعفاة
الحذف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من
كل سرحان لا ينظر الا من جلد ارقم . وكل شيطان لا يقتحم من
الحرب الا جهنم . وكل شجاع لا يعتقل الا شجاعا . ولا يرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولا انتجاعا . فلما استدفنت لهم هذه الدبابه
وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطافت بذلك الكبش تلك القيوس
النبابه . وامذوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها
الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها
وقروا بها اعينا بل اذفسا وقربوها . فجاءت صدوره يزعج مرأها .
وروضه يعجز مرعاها . والة ترووق هيأتها . وعدة ترووع هيبتها .
وبلي البلد من بذوها بالبلاء الداني . وتفاشت وتعاشت دونها نفس
الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هذه ماني دفع خطرها
حيلة . ولا لبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن
للكبش العظيم وقطع رأسه . ومن لبناء الحديد ونقض أساسه . فإن
كانت هذه الدبابه دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمانها .
ولقد قامت بها قيامه الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها
مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيله ذلك النيق . فابعدت رجالها من
حواليها . وطردت المطرفين بين يديها . ثم رموها للحزم بحزم
الحطب حتى طموا ما بين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فترنم في
أثنائها عجاج اللهب برجزه . وبخلت من باب الدبابه فاشتعلت نار
ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجاء
الفرنج تلك الليله فباتوا بالبيئات . يطفئون بالخل والخمر تلك الاشعل
المستوليات . فاطفاؤا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن . ولم
يحدسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمداوا
الجمر . احمداوا الامر . ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها .
حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها
المنجنيق . فانهد ذلك النيق . وصوح ذاك الروض الانيق . ووهن ذلك
التركيب الوثيق . ونفذت تلك الدابة واحترقت تلك الدبابه . وخرج
من بالثغر المحروس . بأشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس
الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العبد بالنبش . وحمل كل
من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب لذبح صدره وبرد يقينه حره
واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقل في الة
لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد اصحابنا على عدوهم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم يذشد وهو يذشء ويذشد
جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القناط . وسخط الشيطان واسد تشايط
الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن
الشقاء ادركهم، والشقاق اهلكهم . وأن مدبرهم مدير . وأن ترتيبهم
مدمر . وأن الاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله
ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد
ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفيناه بذيح عظيم) (الصافات :
١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة
يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو
القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه
الاجناد وجلب . فجاء عشية وجد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد
بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر .
وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر
الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من
الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الامجد مجد
الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك .
وقد استصحب غلمانة الاكايدش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم
رونق . وصفاء لم يشبه رونق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو
على البلد الزحف الشديد في الخاق العظيم . جحيمين يلهبون بنار
الجحيم . وتركهم اصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى
إقدام المنهور الجسور . فلما ازبحموا وكثروا . واضطرموا
واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام .
ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا قلباها في لباتهم الحمام .
وزارتهم من الزيارات الجروح . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم
المجانيق بالاحجار . وأننت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وافضى
الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جنة أولئك الخلاق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية
أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد
مشفقة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه
شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض
من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ اقت
الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من
الرجال والصبيان والذساء للتغريب، وفيها امرأة محدشمة . غنية
محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما
استدقنت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه
المرجو . وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل
يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الذفع وعم . وكان سبب ذلك
أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج
الى المريج هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دماء
الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضع الحق وتحقق .
فاحضر السلطان الامراء الاكارم . ورجال الحقائق الضراغم . الذين
هم له أعوان صدق لساعات أيامه . ونخائر نصر عند اعتزامه
فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفتائن
ضمائرهم . واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم
الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون
يدخلهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم
احداق العساكر وانما لايقدرين على القصد دفعة واحدة . الا اذا
كانت أيبيهم . متساعة وأراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل
وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصصناهم حيث
نزلوا ولقيناهم وصددناهم . وأجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه .
فخيمنا هناك على أحسن تهويه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و
رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و
حللنا التلاع والأكام . وركزنا بتلك الأعلام أعلام . ونزلنا لمقام
الشتاء مستعدين . ولأسباب التوقي من الأمطار مستجدين .
وأضحينا على تلك الأطواد موطنين . وعند تلك الاوتاد موتين .
وتسمنت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت
تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال
التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق .
وأنارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهازم
لمراعفها . ونوب اليك بحالها تدور وترويه وتعيد رسم الحفظ
والحماية وتعود والحرب تتناوب . والزحف يتعاقب ، والاقتران
تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاخذ والاعضاد تتعاون .
والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمم . والرقاق بصليلها لشوق
الجماجم تجمم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للاشد
ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في
قرع النبع بالنبع . والدوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل .
ولاكارم الا للكلام . ولاسلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح
والجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . وأضر وأضر . ولاتله حتى
تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكتل بصاع المصاع
وكل . ولاتقلق واللق وقلقل . ولكل داع إجابة . ولكل سماع
اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل سهم في المرام سوق .
ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماة قدعة ، ولكل عقدة
بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب قل ، ولكل غضب عض ، ولكل
ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصيب في
التشجيع ، ومن له جرأة الهيجاء حاج الى الصريخ بالجد
السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الصديد
بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير
صباح الصفايح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل
بلية ، وسر في كل قضية .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وما جرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف ينالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ما طلب غاية في الكرم الا ادرك ، وما كان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للسور ، فلقد كان جارا للكاتب ، بارا بالاباعد والاقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قارا على قلق النواثب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طير الشبا ، وحبه لعقد السوود معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلطف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طيبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في مـوضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه زاهل عن علاجه فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأدوى غصنه غداة قلنا ما أنهى ازهاره ، وما أنضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاثراب الى القرب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وأنن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الفم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصده مغزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الأسباب والامور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الأحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه ونهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له ما استحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأننه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه . ولج جماعه وتعذر أصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطال على المالك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا .
فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغدى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغل ، وأعلمهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال ربوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستنماوا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصابة بعد عصابة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقتضى قراره ، يخبر انه طواه ، الطوى ، فنواه النوى حين التوى ، من حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل ، وكانت الفرارة من الفلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لبيهم في استعثار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاغلاق رماقه من الاعتلال ، فقبلناهم واندقنا فيهم وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فذقوتوا وذقوا ، وأثروا بعد ما أقوا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم
من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعهم ، وعرقهم
قرعهم ، واخلافهم خاف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم
وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد
ونصدق ، ونلي ونقلق ونفل ونفلق ونعز ونعزم ، ونهز
ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج
ونعجز ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق ونخرج ونلج ونلجج
ونضري ونضرب ونفلي ونقلب ، ونجسن ونجنني ، وننيف
ونفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو
ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر
ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونصدي
ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر
ونكسر . فخرجوا في عدد خارج عن العدد ، واستقاموا مع الاعوجاج
على جند الجد ، وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا
على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها
واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجابهما ، وكان اليزك في تل
العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل
العدو تلك الليلة على أبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية
الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الأتراك ، فباتوا حول
القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم
بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على
الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جراند ، وقد استعذبوا
من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب
عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره
مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتزجت زجرات الجاوش ، بنعرات
الجوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهر بقرب
البحر وصفوفها مشتدة مستدة ، والسلطان في القلب كالقمر في
الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند
الخروبة ، على المهاب الحالية والحالة المحبوبة ، ومقدموا
ميمنته ، عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده المبجل ، الملك
الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك
الظاهر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي
حسام الدين بن لاجين : قايماز النجمي صارم الدين ، والأمير
بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لا يرجو منازلته الا من فيه بان
الباس ، ثم بدر الدين دلدردم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طالما
بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على
أنه يطيب نشرها ، وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراؤها
ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام
وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب
الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة
المبيدة ، وسيف الدين علي المشطوب ، الذي نشب بناره
الحروب ، ونصب على العدا منه الكروب ، والهكارية
والمهرانية ، والحمينية والزرزارية ، وأمراء القبائل من
الأكراد ، أقتال القتال وأجاد الجلال ، ورجال الحلقة المنصورة
واقفون في القلب ، لابي الحلق السرد خانفي بحر الحرب ، من كل
فارس فراس ، وهرماس رماس ، وضيفم ضاغم ، وضرغام
غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقصور قاسر ، وهزبر
زابر زائر ، واسد في غاب الاسل ، وقارع في القراع باب
الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الغضا من دم الأقران ، وقار
على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارئ (ان الله اشترى من
المؤمنين انفسهم وأموالهم) (التوبة ١١١) ذقة بوعود
القرآن ، وقارن حج النجح بعمره عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر
الجنان ، وسابق الى حلبة الشهادة ، وسامق على نزوة
السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العدا

عن الهدى بعاسل ، وسار الفرنج شرقي النهر لنا
مواجهين ، والكريهة غير كارهين ، حتى وصلوا الى رأس
النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فانقلبوا الى غربية ونزلوا على
القل بينه وبين البحر ، والجاليشية الرماة منا حـولهم
جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سائلة ، وجرح في ذلك اليوم
وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث، ومانبا عن كثير منهم ناب النائب
الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد
المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء
ناكبين ، ووقفوا على سهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل
مطيف محقق بهم كالاسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا
أن يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة
بالرماة ، والكمأة بالكمأة ، وهم ثابتون ثابتون ، ساكنون
ساكنون ، ونحن نقتول لعلهم يحملون ، ويغضبون
فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم .
وتفريق الغمة بنزع جمتهم . واحدس العدو بالضعف . وانه متورط
في الحذف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض .
ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقن
ان صبح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يصافحهم بالصفاح .
ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام . ويلهبهم بخدمات
الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصمهم ويشويهم . ويفيض على
غدران الاسوايح منهم جد اول القواضب . ويخيض في دأماه الدماء
منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم ماء الفرند .
ويغيط بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند .
وادبروا مولين . وارخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين .
وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون في
مسيرهم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون .
ويتظاهرون في كمون . ويتطالعون في غروب . ويتفللون بغروب .
ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمود . وكأما صرع منهم قتيل
حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم . ولا

يصبح لدينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماما . واسسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروح اذا ابدى له ناجنيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وينار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصدين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجترحات . وكذلك سيف الدين يازكوح أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم . فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقسه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرده بمفخره . وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هري ، واقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد . وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم . والاسد
سائرة بالاسل في عرينهم . والحمية مشتعلة في عيونهم
وعرائينهم . ونزلوا رأس العين . وتطرق بها اليهم من عساكرنا
المنصورة طارق الحين . ولما اصبحو وجدوها بهم محدقة . وبنيران
النصال والمناصل لهم محرقة . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف .
والامر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الاهداف . وما دارت بهم
الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصوب وتطيل وتطول .
وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما
ابصر الفرنج ما حل بهم من العذاب . عدوا الغنيمة في الاياب .
وشرعوا في طريق الذهاب . فعادوا من غربي النهر
راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم
يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهم خلق وسرى في حجب
حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين
هائبين . ورحلوا سحرا خاسئين خائبين . وخيلولهم الناجية
مجرحة . وقلوبهم الراجفة مقرحة . واشلاؤهم من كسوة الحياة
عارية وبالعراء مطرحة . وعرفوا ان حركتهم للهلكة . وان هلكتهم في
الحركة . واقاموا على الضر والزداء معدوم . والبلاء لكل منهم مفرد
وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل . وهم يدعون
بالثبور والويل . ومع كثرتهم قلوا عناء . وضلوا رجاء وذلوا
بلاء . واعتلوا جدبا وغلاء . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين
من مراميههم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصحابنا
وراءهم يطلبون اردائهم . متعطشين الى دمائهم . يرمون
ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا
اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فاندفع الاصحاب
حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحدوا واجهزوا . وقتل في تلك
المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيه متسعير . وطلبوا
بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها .
وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال . ولولا ما نذق من التياث
مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حزب الشيطان ! وله في كل
قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بللاء الائه . ومن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الراجعة . انه رأى ان يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبي رجاله . ومنتجبي ابطاله وخواص اترাকে . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلال جلالته . وفي اقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بأن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضوا وكمنوا ليلة السبت متنبهي الهمة . متيقظي العزيمة . وخرجت منهم عنة يسيرة بعد الصباح . منابية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاماً . واسرعوهم ضراماً . فطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقها . وحدثت سوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سوابغها وشامت صفائحها . وتجردت عن رجالتها . وتفردت بضلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطاردا اصحابنا امامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفوها على الكمين . ووقعوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطق من غرته ان يمضي غرارا . وكانت في مائتي قنطاري . من كل مقدم باروني وبطل داوى واسبتاري . فقتل معظمهم . ووقع في الاسر خازن الملك وعدة من الافرنسيسية ومقدمهم . وملكوا وسلبوا وملك سلبهم . وتقطع بهم سبيهم . وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر اليها . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هناك الاحسان . وجاءه مماليكه يقودون اولئك الاعزة بخزائم الذل . ويجودون بما استخلصوه من ذلك القل . ويقدمون المقدمين من سراة الاساري . وتلوننا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)

(الحج ٢) فقد رضت لهم اللذات وقضت لهم الليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لأخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدھون . وسيوف ذكور تتولد منها المنون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم . عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لايسا . وقد جمع أولئك الأسراء . وما أسعد الله إلا في تلك الساعة أولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما أنسوا فأكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأنن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريديون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليذك لأخيना الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الاسود في العرين . فأنفذنا اليه من مماليكينا سنية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الانفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين وللمنايا الى نايهم مناين، فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واطهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم . وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلال . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم باللثوث . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة اننت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد لله الذي تزكو انعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في الذوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بدشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكننا ما قدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجاسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصاة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السقام ، وساقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديدة بيمته الاثاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود
من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة
والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف .
وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المضيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا للثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج .
والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد
السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى .
وطمر المطر هوائي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط
للجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص .
وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء
يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على
حب الاصطلاء الحيا . واشتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة
المواتي . ومناقلة المناقل . ومعاقة العقائل . ومعاقرة العقار .
ومسامرة السمار ، ومدانة النان . واجتناء الجنان . ومناغة
الفواني . ومناجاة المثلث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف .
وملامسة الطائف واللطاف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء
العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي .
وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل
باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكثرث بكارثه . ولم يحدث امرا
لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره .
وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما
لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما
ظهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد .
ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهد . وقال انما أربأ بهذا الأرب .
وأرى راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله
عنف الثلج . وما يبرد قلبي مع ثقل الحر والبرد الا برد النصر
والفلاح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود
الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها .
والفرنج قد امننت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها
مقاتلتها . فانن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في
الربيع . والرجوع الى مراد الروح المريع . وليأخذوا اسباب
الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في
نصرة الحق للرجاء من اهل الغنى والغناء والمضارب
والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد،وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده . ولقد تمت بأيامنا ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لاولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أربنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكننا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الاصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاه . وسر بفضائل اوليائه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والذقوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والايام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنه . والالسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه الزاهرة متفوهه . والذواطر فيما تمثله ايام الاستسعاد به من مبهجات الائه متنزهة ولاشك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيعه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل
سهم مصيب . وهو المستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب .
وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . وظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج
سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخذوا ساحل عكا من
اربابها واربابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب
الكفر . فاشتغل السلطان بانقاذ البديل الى البلد . من الثابتين في
الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل
ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى
البلد من البديل . فان المقيمين في عكا شنكوا امراضا
معرضه . واعراضا ممرضه ، وكثرة السواد مع قلة الذقة والزاد .
وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي .
واسطولى وبحري ومتعيش وتاجر وبطال . وغلمان ونواب
وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على
الموضع . موهنا عاوندوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في
الخروج رفقا بهم ورأفة . وما افكر أن في ذلك مخافة وآفة ، فقد كان فيه
امراء امرو الامر والافوا الصبر ومانعوا الحصر . واجتروا
وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا
وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكان
المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على
الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم
ويذفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين
ابي الهيجاء السمين . فانه اذفق ما اخبره من الالوف
والثمن ، مستمرا على اذفاق لا تعثره فيه خشية املاق وهناك
ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكاذوا
ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

يذوق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام .
وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم السلطان جماعة من الأمراء
بالدخول . فخدموا على أن يعفيهم بالبذل . فلم يقبل منهم بزلا .
والزم بذل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلای . وقد
بلغوا في غي الرأي الى اقصى غاي . واكثرهم صرف رجالة
المعروفين المستخلصين . واقتنع بمن استجد استخدامه من
المسترخصين . وانهبوا الأيام بالمدافعة . وابطأوا عن فرض
المسارعة . والملك العادل هناك يحدثهم ويحضهم ويحرضهم .
ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من بخل
عشرين اميرا مقدمهم الاحمد . سيف الدين المشطوب علي بن
احمد . وامر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين . ليحضروا
لقبض الذفقات وكان يحضر الجاوش في كل يوم مئين . ويصبح
نواب الديوان في امرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم .
وبخلهم بالذفقة ويعدونها من المفرم . ومعظمهم من نصارى مصر
ومن هو في نصره النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما
يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم القبط قطب . وفي
الخبط خطب . ولاشر شرك . وفي الحسن حسك . وللمشرك
مشارك . ولدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بالطبع
اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير السوء في
الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاسبون
للم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشح
بما يوجد به السلطان من الامانة . واصنعهم في الكفاية عندهم
امنهم للاطلاق واعزقهم بالحق اقذعهم . واعقدهم للحق اقذعهم .
واجودهم ارداهم . وأضلهم أهدهم . وهم متفقون فيما بينهم على
الخيانة . مختلفون في الظاهر لابتداء الصيانة . وكان يحضر هؤلاء
لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشونهم بخطابهم وينفرون
بكلامهم . ويقابلونهم بالجهه . ويعاملونهم بالنجه . ويواجهونهم
بالسوء ويسؤونهم في الوجهه . ويشبثون في طلب الضمان .
ويشترطون مشترطون

الامكان . ويطردونهم بقبيح الزجرة . ويكسرونهم في صحيح
الأجرة . والسلطان يجود جود السحاب . ويأمر بالعتاء
الحساب . وبجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصحاب . ويقول
انفقوا ولا تخشوا اقلاقا . وانهضوا الرجـال خفافا
وثقالا . ولاتـؤخروا شـغل اليوم الى غد . امهـالا او
اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولا نفلا . ولاتعتقدوا ان
لنا اهم من هذا الشغل شغلا . ونواب الديوان على عادة جهالتهم .
وعابية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . وما دخل الثغر
الا قليل من كثير . وما صح من البدل الا بعضه . وما قضى حق
الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقوى اسباب الضعف .
وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سنة سبع .
فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لا بدفع . وأقام الملك العادل على
البحر لازاحة علل الداخلين . وراحة قلوب الواصلين . حتى عاد
الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم . واقتنع
البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصلت من مصر بالغلة
بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين
شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جماعتها
ومساعدتها . ونقل ما فيها من بضائع وحوائج . وسلع وروائح .
ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهدهم .
وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بالبطس تشارعوا الى
الملتصم فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر . الى جانب البحر .
فزحفوا زحفا شديدا وحملوا جنودا وحيدا . وأتوا بسلالم
لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهم حولها كالمعصم في
السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضيق متصادمين .
فاندق بهم السلم المنسوب . وسطا بعصابهم المعسوب بها لنصب
سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا
كؤوس المنايا وتساقوا . ورأوا غمرات الموت فزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه .
والقوا الأجل كامنا فثاروه . وتواثبوا عليهم تواب السباع على
الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياح نار القراع . واطالوا بشبا
العوالي للعوا في باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون
الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم
المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على أعقابهم
ناكسين . ومن حسابهم ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ما عرا
من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائم بثقل الغلة . عن نقل الغلة .
وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر ف ضرب
بها الحشف . وأذهب بكسرها كل ما فيها وأتلف . وغرق من كان
فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها
زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر
منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع
ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته .
وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا
اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدروهم
وصدوا عنها بنحورهم . وبذوها بأبدانهم الى أن بنوا ذلك
البدن . وعمرروا ما خرب وقووا ما وهن . وقتلوا وجرحوا من العدو
خلقا . ووسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فأنجلت الحرب
عن طريق صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطلح للعقير قريب .
وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين
قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر
الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل
عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان
بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك
الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد
بهلاكه ألم الألمانية . واندست بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر
الى سقر . كند كبير يقال له كندتباط دافع القدر فما قدر . وهلك
منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم
واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس .
ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا
وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا .
وذكروا انهم وقعوا بحرقاة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج
ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت
تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم
الجلال . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة
فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح .
وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . وفور السلطان عليهم هذه
الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرّموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه
النهضة انهم مناصدون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا
بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة ، وأسلم منهم شطرهم .
وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا
وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهنية مائدة فضية عظيمة وعليها
مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر
وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا .
فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها
اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده
جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ما أظن في الوجود ملكا يسمح
بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسّم
لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه .
وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما
نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي
الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون
ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر
حباله ومعهم ملوطة . مكالة بالاولؤ مذوطة . وبأزرار الجواهر
مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير
قيل انه ابن اخته وهو كبير الشأن . وفي هذا الشهر كان قدوم
القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرفت
المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة
إفضاله لباس الخمول ذو الفضل القابله . واعاد روح السلطان
بإعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه .
وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رأيه بري
رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه .
وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي
ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبه قدري ونوه بذكري
وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي . وسن غربي واسنى غاربي .
واقربي وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان استكتبني
فعثت ونعثت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت به
لأقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولا توليت . فانا شاكر
نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه
للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من الممالك الخواص . ومن ذوي
الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول
مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فإذا هو
الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الآساد .
ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية
المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط .
واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيههم . ولقوا
عوانيههم بعوانيههم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها
وصلت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت الكفر شواني
برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني
مقدمه أمير مبارز كالأسد الخادر لا يصرح الا للفريسة ولا يبرز .
وهو يعرف بجمال الدين محمد بن ارككز ، فشين الشيني وشأنه .
وما عانته أعوانه . وامتلات بالأعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

أركانہ . واضطربت باهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد أثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به العزم الشديد السيد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولا استطاع الانقياد بالطوع . ولا مكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانئ بشنآنه . ولولا أن ملاحيه جبذوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولا تعسر ويسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك أن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم . فقال ما أضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولا يخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا أرضاه . وأراد أن يشركه فيما الله قضاءه . فلما بنا ليأخذه لزمه وعانقه . وقوي عليه وما فارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاده جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى مرهوبا لا يغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع . ولرايه ري وريا . وتديره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية بينا وبنيا . ولم يكن له في الكفاية كفه . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفه . وكان رجل دمشقي بنا بلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى بيناره فانفضلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

المشتري ووثب ووثب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في
خيمته . وفتك به فتك اللعين ابي اولوة بالفاروق . وخرج من الخيمة
كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسالك سبيله .
فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لو لم يعاجلوه . ففجع المنصب
بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد
البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ولزور الربيع ريث . ولل سحب
سح . وللضح شح . وللعين الشمس غص . ولوجه الغيم ومض
ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبّه وغمض .
ولنواجز البرد كشر وعض . ولقص الفصل ختم وفص . وكل صاد في
بحر كانون كزون . وكل ماء بالجلد كأنه زرد مسذون . وللأحوال
أحوال . وللأهواء أهوال . وللأشمال شمول . وما لا قبول قبول .
وللجنوب ندوب . وللديور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا
صبايات وصبايات . وللندي الندي جنائيات وسرايات . وللجو
الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي
الرباب عمائم . وللذكباء نكبات . ولشبا شباط شببات . وللرواعد
رواعف . وللهاواتن هواطف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو
ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفه وعدو . وللرعايا العرايا من
الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابتة في زوايا الثلوج
النازلة خفايا . وللعواصف القواصف عواص غير قواص .
والعارض عارض للهب في العراض عراض . والقوارس قوارص .
والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه .
والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم .
والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا .
ولتجهيز البديل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالازواد .
وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرص ويرسل الى
السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض النواب في ذلك . وإليهم
يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . وينفق فيهم الأموال . والأمر
مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية وذوافح مكرماتهم ذكية . والممالك
الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يفادرون به
ولا يبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد .
ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون
الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على
الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة
في المشقة التي تعدها الأشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة
اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة
صدقوها . أو لقوا غمه كشفوها ، او صرفوا أوجههم الى نائبة
صرفوها .

ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

في يوم الأربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد
صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي
من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك .
فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في
اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملازمي جنابه . ورجال
رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك
المظفر تقي الدين ليتسلم ما في شرقي الفرات . من البلاد التي كانت
مع مظفر الدين . مضافة الى ميفارقين . فصارت معه جبلة
واللاذقية والمعة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر
وميفارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد
ومارين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة
الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء
منها للطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من
يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له
لاسبيل الى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا ازالة يد . فان أرباب البلاد
أكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاهد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متقاعد . فما هذا أو ان مكافأته ولا زمان كف
أفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به
مستغرق وعزنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح
والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي
الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميا فارقين فاذا
أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر
وتقويتها المشتبه . وبلغت المنتهى . وأنا اخل على الشرط وعنه
لا أخرج وأجمع العساكر والى نصركم —ورد في الروح
ومصدر ، وما زال يستسعف السلطان عمه . ويستتره في
تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل .
حتى اخذ دستوره . واستكتب مذكوره . وسار على أنه يسرع
اياه ، ويحكم في العود اسبابه . وانما يلث ريثما يقسم تلك البلاد
على مقاطعها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب .
ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لا تدخل في الحساب .
وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجنود
الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري
الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم
يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير
العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة
منه اربعمئة رأس تلاف منها في الطريق أربعون . غير ما كان
اصحابه منها يقتطعون . وأنه غزم ايضا ابقارا وآب قارا . وسار
بالغنيمة سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة
فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد
فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح
سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من
الفرنج خلق . ففرق في بحر الاسر من لم يسر اليه في البحر غرق .
وفيهام امرأتان سبيتا . وماهيتا بل اهديتا . وشاهدت الاسارى .
قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الاول . خرج اصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعصل . وكبسوه في مخيمه . وخدموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى اسروا من الفرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين . كاسرين كاسيين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي . وفي الأحد ثالث هذا الشهر . شهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت الذوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعيش . وهذا الخصي كان فعلا من الفحول . ناهضا على الكفر للاسلام بحمل الذحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف . فأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصابة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول . مستظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولا جسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوكة والامراء . ووصل اليه من بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمرაკب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحدثية . وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام . وعامت في بحر لياليه وايامه الأعوام . وهو ممسوخ الحليه . ممسوخ الحية . قد بلى مما بلى . وقلي من طول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لداته ولذاته وما عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا زهابه . فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعه . واختياره الضيق على الارجاء الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سبب حركته من سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفرنج راكباً على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسه مرتهنة بذفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأنن لهم في تجريب سيوفهم بجرح الاسارى الكفار . فلم يأنن لهم في ذلك واباه . فأرضى كل منهم بامثال الأمر الذي أباه . ففيل له؛ لآي سبب منعته من ثواب الجهاد المغتتم . فقال لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقره ومجاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سذوره . وجلبه ولجه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقدم في ذلك التاريخ بقدمه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك . وقد استصحب معه مماليكه الترك . وقد ذوى بالمشركين الفتك . واسترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضيه . وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من الحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظماً جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعن

ذلك اليوم من القادمين والمتسبقين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيل تردأ ماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ييمته وبب الذبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لا عرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلمهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباحدة . فقلنا لهم رب صلاف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب .
ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . واقلت من يده وطار .
وحشا حشا الباز الذي نار النار . ووقع على سرور عكا . وحزن
الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى
وما أب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى
السلطان انفذوه . فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من
بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه
الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا
عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمدون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها .
ويجرون بجواربها . وينهضون بسواربها ورواسيها . وينهشون
بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم
عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لاهلها شمل قريبهم وبعيدهم .
فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم لئلا
افلاتهم . واسروهم باسرههم وسبوههم . وبغتوهم من البلاء بما
اتوهم به وبلوهم . وكذسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق
النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم .
ولادوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة
عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا .
واقدموها خرصا . وزادوا بمائنا لوه خرصا . واستغفوا مما
استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من
مغدم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي
سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل الذبل ليمه ، وركبوا باسرههم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل ارهف حد عزمه . وأقضى فيض غيظه الى غيظ حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جد . وناشب القتال . وواظب النزال وقسارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الفلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شدة . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المخرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقريب . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الغزيرة . وسيأتي ذكر ورويه ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجذوبه وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهو ان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكثير خمسة وطراة . ولم تكن لولا اباة رجالها للضيم معتاده . وبحزام القهر مقاتلة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخير من عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطراة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالذقود والذسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضب . والسممر السلب . والحب والجلب . والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والابواش والابواش . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والاحمر والاسود . ودبوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وغبوا . وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدموا وتقدموا . وقدموا سبعة مجانتيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كأنها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجورامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاخ الجدار . منقضة اسواؤها لانقضاخ الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعدة . بارقة راعدة . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال آجنتها . وحنايا للحنين
على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجار .
ومرايع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل
بالفلق على الخلق . مطايا للامنايا . روايا لخباياها البلايا . في
كفاتها افاتها . وفي حركاتها ادراكاتها . وللتعذيب عذباتها .
وللترهيب جذباتها . وما اعظم جنائيات جنادلها . واظلم غوايات
غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحوامي . والهوام
بالهواي . والصوام الصوادي . ودواعي العوادي . وذواعي
الذواي . والنواعب بالذوى . والجوائب بالجوى . والصوائب
بالمصائب . والنوائب بالشوائب . اذا جذبت جذت . واذا قذفت
اقذت . واذا طوحت طرحت . واذا حلقت حلقت . واذا اطارت
ابارت . واذا اقت القمت . فشق على اصحابنا بالبلد شقاقها .
وكادت تفتح اليه الطريق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا
وانهضوا . وحضوا على حفظنا وحظهم وحرضوا . واستنفروا .
واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبا في
العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسير من
كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر
الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب .
ونكايتها في الضر والضرب . وعرف اماكن القتال . ومكامن
الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظل . ذل جمعهم
وكل . وترك الزحف وانفل . واذا عادوا وعدوا . واناروا في الحرب
واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وقطموه رضيعا له
ثلاثة اشهر في غير اوان فطمه . واستحلوا بحكم الجهاد في جنح
الظلام ظلامه . وفجعوها بواحدتها وساعدها . وكذبوا صفوفو

مواردها . وقطعوا عنها فلة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها .
وحرموه در لبها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر
عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . وللخد
خادشه . وللوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد
شهدت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ سلب
طقلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين
ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تجميعها .
وهي نائحة في كل ناحية نادية في كل ناد . نادية لكل فؤاد . غابية في
كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب
هاتفه . والدموع حادرة بتساعد انفاسها . ومن الخلق مستوحشة
لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد
رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة من الذكر
متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونارا كتنابها
ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها .
تبكي ببكاؤها . وتشكي من دائها . وتنشد ضالتها . وتطلب
مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها .
فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينة . متجينة
متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها .
ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضلها
طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقل له انه بيع واضيع . فان
أخذه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق
نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم باذله كيف لم يصنه .
حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما
بصرت واحدا . ضمت عليه ساعدا . ودعت وعدت . وشدت يدها
به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها .
وأسا ما اساء الالى من جروحها وقروحها . وروحها بروحها .
وفرع دوحها . واغناها بغنائها للشكر عن نوحها . وظهر سر
سروها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد
اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ما اشتراه من
مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياميه .

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب النوم بكل حد مرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل السلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاوش حتى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليذك . والزم المقدمين والامراء بحفظ نوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قتلها خرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجئمه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لأجله مضروبة . وصل من اليذك من اخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد اربع وارعب . وأرهق وأرهف . والهى والهدف . وأرهب وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأثار . فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفريسة أسداها . واجرى في حلبة الحمية جياها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوايل . وضرب يرنج اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهرا العلو .
والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعنايه مستمر .
والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم
ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا .
وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وقتك كما تمنته المنية . ورمي كما
حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمه . وللرمي
مديمه . وبالا حجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . والجلاميد
قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق .
فدذوا منه ندو المحنق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه .
وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب
النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم .
واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قدامتسموا فريقيين . وافترقوا
قسمين ففريق يلقي من الخندق مالقي فيه . وفريق يقارع العدو
ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكثير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر
السرو وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكثير . واطهروا انه في
الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشـوانـي خمس
وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه .
وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفوس لوعة . ولمعت لنا من
خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفاس للشرارة متصاعدة .
والسنة للاشعل نضاضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت
الجحيم لقدم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار
شرارها . وأوردت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت
على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم
الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كادوا من أهل النار

ببرهانهم . واتتهم باتيانهم . واضافتهم في مكانهم . وملك الملك
بامرهم امرهم . واراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين .
وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد أبارا . وأثر في
المكر آثارا . وأثر للأشر نارا . وأثار لنصرة النصرانية ثارا .
وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به من تأثيره
وتأثيره (٥١) . وارتابوا وارتاعوا . والتاحوا والتاعوا . وغدت
الأسنة ترجف والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن . والباطل
يخشن . والحق يلين . والدين يبين والسلطان قروي الجنان . روي
الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصحه . كاف نجحه .
مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معاشه .
متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متوكل على ربه في نصره بينه .
متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتروعه المخافات ولا تخيفه
الرائعات . ولا تززع الخطوب طود وقاره . ولا تفض الذوائب خيم
نماره . ولا يلين للأشدائد . ولا يستكين للروائع الرواعد . وكم سكن
الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببركاته ونام الأنام ليقظانه ،
وأمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمه لما
درى . ولارد وجهه عما قصد . ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد . بل
ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستتيرة .
وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض
فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكثير ان جمع كفره للتبتير .
وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة من نحور
أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في
كتائبها . لتحتمي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها .
بخيل تأبى الضيم مثل إباطه . وفخر مثار الذقع يذوب عن لوائه .
ووجه كالمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام
السلطان على هذه الحالة . ساميا في مطالع الجلالة . لم ينض
سلاحه . ولم يخفض جناحه . ولم يركز رماحه . ولم يردع للروع
مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلاها غلة ونخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكى . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكثير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوابية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فأكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن اسدقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشع بالدين أحب الينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها وماتع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وأفترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الواقعة أول حادثة للوهسن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الاسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلاس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون
الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع .
وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير
الذفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد .
وتدبو عن الاحراق وتنبهي عن الاخفاق . حتى بدرت قارورة انقضت
على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسمهم في
الالتهاب . فعونناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم
وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر
انفاسها برد النفوس . وكشف شعاعها ظلم الكروب . ونزعت
بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور .
ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها .
فأحرقها الله أحراق أهلها بنزوبها . وكما أضاعت الافاق بنيرانها .
اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد
الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد .
فجلا حريق هذه الدبابة صداً لقلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة .
وأحمت نارها في حماية الحق حماية حماة الحقيقة . فانما احترقت
الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتاً لتلك العطسة .

ذكر وقعتات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو وق
الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العدو بالنفائس
والنفوس . ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا
من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته .
فعلمنا بزحفه . وعملنا في حثفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا
لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم
لا من حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر
للجرد . فضفاض السرد . قضفاض كالاسد الورد . مشتااق الى
الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والاكاييش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب .
ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العرباب . وكل
ثمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة
المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا
وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره .
وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم
السوابح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى
بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق
الشاكى . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبة . وسهامه غير
مجعبة . وسيوفه غير مقروبه . وقبايه لداومة اجراء فيه غير
مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب
جذفه . وأبيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله . واشتبهت في الذقع
الوان خيله . وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله . فكانما غارت
الشمس من شمس شمس فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في ويل
الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم .
وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى
وصلوا الى القدر على ائافيا . وهتكوا وفتكوا . وادركوا
وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا
بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلمهم يحتمون ويحملون .
ويعلون من دمائهم وينهلون . وبخل الظهر وحمي الحر . فافترق
الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر
البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت
من أشدها واجدها كريمة . غير انه في هذه النوبة عرضت نبوة .
وكانت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي
سوابقهم . فاندشب الحرب . واستجر الطعن والضرب . وكثرت
الجراحات . وكثرت الاجترافات . واستشهد ممن عرف ممن
المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل من المشركين
جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الواقعة . أن رجلا من مازندران من اهل
الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأنن وقت السلام على
السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الواقعة استشهد . فلقى الله
بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا
وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا من جانب البحر أطالبا .
وتحزبوا في ذلك الفضاء أحزابا . وركب السلطان من مجالس
عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبرة العدو
وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت . وجحمت نار اقدامها وما
احجمت . وما زالت نجوم النصول تذقض . وخذوم النصور تذفض .
وعيون العيون ترفض . وبيون النحول وحقوق الحقود تفتضي وابكار
الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغائب ،
ونكباء لها من الذوايل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوايح . وشرب
بكاس المنية منها الهج غوايق صوايح . وغبراء اسود نبالها تتوايح
عن عقارب القسي . وتعالب لهاذم صعادها تتلاعب في أراقم
السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبان راياتها
تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابقها تفيض عليها جداول
القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهب . وارواح
اغماها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضارية على

الردى جريه . حتى نخل على ليل الذقع الليل . وجرى من نيمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيال الخيل . وأفرج المازق عن قتلى جرى عليها من السواني النيل . واستشبهت من المسلمين بدوي وكردى . ولكم وقع من المشركين رددي . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقودسه (٥٢) . وتفرق الأفريقان عن المعتكك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواطع يفرين . وطوال غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقاهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويوافقه القضاء في المضاء . وكل معتقل للرئيني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل للمشري خضيب الغرار ريانه . وكل ملثم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا امامهم . وأثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) وأعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب نوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان زكرا أنهما لأخت ملك الانكثير وأنهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها زوجة صاحب صدقية فلما هلك . صادقت في الاجتياز بها أخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقد راما النجاة من ذلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فأكرم السلطان وفادتهما . وأجزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلخ الشهر ذكر عن المركيس أنه هرب الى صور . وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبأ قبوله . وانقطع وصوله . وكان سبب نفاذه . وموجب استشهاده . ان هذفري كانت زوجته ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسواء في هذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجته الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة . وبقيت هذه زوجة هذفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولا بد لي من تقويم هذا الامر حتى لا أبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا . وأحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حباله الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء ملك الانكتير تظلم اليه هذفري والملك العتيق فاذفتح بذلك له إلى مؤاخنة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قر . وأخذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار . وقد سد بسواد عيده النهار . وأفاض ببياض حديد الانوار . ومقدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السيد . والالمعي اللوذعي . والكمدش الكمي . والنقاب الذقي . والعف الذقي . وهو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية . وأكرمه السلطان في استقباله بذفسه واقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر مماليكي النيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبيه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني جمادى الآخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة الوفرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى لقاء اقاربه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الدوري والسياف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانيين . الفر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبتها . فركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بأساده في عريسه . مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والتراذك كواكبها . ونقع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه . وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه . ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم البحر بل الغدداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وأنسة بانبساطه . ونظمه مع اصحابه
في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حباچه . وخصه
بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايلق به من كل باب . وانصرف
عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة
رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها
الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جانية . وقد علمت
الوقائع انها لثمراتها الليانة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فما
نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها . وابرزت لعينه قناها
وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسيها . ثم جاءت والقيت
بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف الولد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه . واسلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليها بأفاته . واعانت جـ_____وانبه مه_____دومة .
ونواجهه مهتومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد من عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخلا بالهم عليه الخلد ، وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بها فيالقهم . ونحن لا نالوا في الجهاد جهدا ولاترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكثير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق رأسه وحلق لحيته . واستلقى لانتظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسكنوا وسكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانسداد ثغره .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجذود الانجاد ، ووقف
اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم .
وعظيما خاطيا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح .
وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريمة
ناهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفا .
وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الامر وأزر وعضد . وظاهر
واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع
ملوكهم وكذودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم .
واستصرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا
منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى
بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمهرهم . واخذوا فيه ذقوبا . وحكموا في
الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد
اشرف . والعدو بخندقه محتجز . ولفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن
جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر
بلطفه . ويجريه على المعروف من عانة نصره وعرفه . والمجاهدون
فيه قد هانت عليهم المهج . ووضع لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل
يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الذلم . ويجلون عنهم بما يشبون من
نيران الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد
ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي
من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الأصحاب
الى الأصحاب . ويكفي هذه الذوبة الصعبة فهو كافي الذوب
الصعب .

فصل في وصف عمار الدين

وصلت العساكر التي وقت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى
جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيح . وماجت موج البحار في
غير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . وأملت
بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من
جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجه . واستظهر الاسلام
بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر
باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت
مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتاماها .
وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماله وغيائه . وابعث امداد الظفر
لاحتزاز نصل نصره وانبعائه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكة
وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في
حصر الثغر ونصب آلاته . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب
من الضرب . واخذ منه مواضع في الذقب . وقد اشفى على خطر
عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى
في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني .
ونهبوا المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل ما يقدر
عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الاظهر والجد
الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى
نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فلا عذاراوقات ، ولا
يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات .
وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا
المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالوا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عنيه يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكثير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . او شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليتين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكره مذهب رد . ولحديثه في الخلو مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لا يفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد برسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الأرب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . وبخل وقد أخذ امانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكثير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر للافرنج عليه واحكام . وقال الامور مفوضة الي . وانا احكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفانني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاده . وإن دامت بينهم الحرب والمعاده . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . وأخذ من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهبة بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة للموازاة . فقال عندنا بزة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائع روازح ، ونريد طيرا ووجاجا (٥٤) تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها للهبة على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزة في طلبها حجة . واسلك غير

هذه المحجة محجة . واذفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث . فقلنا انتم طالبونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعه اسير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصل الى السلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسالتهم تسافر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثة . وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسائل تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالات الرمي بالمنجنيقات وتسوية المنصوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعفت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقوى . كي يثوى . واهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة الذوب ولقلة العدد والحجر هاتك . والسهر ناهك . والعمل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشاق متعبه . والاحوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقات تنصب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصب . فلما اشتد الزحف . وزاد الضعف . احتاجوا الى رجال المنجنيق للمقاتلة . والتناوب على المنازل . وهناك ظهر ان العدد لا يقي ولايفي . وان القليل لا يكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البديل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتداء في الاعطاء جلب في الانتهاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بما عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم . وطرق اليهم بوابثقهم . ونهب من خيامهم ما تطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا . وامسى السلطان تلك الليلة ساهدا لم يذق طعاما . ولم يستطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخاوف . وكل من للضرب في جبينه شامة . وللعن في جبينه علامة . على خيل كأمثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :
في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس . وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهايته . ولم يبق الا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئا . ولم تنجحوا في الذب عنه سعيًا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولا قوة الا بالله لانملك لانفسنا ضرا ولا نذفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغرة من تلك الثغرات افرنجي . كأنه جنى مستشيط نجى . وهو يدافع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقه لجسمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كأنه مما نشب فيه الذشاب

القنفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصمائها وتدمي . فلم تنزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرج . وقلة البذل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ماعاملناكم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى ماؤمنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مما ليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، وأغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه) (التوبة ١٢٣) . وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالغرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله . فسواه ماباله . وعمره بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا مذكوسا وربحا في دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم الأمر الشاسع . وجأؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فذمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعة . وانهم خرجوا لله وله عن الطاعة . وانهم جذبوا عن بذل الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاعة بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين . وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرناش بن جاولي . وهو شاب أول ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر . ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة يشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ ارسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل . الأفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعبد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم . وعابيا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العوبة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الأسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم السور في مواضع الذقوب . وعظم
الخطب . واشتدت الحرب واشفى البلد واشرف . واشتفى العدو بما
فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى
البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه
يسوره وخندقه محتّم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتّم . ولما
عين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخطر . وانهم قد اشفوا على
الفرر . فر من جماعة الامراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه
فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم . وباءوا بوبال
غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم . وماأرهب قلوب
الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من اصحابنا الكرام . قد
استحلوا مر الحمام . واجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من
الاعداء اضعاف اعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية
اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا
واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم
وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الذقوب ، والله
تعالى يسهل تذهيس ما هم فيه من الكروب . ونحن وان كنا للقوم
مضايقين وبهم محققين وعلى جموعهم من الجوانب
متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون انهم ان
خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب
ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ، والله قدر
لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايفالب في
حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطاقة في
دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم
الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس
وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمث بالشهر والشهب ، واختضبت البيض وتألّق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نقيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجات راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . ونشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتدود عقبانها العقبان . وصفاح يصفحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم اللين قايمان النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاله . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز اللين جورنيك ومعه من النورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفسهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاصر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهقة على عدوه اسننته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولاذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الأفرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد اذس الفرنج به لترديه في الرسائل نحوهم في سالف الازمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالا يدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فانفذ السلطان الملكين العادل والافضل . ليفصلا المجل . ويجملا اذا حزا (٥٥) المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر ، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدمه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسددوا الثغر بصدورهم . وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقطع جانبا . حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعادة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصليبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببذور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الاتي الى القرار . وطلعت في السور المهودوم . طلوع الاوعال في فـرج الأوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصـخور المدهدة ، وفرسوههم فرس الاساد المخرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افطع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحمالات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخرج سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه ، وأعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى ذقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في بيار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هذه الغاية لو لم يكن الله في عونہ ، ونقل الذقل تلك الليلة الى منزله الاول بشـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلفها على ماتم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صابرا على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مفتـم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم ، فعزيناہ وسليناہ ، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعابها عداہ ، وقلت له ان ذهبـت مدينة فمما ذهب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشـتها بعد الحادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعة من بقاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسولا ندبه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملامة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسارى وصليب الصليبوت قبل خروج الشهر ، وان تأخر شيء من ذلك يقينا تحت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الأكابر وفأوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقائنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون ، فتقبل السلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكا هذه الرسالة
وسيرت بها كتباً

قد عرف أمر عكا وأن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكلكلة . وحفل عندها بجذفة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحر نحوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارا . وبرد الماء

بأهل النار مستحدين من ماء الحديد الجامد نارا . وتوصل
مراكبهم كأنها الاعلام السود . والامواج ناشرة بيض اعلامها .
مالئة جبالها بأكامها . مزجة اصباحها باظلامها .
وتتنافس ملوكهم البلباغية . وطـــــــــــــــــــــــوطـــــــــــــــــــــواغيتهم
الطاغية . في الورود بذفوسها وذفائسها . والوصول بما نقضت فيه
كنائن كنائسها . مستخرجة ضماثر خزائنها . مسخرة فريضة متاعها .
مسرعة الى معادن معاطيها . وتردد بقناطير أموالها . وجماهير
رجالها . ومساخير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من
برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقاتلون
أبراجها بالابراج . ويسومون جدتها بالانهاج . ويرومون علاج
كرامها بمرامة العلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افواه
خنادقها أحجارا . ويناجونها بألذسة المجانيق الطوال . ويطيرون
إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا . ويدبون
اليها للمضايقه خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعاقرونها
من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها
بكل منجنیق عظیم الخلق . كانه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات
الدواهي . ولا تدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي .
ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفاً . حتى
يعود نافرههم للمنون ألوفاً . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه
المدة . سوى من هلك بالضائقه والشدة . خمسين ألفا قولاً لا يتسمع
فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة .
والحالـة في تحقيق قمعهـم وتفريق جمعهـم جاریه علی الوتيرة
الحسنه . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث . وتحديثوا في
الحادث . وثاروا للثار . وزاروا بالزار . وانبرى ملكا افرندسيس
وانكتير . وملوك آخرون دبّروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجأؤا
في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر
منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها الذیول . وحملوا فيها
الخیالة والخیول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطاسة كأنها
تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر من البر والبحر . واحباطت
بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسوار بالأسوار .
والظلماء بالانوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل
الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق
كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم
عندها القيامة . وكل سلم لا ترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن
الفتح منها بالحدف . وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي
الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور
وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستتر عن طوارق البلاء
بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولا يدخل إليه لضيق
مسالكه . وهو متحر متحرس . متستر متتـرس . عاص على
الهجم . عاص على العجم . لا يقتحم سده . ولا يذئلم حده . ولم تنزل
الحالة تتمادى والواقعة وليدها لا ينادى . والمدى يتطاول . والمدد
يتواصل . والقضية تتراعى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر
صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون (٥٦) . فمن مستشهد
عدله الجرح . ومن مستجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام
عنه . ومن نازع في القوس نازع منه . ومن متعرض للموت خوف
عار عارض . ومن ناه عن السلم أمر بالحرب ناهض . ومن ندب
فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج
الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا
وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم
يتمكن من الوجود . والقيام للانخان في زي القعود . وكاد البقاء
يودع الباقيين . والمذون تلاقى الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض
المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر
وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من
الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في
العزيمة . ولا نجا له إلا في الهزيمة . وجنب أمثاله من الجبناء .
وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب
على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف
قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم .
وما يرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة
وملافة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على
الخدانق التي طمت . ورمي في خروقتها التراب ورمت . وطرقها
العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى النور . وهجم على
السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر
بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت
مرايهه . وكثرت ندوب نقوبة . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو
بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى النور . وهجم على السني
بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره
حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مرايهه .
وكثرت ندوب نقوبه . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب
فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد
باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة
بذفسه ولقي الوحشة بأذسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله .
وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقبابون يوسعون
ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون
ويفارقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعانقت الاسياف
فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم
قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاذ الشرك أيما
أنجاد الايمان وأصحابنا لا يهولهم الهائل ولا يميلهم ألى الحذار
الجدار المائل . ولا يزعهم الخطب الوازع ، ولا يردعهم الرعب
الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون
بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو
نثروه . واذا نهضوا له اقعده وعتروه . واذا صعد اليهم حدره .
واذا بادر اليهم بدره وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور
أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثمها جثمانا . وما زالوا
يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون
ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع .
ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بالسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون
بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفايح . ويتماشون بمراح
الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح
من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن
الستائر الى الستور . ومن الطوارق الى الطرق والسطوح . ومن
المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من
المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . ويقايا طرائح .
ورزايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوق وضرائح . قد
فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي
القاسية . ورشفتهم الظبا الضامية . ولا ينهض قويمهم من الكلول
ولا يفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد
أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت
من اسوارها . وأزحمت العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة
على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعاذي
الواغل . أن القوم مستقلون وللموت مستقبلون . وأنه لا طاقة له
بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون
ولا يبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على
الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما
هانوا . وما وهذوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما
استكانوا . ولا مرد لما فيه الله من المراد . ولا مدفع لحكمه في البلاد
والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما
غاب المعين . وإن ارتاب المبتلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح
المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم النيجور فلا بد أن يسفر عن
الصبح الدجى . ولا يشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم
السرى .

فصل من كتاب الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام يزد شذو ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد للرد عنها مكاييد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مفسوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة . وإذا أفكر من خذلها . وما أخذها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . وأخينة إغفاله . وحاشى أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضيا . وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . إلا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل بينه بالنصر . والمردى بمكره أهل المكر وما هذا أوان الوني . بل هو زمان استنتاج المنى . فان العدو الخادر قد أن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل
تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من الكفر في البلاد والجزائر . وماقصده إلا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنجة ممن بعكا ومنا بين .
الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا
ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا
برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه . وكلما اوقدوا نارا
للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولا كيدهم مجال ، ولم
يتسوق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين
الف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم
بالردى . وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم
بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا انهم هالكون ، فاذا هم في نهج
القتال سالكون . وهم حطب نار الحرب . وطعم الطعن
والضرب . وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة . وحصلوا تحت
العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السنة
اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد . وقلنا هؤلاء قد
بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد . ورأينا أن نجدد
للبلد البذل . وأن نسد ونسد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه
أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل زمر مشيخ وكمي بطل . فخرج
هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك
الجذب تلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه . وحمى
جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه ومافيه
كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت
ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع
لهم نار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة
وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وبأس واقدام . وناس
واقوام . وحشد ملأت به سفنها ، وأخلت منه مدتها . ووصل ملكا
افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما
ورجلهما . واناخا بكل كل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما
وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة
هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على
موضع واحد . واهبطوا حجارات السور بكل حجر
صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والاسور بالنقب

والذلّم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي
الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الذلّم أعلام
الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون . قد
سدوا تلك الثغر بذقوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها
مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلفعوا من
وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم . وتشكر
ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقه بطعنهم
وضربهم . وهم يواقعون ويواقعون . ويكافحون ويلافحون . وكل
قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت
رجله . وودع الجنة في لقاء أهل النار أهله . فخانهم بعض الأمراء
الجبنا . وأخذ للحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى
البلاء . وحسب النجاة في النجاء . وهرب في بركوس قد اعده لذلك
اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب
أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه
قلوب الباقيين . وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقيين . على أن
الأصحاب ما أنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب
بالأضراب . وما زالوا يواصلون بالقواطع . ولا يرتاعون
للروائح . ولا يريمون مقام المقام . ويطالبون من الأرواح
بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى
الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن
أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير
مستطية . ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم
تكن عكا بالممكنة للعدو ولا المذعنة . وأن ذهبت المدينة فالدين لم
يزهّب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل
الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك . وانما نبه الله بها
العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات
الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته
وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا
محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . ونوسعهم الردى في مضايقتهم
ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من نخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما برز الا من واره من بطون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم . ولا يرومون ان يهجروا مجثمهم ، وما أنسوا بمرايض المضارب . الا لذفرتهم من مضارب القواضب ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصاف ، وأونة بالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعترضهم اين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونشيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمنون له بارزة . والعزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي . ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمره المحتد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السابك في نار الوغى سبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لاشك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبة الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ما صرف الله قلومي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلومي وكلامي . وعرف شيم مخايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري .

وما أجراه الله إلا بأجرى . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه .
وما ضيع أحسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا .
وما عرف إلا بعرف . فما صرف إلا عن صرف . وما سفارته إلا في
نجح . وما سفاره إلا عن صبح وماتجارته إلا لربح فهو يمين الدولة
وأمينها . ومعين الملة بل معينها . بمدايه يستمد أمداها . وبسداده
للتغور سداده . ودوائه دواء العضلات . وبعقده حل المشكلات .
وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطعة قط هوائي القطوب . وببريه
برء الأمراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي
الأمجاد للإنجاد . وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون
الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من
لا يعينه . فخذت على عكا من وقوف قلبي عنها . وكان قد الهمني
الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه الطيفة .
والعارفة الطريفة .

ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلخ جمادى الآخرة . خرج الفرنج من جانب
البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج إلى الآبار التي كان حفرها
العسكر . فحضر الكؤوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر
وانهض السلطان إلى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار
غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل
شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتغير الشمس من نسج
حافرها نقابها . في غلب كالقواضب . يروون القواصب . وطوالع من
الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على أبطال الباطل حماة
الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق . وانهزم
الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين أسوارهم وحالت
عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعلا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل
على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت
تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسعروا نار
الحـيد والهـبـ-----وا . ونظم-----وهم
بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت
سيوفهم بالاعناق والطلـى . وحلت من حياة العدا الحبا . وبخل
القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثـيرهم وأثار
عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ
يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن
رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة
المستأجرة . واخبروا أن ملك افرنسيـس صار الى صـورـه ورتب
الدوك نائبه وولاه الامور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد
ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه
ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراه رسـولا
بتحـف تليق به . يستخرج ضـمائرـه فيما هو من اربه . ونقل خيمته
يوم السبت العاشر الى تل بازاء شـفر عم وراء القـل الذي كان عليه
نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلي الذي اخلاه عاطلا . ومازالت
الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى
احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلـبوت .
ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجـل المضروب والوقت
الموقوت . ووقع الخلف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل
الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم
على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل
الرهـن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع .
والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم .
فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن
السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان
فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا
خلاص اصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في
الحال ، بصليب الصلـبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهى الترم الاول . وجاء الرسل وابصروا
الاسارى حضورا . والمال موزونا موفورا . وظنوا ان صليب
الصلبوت قد ارسل الى دار الخلافة فليس له وجود . فسألوا
احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقروا به
شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخلاص
اسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرهم . ولاحت امارات
غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخرج الفرنج الى
ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكثير
الى خيمته . ومعه خلق من خياله ورجاله .

ذكر غدر ملك الانكثير وقتل المسلمين المأخوذين بهكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجب ركبت الفرنجية بأسرها
وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجدفها وحفلها .
وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفذ اليزك
وأخبر السلطان . وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة .
وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا
اسارى المسلمين . وفي الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلوهم
بأجمعهم . والقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العسكر
وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسع
فيهم خرقا . واستشهد منا كردي حميدي وبدوي . وكلاهما من
الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلما
انصرف العدو الى خيامه ، وركد الروع بخار قتامة . شوهد
المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسوا من حل الجنان
التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم .
ووصفوا في سبيل الله موافقهم . وما اكرمهم رجالا . واحسنهم في
الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر
الوفاء . تصرف السلطان في ذلك المال . وبسط فيه يد النوال .
واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربابها . وترجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد للحاجة اليهم .
فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصليبوت الى الخزانة . لا
للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد .
والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم
الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا
ولا صادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها
وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من
الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقليل لالسلطان .
ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبايه .
 واجتمع بنابه لاجالة قداح الرأي أصحابه . وسع سحابه وصح
حسابه . وحكم فأحكم . ويرى فأيرم . واستشار وأشار . واستنار
وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا
العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك
بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كيمونه . وغرته عكا فطمع
في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه
جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته بابه . وثوراته عابيه .
وزكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه .
واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب
الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى
مواجهته . واغرينا أسنة الاسنة بمشافته ومشافهته . والان الان
الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى
الاسعه . وابرز من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في
طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار
لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب .
فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتشيا . ويقصد
الاساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق
اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه .
وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير
من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من
المخارج والمواقع . وكشف المواضع التي يلقي فيها العدو . ويؤمل
بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا يذقسان تلك المسالك
ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . وتتخذها لمبار المرام مبارك .
ولدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على اماكن
ومكان . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على
اللقاء والقراع . في مذاهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول
عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا
سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد في اعترائهم
واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا لاقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران .
واصبحو على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض
مضطربة والسماء محتجة . والقباب تقوض . والعياب تنفض .
والجباب تنثل . والهضاب تنثقل والذئاب تعسل . والزغف
تفاض ، (٥٨) والحتف يخاض . والخيول تسرح . والسيل يمرج .
وذوائب الذوابل تنتشر . وانبات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء
يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخدق . والبوارق تألق .
والدودو . والجوجو . والحديد تبوج . واللعيد تموج . وقد ثارت
الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء .
وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان
تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغردت بوقاته .
وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت نيوله . واصطحبت
خيوله . وبرقت لواامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه .
ومضت صوارمه . وحالقت العقبان الى مطار مطارده . وتألقت
الخرسان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردا الضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوايح يموج على شكائهما اللعاب .
وغدران سوايح كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السباب . مقودة الجنايب .
معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالأقمار في هالات التروك . وممالك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهايات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العرب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب
مستعصمين . في مسروبة الحلق . مسدودة الحلق . تهقر عنها
اللاهزم . وتهقره اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولا يصاب . ويعيب الاقران ولا يعاب . من كل ناصر للحق على ضامر
للسبق . خارق للذقع راقع للخرق . فاتق رائق للفتق . معنق الى
الضرب ضارب للعنق . وفيلق همه فلق الهام . وجدف ملتهم
لجحف اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رجب الباع .
خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواجر . فزرات القساور ،
وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماضي بعبيق العبيرو كانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
الحفل . فوقف لهم وقفاً أثمرهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم . وقصد تفريقهم . وسطا على
أوساطهم ، ونادى بابراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن
أوائلهم وسدد سهام المذنون إلى مقاتلتهم وأرهق إليهم الأجل .
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخل وانخل ، وأوقد ناراً على
أهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
ونفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحداً . ومتى تتدفق مثل هذه الفرصة لو ارى لي

مساعداً . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل للسلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فآنز روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عابيا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الأفضل قد بذل وسعه . وأوضح في الجد بشره . وقتل من
وصد-----لت اليه يده
ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهم على
ما فاتته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض
بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في
النصر . ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الامراء
والممالك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جريك . واتفق قولهم على
ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم
مدد . لم يبق من الاعداء أحد. ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت
الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخلف
فيها من العدو الفاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره .
ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين
وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان للمشورة
بحضور اوليائه وامرائه . الاماجد الاجاود . والفرنج لما وصلوا الى
حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من
نواجز النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم .
ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى
الملاحه وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحووم .
وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد
الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل ياباليلة

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا .
ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك
البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة .
واقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف
للقاء الفرنج بحضه وحته كل عزيمة نابية . واتى مرارا بأسارى
خطفوا من موافقهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب
ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض
الاسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم
وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلك بين عكا
وحيفا اربعمائة فارس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو
انكم كبستم كبستم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية
لا استدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل
سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن
حذفه بظلافه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده
وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل
شعبان وملك انكثير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى
النار . واقيناهم من بواترنا بواتر القبار . وقد رحلنا في عراضهم
لاعتراضهم . وتعشيرهم في طريق انتهاضهم . وايقوا يوم رحيلهم من
اليزكية الزكية كل ذكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم
قطعوا ساقه العدو عن الحاق بمقدمته . وفلوا عن الحلة في الحركة
حد عزمته . وقتلوا خيلا وخيالة . وفوارس ورجاله . وقدروا
وتمكنوا . وجرحوا فائخذوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا
قطعوها . ووقدوا نفوسا قلعوها . وغنموا اقمشة واسلحة .

وحصوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهر حيفا
وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في قلوبهم السيف . فأقاموا إلى هذه
الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم • وإراحة طليحهم •
وإثارة ماركد من ريحهم • وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم •
عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم •
فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع
شمطنا لتفريق شملهم ، وما يجده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة •
ولاعدائنا من عبطة • الا ونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى في
نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في موافقنا شيمته وتروض
مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية بيمته ، ويغلو في سوق رواجه
من الدين ماظن أنه رخصت قيمته . وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثار
الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تأمل عرف أن الخطب
عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد
المقيم وسيقتضي بين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء من اخبر برحيل الفرنج
السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحة الجرد طائرون
وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهام . وقد انقسموا
ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله محفوظ . وبأعين القسمين
الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقدم من الليل
بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بالعزمات ،
رواض الجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللثم بالنقع والدجى ،
ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم
بجمرة الظبا ، على نزاع يذقلن الردى على صهواتها وصواهل
يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظلام بجهاتها . وبارين
الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من
رجال الحلاقة المنصورة كل سابق الى المنون على سابق ، وكل تائق

إلى المازق مازق • وكل طائر في الغبار على سابح • وكل غابق
بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطيه إلى
الرقاب ، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجتري عليه
ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي • وتصمم وتصمي ، وطيور
السهام تقصد من الاحداق اوكارها • والأوتار تزدشد بالارنان
اوتارها • وهم في لباس حديد سد على السهام المنافذ • واشتك
الذشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهها
غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحدودها . فحللناهم
عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى
الفضاء . فيدخلوا من تمكنا منهم تحت القضاء . لكنهم ارتابوا
وارتاعوا . وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا الى
الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سارين .
وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزمهم ونهزمهم ونحفزهم ونحزهم .
حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتذلمت الصفايح . وتحطمت
الرماح . واجرت الأنهار الجراح . وجرى بالأرواح السماح .
وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا
على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا
يرجون . وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم النوازل
نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطاعن
الضارب . الباسل السالب . الغضنفر الهرماس . الفارس
الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، وا قدم
اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسمع متنصت .
ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متالفت .
ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لا يروعة الروع انا حفزته عزمته .
ولا يهولة الهول اذهمت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصافين على صافنه . ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنانته الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا من برزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف للكفر كفها . وبكر للنصر زفها . وانف للشرك جدعه . وذي انف للفتك صرعه . ولبه للفضفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية للمدقشمر طنت فيها انيه صفاحه . واجفان للاقران نبتت فيها اهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل ما أجل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصائه خانته . وما صانه . فعثر به في حالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لنقل الحديد للقيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في أسفله ، وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة ، وعنينا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتظر ما يكون من خبر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحتهم ، وكذلك ماملهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقاة اليزك ، مستيقظا للحفظ والدرك ، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، كبوا وبغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شدة ، واسر ثلاثة ، قبل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها بير الراهب ، ومضى السلطان جريئة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاخذاق به من أمامه وورائه وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الاول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكثير

كان في اليذك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتهم واصطلحتهم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : مالذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الأسعاف والأسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخطل القتسام وخرط القتصاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالطات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هذفري بن هذفري ، فلما سمع ملك الانكثير ماراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصبح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيال الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، وأصحاب الجحيم ، وأقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفــــــــــــة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وأنجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل أفعوان ، وكل أرقم في جلد أرقم ، وكل أزرق أشقر على أدهم ، فأحدثت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بذسور ضـــــــــــــوامرها الأرض الى الســـــــــــــماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألتهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . التترك على الاكاديش ، وأحدثت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت ببيضها لمعاذقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وأفضى ينابيع النبع الى أعجال الاعلاج ، فإن الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعازقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب ، وقربوا من
ارسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق
خناقهم ، وحاق بهم ارهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم
بالذشاب ، وشبت نيران المرفهة في أولئك الأوشاب ، فاحتملوا في
جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي
مسترخصا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا ان
البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه من
الذكاية غير محتملة ، فحملوا على الاطلاب المنصورة حملة واحدة
زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلثها شوارع القنطاريات عن
مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه
النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة
الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن
لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح
اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة اردتهم
وردتهم ، وصددتهم عن الاستتان في جدد تلك الحملة
وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت
بالعراء لهم أشلاء ، واخذوهم طعانا ورماء . فنزلوا في ارسوف
وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت
على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسد
العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت
عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمي في موضعه الاول ، وكانت
العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو
اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر
ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر
العوجاء ، واقام العدو يوم الأحد في موضعه ، منكوبا بتعب
تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه
ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالذوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم
حتى وصلوا .

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من
عكا

وسلكوا في مواضع مالىذك عليهم فيها سبيل. ولا لقداح القراع في
مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل
المنيا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومن المورد الى
المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض
ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعدوا بين
المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه ، وفي
كل مرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازلهم ، وأوردناهم الردى في كل
مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم للحمام
في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغدي ومقيل ، وطريقهم
على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال
ولا يتهيأ قتال ، وكالما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهفنا حدود
العزائم والصوارم وأرهقناهم ، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر
فيها يبور . ودائرة السوء على اهله بنا تسير ، وماء اهل النار
بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخر موعده في
نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شغلهم ، وشملت
نعمته لنا بتبديد شملهم ، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم
اليزكية الزكية ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنية ، وكان الولد
الافضل يومئذ متولى اليزك . فتولى اسعار لهب المعتك ، ووقف لهم في
المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن
اولهم . وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك ، وفك
وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهر حيفا لما
دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عسكرنا وقد
تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعر عن السهول . ولم يبق اليهم

نهج للوصول ، وأقام الفرنج في ذلك المنزلة أياما ، وقد نالت معاطسهم أرغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحسوا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصلهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام الى مقاتلتهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فـإذا لـزوا بالمنازلة ، ارتـزوا الى المنزلة ، ولأذا وهم أهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعابهم شاكين في منتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، موفقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم الذشاب واعجزهم وازعجهم وأخرجهم بكثرة الزكايه فيهم وأرهبهم ، كابرُوا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شاربوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاءوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الاطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعـدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنـها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتـحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طلبه ، وكر عليهم في حربه ذوي الحمية ، والانف والابية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في الذوبية من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفة وتلافي ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى باسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها وربطهم بالاسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة الزكاة وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحلة ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امران الخيام به تبني ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الامر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل نخائره ، ممن كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقوا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنباً متجنباً . وقد راعتهم زوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فدخلها اتباعاً لمرادك ، فحينئذ لم يجد بداً من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية اثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذيوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلل ، ولا الى ايدها شلل ، ولا الى حدها قلل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفقتها واستحسنها واستلطفها ، ورأيت سورها قبل فصرم سوارها . ونورها قبل نيول نوارها ، فمما رايت احسن منها ولا احصن . ولا احكم من مكانها ولا امكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاطوار والاطوان . وساءت اسواؤها .
ونأت انواؤها . واناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء
المعاول في مغانيها المعولة . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناخت تلك الذواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف .
واخافتها المخاوف . ونكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف .
ونعتها الذواعب . ونابتها الذوائب . ونزلتها الذوازال . وغالتها
الغوائل . وسفقتها السوافي . وعفتها العوافي . وختل مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوة . وصوحت
مجانى مبانيتها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طولها واستوقفت . وأسيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكى تلك الربوع . وأهديت
لسقياها الدموع . فلقد اصاب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من ساكنها .
وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرملة . وتفضيل جميله
باد على التفصيل والجملة . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأسيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبته من
مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد
اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
وصل صاحب ملطية معزالين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقيه الملك العادل . وجاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضاهرة . فانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خياله متذكرا . ليكون لحشاشة لهم وخطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقد . والطعن في لبته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل بـه واسره . وافلت اللعين وأخفى أثره . وقتل واسر من خياله جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النظرون . وهي قلعة منيعة معجبة للظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وقل غربها وثلماها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع . ولا شتا ولا صاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفلت منه السيوف . وتحللت به الصفوف . وتمحضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدا الجهاد . وانضاهما الطراد . وفري جلودها الجلاذ . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنذر من رنة الحنيه . وأنة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاربيها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من النفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وهدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما الذشاب فانه قد فني . بعد ان اتخد من اخشابه جميع ماوجد واقتني . وقد عدت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن . وانفضت منه ومن كل ماينخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومايجري معها من بلاد الاسلام . يبيرون ويبرشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدمت من حبيدها المعان . وخذت من نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مسترهب في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرتة ومعاقبته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماچار . فهو يحضر تاره بنفسه وأونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جده . ويواظب بعده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد ملك الانكثير من المراسلة والرغبة في المواصلة

وصلت رسل ملك الانكثير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في المواقاه . وموالاة الاستمرار على الموالاة . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهرة . بالمصاهرة . وتردبت

الرسل اياما . وقصد التثاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامراة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعزالدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب . وما اخرج الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمال الغرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . وراحة الجملة . وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضم . وصالح عم واصلح اذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع يذقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع الذشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجهوها بالعذل والذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئتنا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابي ابينا . وان اتى اتينا . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحن لاختلاف الدين
ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطلبت . وسالت
بعد ما سألت . ونزت بعد ما نزلت . وكهرت وكانت شرهت . وكانت
اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه
القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير
والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في
الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع
بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها
وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام
العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير . وصغير بصغير . وبشر
اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقدير .
وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى
سارت اليهم بكره . وحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة
ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه .
وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه
بتقريبه وتمكينه . وويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل .
ولسمو منزلته بذو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن
يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين
يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته
منافس . ثم تفرق الناس بانس جامع . وعرف شائع . وعرف
ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو
ومواقفته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في
تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقداركب العسكر

للقتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة .
خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج
العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا
عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامامهم .
وناشبوههم بالذشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب
الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة
واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم .
فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة .
وكانت مسعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان
مايخلو من وقعه . ولا بد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة
المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمذوا
وامذوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا
عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على
عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحب . فركبت اليها من
الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت
العرب امامها . وحققت انهزامها . وما قدرت على قصدموضع
الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانيين دون العرين .
فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من
سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا
باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم
ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن
انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم .
وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار
وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفافة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني . وجاولي الغيدي . وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسبان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخييل تقاد اليه . والاسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لآخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهرها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليتفقد الاسارى الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة الماركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحدقاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى الماركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تالونه الا على المعهود وكلما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعلائه . وكلما قال قولا رجع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفي خان ، وانا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنظرون . وأقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صاحب ملطيه مودعا وركب السلطان وسار معه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصادق مائة الف دينار . ومضى وقد حصل على نخائر من استبشار وافتخار . واستبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها . وخيموا في اقطارها وسهوبها . ولم نشك في انهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منها زوايا ، ولنا في كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالى الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحدت الأوعار . فعزم على الرحيل ، وأمر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبل العصر . وقد نشر للسلطان لواء النصر . ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه . وذوى بها الاقامة . وشرع في تحصين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجة في قبة الصخرة . وضجت الالاسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وأنن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم

الظنون وتزايد السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة .
تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليك
قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصحبوا الا حصنهم
المجنوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها
وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا
ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعى كريمه .
وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من
العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة .
وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة
على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة
الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه
الخاص . وصلى الناس في القبة العيد حواليتها العراص ، ثم
انصرف السلطان وقد بر عمله . ودرامله ، ووفراجره . واسفر
فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج
بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في
الجهاد ولا يقصر . واخذ غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغالا .
وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا
بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج
النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم
الحروب . وزادت الكروب وضائق عليهم الارض . واستولى على

عقود عزائمهم النقض ، وأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم
البلاء من الجوانب فمصاصوا . ورحلوا الى الرملة
عائدين . وبالسهول من الحزون عائدين ، فان الذلوج دامت على
اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل
في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس
الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضع في النصر
من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سورهِ واعادة روضته

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم
خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب
الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في
الصخر . وقد سرفهم بذققة . وجعلهم من الاحسان على ثقة .
واصحبهم بعض حبابه . ونداهم بندي سحابة . وسير مع المندوب
مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد
بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم
السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سوروثيق وأحضر
من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد
ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من
المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت
ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق
يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبته للقدس
المعمور . كان أمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من
المخوف المحذور . وقسم بناء السور في مواضع على اولاده واخيه
الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحضر على بنائه .
ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بذفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلmani واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستتجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحدود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيش المتراذلة المترافة . والجند المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهائلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الارواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضى الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماربين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع ما بها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في بيار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدا به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر بيار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيئته ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مضافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الآجام من زاره . وازورت من مزاره . وبليت ذلك البلاد
ببلائه . وهابت الأعداء هبة أعدائه . وزلت الأقدام
لاقدامه ، وانخفضت الأعلام لاعلاء اعلامه . نفي عدله من جبل جور
جبله الجور ، وأنهب بـنـهايه اليهـا فــوـران
الفتنة على الفور ، وبخل قلب قلب ، وحكم في عاداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق
بانن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همتيه ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمه أمته ، وما أرجأ له نجح رجائه
رجالاه ، وما أبطل له عن اعانتة أبطاله ، وأجناه ثمر الطاعة
أجنائه ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجائه ، وجـر عـسـكـرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بـتـرا ، وصـواهل
ضمرا ، وانهض كمتيه وكلماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغائه ، وسمانه
وغثائه ، ومثانه وراثته ، وشباعه وغراثه ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجـومـه ليل
العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الأكام بالأكام ، وضاهى الأعلام
بالأعلام ، وأنكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهوايها قد
ملأت الوهاد ، وأنى الى الأساد الأساد ، وأغرى بالجلاد
الاجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماجه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المراز ، وجالت
الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعدت
السهول ، وانقض القضاء ، وانقض القضاء ، واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى
السماء نقعا ، وحدثت في وجه الفلك ترابا ، وحدثت الأتراب الأتراب
طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى
الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خادره ، وانتشار
بوادره • وانتهاض قوادمه ، وارتكاض صلاذمه ، وانقضاض
شهب قواضيه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصطفاه
من الأنجاد الأنجاب ، وفض على الفضياء سحاب
الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على
العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل
لحق المبطل مدق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الاقران
القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المذنون ، وكل شجاع
اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدم قوادمه عوائق الوقائع ، وكل
طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائق ، مخلوق بخواني
الخوانق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل ذمر مشيح بالذمار
شحيح ، وكل قاس قدوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف ، وكل
صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد
رجاء الرجال بأيابه ، وقوى عزائم اوليائه لأضعاف
أعابه ، ورغب بالرغائب وأملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه
المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم
مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمير يرشف ظلم
القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال
الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ، وكل من ينال اعتزاز
الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل
بها اذا فارقت اغماها المرافق ، وكل من عنانه في يمين
الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهرية
يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب ، ووجه صوارمه تبكي
وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه
ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي ، وكل اشعث
الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيطمي • أباء
حمي • مجرب محرب • مقرب على مقرب • مظهر على

مطهم • جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حلیم تحمد في
الوغي جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلاته ، وكل
بحر مستلثم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لا يفس
حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط ودلوا استدرک
الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى
هزيما ، ولوى هشيما ، وأغزم العسكر التقوي سلاحه
وخيله ، وجر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر
بالمك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا واصحاء
كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريقاته جناحهم ثم رحل من
صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها
فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح
مقلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن
حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه
قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى
ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها
الأمداد ، واروى فيها من عزائم الزناد ، وجاءته عساكر أرزن
الروم منجبة من جده ، موجدة لما لها من موجدة ، تقدمها الملكة
ماما خاتون بنت سلق ، وكأنها في الاهبة والابهة من ملوك
سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجذون ، ووافقته السعود ، وخافته في
غاباتها الاسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد
وتوطأت وتهيبت وتهيات ، واستننته الممالك القاصية ، وأطاعته
المقاصد العاصية ، وتشذفت له مسامع الأقطار بافراط السمع
والطاعة ، وعم الامحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله
مجاة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلات الطرق
بالوقود والجذود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينما هو في
غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه
حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني
وزيادة الامـال ، عن زيارة الأجـال ونزل المنى عن نوازل
المنون ، وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب
المكتوم ، وأدرکه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عهدده وانقضى ، وكنتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده يظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلاظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل قمى لاحضاره وجرى الامر على اثاره . وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فياله من حسام أغمد ، وهمام ألد ، وركن وهن . وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف . وبدر خسف . لقد غامت الايام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدا وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ما ذكره ، وذكر في المكارم سيقه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لحني النصر مشهورة ، فقطع الاجل عليه طريق الامل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وقله ، وما زال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه، وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه ، الى السماء فاعتقلته ، ووجدته في اوج الفلك في النيرات فذهلته ، وماكان انكاه وانكاه ، واصحه واصحاه ، وابهجه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شقيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصاب بعد ما اصاب.وجواد بلا حساب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسلطان الى الانس به مستنهما ، فعرض له مرض استأذن لأجله في العود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ما طلب ، وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجة ، واستقام على المحجة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غباغب ، وستر التراب منه المناقب ، ووصل الخبر بوفاته الينا يوم الخميس ثامن عشرين الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصالحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغرل بن ارسلان تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنة ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنفذ السلطان من كونه تحت حجره ، وبحكم نهيه وأمره ، فانه لم يكن له صاحب ولا غلام الا من عنده ، ولم يذفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ، ودام غائبيا في نواحي دامغان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل به عنة من ممالك

بهلوان الخواص ، وسلوكوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سلكه ، وقويت يده . وتأيدت قوته . واجتمعت كلمته . وتكلمت في الامر والنهي جماعته . ورهبه قزل ارسلان ولازم نعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء وممالك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام من مكرهم بنقض . وقالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهم بحضرتة وهم غارون . وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون . فذفر منهم كل أنس . وحفظ نفسه من كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على ممالك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل ارسلان فأزعجه . وأخرجه من دار ملكه وأخرجه . وأجاس سلطانا آخر موضعه . وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضاه بالاسم . وأجراه على الرسم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قربه بعد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشدت في النهب لشدة النهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبث العدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصول إلى الامير حسن بن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وأزره وضافره . وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه . وحمى جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتى يصلحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقارباً للمصالحة تحارباً . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل ارسلان به وبالتركمان . وعادت الفتنة ملتعبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرح اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبس في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والأسماع • فاتسقت له المملكة •
واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف • وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • وقدوا
أيدي الترايبية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن أصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته
والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في الحال • وأجرى عليهم القتل
والاغتيال • ثم عاد إلى همدان وقد قوي وروي • ونال ما هوي •
ونشر من أمره ما كان طوي • وجلس على سرير الملك وضرب الذوب
الخمسة • ووجد بعدم من يوحشه الانس • ولها ولعب • وشرب
وطرب • وغفل عن القضاء المشتبه • ونام عن القدر المنتبه • واغتر
بالعيش الرفه • وحلم عن الخطب السفه • وبات في قصره • وقد غاب
في سكره • وهو بين خدمه • وحشمه • وعسسه • وحرسه • وعتقائه
وأرقائه • ومستخصية • ومستخلصية • فوجد على فراشه وهو
قتيل • ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل • فذسب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى • والله أعلم بما به
حكمه أجرى • ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون
أربابه • وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه • وجمع له ملكه
ومتعه • ومضى أخوه نصره الدين أبو بكر إلى انزيبجان وأرانيه
سائقا إليها واستولى عليها • وأما السلطان فإنه أيس منه • وسلا
من كان يواليه عنه • فتعصبت له امرأة متولي القلعة ودبرت في
خلاصته • وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياصه •
واستعانت بمن أعانها • وأعلت بإعلاء شأنه شأنها • ولما برز بخل
مدينة تبريز • وكانما الكير أخرج الأبريز • ثم جمع ومضى على
سمت همدان • فلقى قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان •
فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همدان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا . وفي حلبة المكارم جريا . ومن الخيانة في ولايته برياً . ومن العار عريا . ولم يزل زند مضائه وريا . وكانت له سياسة ورياسة . ونفس ونفاسه . ورأي وفراسه . وفطنة وكياسه . ومروءة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المني . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الآن ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله . وذلك ما فضل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشأن ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طيه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولداواته بالشفاء شفاه ، حتى حان اجله . وخان امه وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكراها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا أنكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهرى العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الألم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

أدلت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبتني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجح في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه وأحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقفا واعطاه في بنائها الوفاء فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ السيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقتها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبذلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق بخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء . وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والخيرة ورأيانها من أحسن المدن وأحصنها وأحكمها وأوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الاجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجبين .

والمؤمنين المعين للبين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكل كاله . وحفل بجذله وبرزالي الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمة ، مقام الانبياء المرسلين ، ومقر الاولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشرار الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الاوان رفض التدواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والاداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الامر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انقاذ الجصاصين بحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ، فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده والان الشيد بشده ، وثلم الحديد بذلم الصخر وهذه ، وهذه لاشك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدة ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العداة ، ولعدو انتظار لنجدة بحرية وارتيقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لا تفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت مذشور حسام الدين
سياروخ النجفي بولاية القدس .

وكانت ولاية مديسر الله فتحه ، وحقق للأمل فيه نجحه ، واطلع
لليلة النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه .
وصعاب اعماله وشعاب احواله بنصرة آرائه ونصرة الآئه
مروضه ، وقد استتاب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه
وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس
وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى
عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان
الأمير سياروخ بالقدس مقيما . وللنظر في مصالحه
مستديما . ويضم من امره ما يراه مذشورا ، وكتبت له في التاريخ
المذكور باستقلاله مذشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى من دانه من الكفر
ونذسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي
اوليائه الموحدين وطهره وقدس ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة
الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من
الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على
نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه ، ومهد الشرع
واسسه . وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى آله
 واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى
مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذفتح الله لنا بيته المقدس
وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيا من ايامنا وجه
الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا
به الحظ الاجزل الافضل الأكرم الأنفس ، مانزال نطلب وليا لله
يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايشاره
حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتديبره الكافي ما انخفض من منار
الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحبي به من رسوم الايمان

ونجد من معالنه ماضل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد
اختبرنا الامير حسام الدين فالفينا لاهلية هذه الولاية
جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه
بأعباء الامانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا
ماخضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس
وأعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام
اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل
مناجحتها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها
وعماره حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع
اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من
اناس ابني الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى
والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة
وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم .
وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل
ما يحله ويعقنه . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل
يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسائة والسلطان مقيم بالقدس في
دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد
قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء
سور جديد ، محدق به منيد ، وكان يركب كل يوم مصح ، مشمس
مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الاكابر
والامراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيت وهو يحمل حجرا في
حجره . لعرفت ان له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية
الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره
لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالك به الصدور ، وما
تغلو دار يبنينا في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها
وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب
وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل
الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمار احسانه واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلباً لايتأتى قطعة . ولايتها بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلب ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلود ، وصفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرج جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكاسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاqa يعقد ، ورواقا يمهّد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقرر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج

تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل ما في الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال يذفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فيإنفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولافيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيهه . وقهر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي
اقدر السلطان على ما عجز عنه الملوك. وهذاه من الفضل الى نهج
ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان
ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعانة عمائرهما ، وكان
سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض
اعمالها ، مجيدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكثير عصر يوم
الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد بخانا على البعد ،
وما عرف ما عنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة
وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكيسة وقد
بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم
مجمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا
نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد
القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر
هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى
ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو
شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج
عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ،
والفرنج تباريهم ، وساقوا اذقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على
الاقدام اقدامهم . وما فقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا
الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت ذوبة عظيمة دفع
الله خطرهما ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب
السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه
الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد
والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل
على سرجه . واستوى في نهجه . والناس يذقلون معه على خيولهم .

في قفافهم وندبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك
الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه من الامراء .
فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك
البساط . وكنت قد مضيت فرني . وبتقريبه امديني . فلما فرغ
وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صلى هناك الظهر وركب عائدا الى
داره . آيبا بآثاره وحسن آثاره . فائزا بسرور اسراره وخير
اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جريدك تجرد في سرية سرية . بارية رقاب ذوي
الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم
على يبني . وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثني عشر اسيرا .
وخيلًا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جريدك . وعسكر
القدس وجماعة من المماليك . على ظاهر عسقلان . ووافدت
بتناصرها على الكفر الخذلان . وغنمت ثلاثين اسيرا قيدت في
الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت
على يبني وكمنت . وصبرت الى ان استقرسلت الفرنج الى الطريق
وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكسبت وكسبت .
وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمالها
واثقالها . ثم اغارت على يافا فقتلت وقتكت . وسفكت دماء
وهتكت ، وعادت بالغنيمة والسبايا ، واستغنت بذقودها عن

الذسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت اعناقهم ،
واوجب ذلك للباقيين في المسير اعناقهم ، وعادت سائمة سالبه ، غانمة
غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين .
واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان
يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتذقه وتلقاه
بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى بآياله لها
احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة
الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ذلت نابلس واعمالها لمصالح
البيت المقدس . وتشيد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على
ولده . وتركه في تصرفه ويده .

ذكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي الأسرى قوي الازر .
فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار
والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع
ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ،
وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك الماركيس بصور

اضافة الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى
رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجлан . بل نئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما وبخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزانه جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرهيقين ، فالقوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكثير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهم اسباب التأسيس ، ثم علقا بركابه ، وفدكا به ، فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فياله من كافرين سفاكا دم كافر . وفاجرين فدكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم منكبا منكسا . تحكم ملك الانكثير في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . وبخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجه . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها . وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من يذنب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركة ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكثير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعد عليه ، وننزعه ما اخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكثير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المريكيس سكن روعه وروعه ، ونهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب ليه ، واستوى امره ، واستشري شره ، وكان قد تعصب لمضايعة المريكيس للملك العتيق . فظهر له ود الشفيق الشفيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداه اختلالها . فلما هلك المريكيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عابيته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جنونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخائلتة . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامة . فانهم يعتقدونها ملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقى في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبساليره والنخائر والرجال ملية . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان تردوا مرارا اليها . وداروا حولها وأشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . دقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم ونابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقبها . والى النخائر فاضرمها والهبها .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عة
يسيرة . وكانت هذه الذوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم
يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء
يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس
رابع عشر الشهر . وقد اندسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا
شديدا . وتركهم بحد الحديد بيذا . وغادرت حبل قصدهم الجديد
جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم تريدا ، وقتل منهم
في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا
مفلولين مذلومين . مخذولين مهزومين . مذلولين مهضومين . ثم
رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين .
وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم
السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم
السبت الثالث والعشرين نزلوا بقل الصافية ، بجموعهم الوافرة
الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنظرون .
فأرجفت الاسنة بانهم على قصد القدس على حسب تـراجـم
الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهم البلايا . وظهر
السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ،
وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة
والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم
ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسناهم دفعة بعد
دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدرد كان في اليزك ليلة الجمعة
التاسع والعشرين . فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا
من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على
النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا واسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم
السبت نزل الناس اليهم وقتلوه في خيامهم ، وألهبـوهم
بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت
اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز
اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في
طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا
وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة
لاهل القدس على الكفر واهله ، ف ضرب العسكر خيامه على بلبيس
مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهاى لمن تأخر عن السابق
الحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم
الاغترار ، وللعديو اقدمهم الانتظار ، وعنده بجـ واسيسه
الاخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع
من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكثير ركب في سبعمئة فارس
وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع
مقاتل ، ولا يدري اي جانب قصد ، ولاي نائب رصد ، وجرد
السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه
الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق
البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا
بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم
العسكر المصري فلك اللين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل
والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرفون الفرق
والفرق ، وترك الاحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الامنة
ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف
بالخويلفة ، والاماني تغره بالمواعيد المخلفة ، ونادى تلك الليلة انا
جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى
الصباح ، فـ اغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا
مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشاق الصبح

بالصدمة الشاقة والخدمة الحاقة ، وعاق ابن نكاء بانكاء بنت
الداهية العاقة ، فجاءهم فجأة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط
الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة
الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بسأمنه
سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما
يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على
وجهه . وربما كرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة
حصانه ، واسلم اخوانه وغلماناه ، وانهم زموا نحو
الأثقال ، فاقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع
العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية
وعاد معظمها الى النيار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق
الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار
جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة
عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات
روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجفت
المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم
وينهضهم ، ومن المال ما يبطرهم ويحرضهم ومن الآن
يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند
مسلوبين ، ومذكوبين منهموبين ، فسلاهم السلطان عن
أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ
بثأرهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملا
العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والاقتال ، وحلا لهم
ما حاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل
غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار ونيار بكر متباطئة في الاتيان .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضي قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جـار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الاسرة ، بساية على صفحات صفاحه نضرة النصر ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افأويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدمه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب للترحيب به صـدـره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مائلا ، وهـز عطف الابتهاح اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل ما في يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولا نوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العرب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي يندشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لأفضله ، ولائذا بجنابه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مـروضـا ماحل بأنواء آلئه ، فـاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة ، وتكفي المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعه بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجهه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر ، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الاول من جمادى الاولى . وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتبه ، وبلغ من مرانه الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرزقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأذس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكثير صوب عكا مظهرها أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة مامنه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

القصد ، ودبروه من الكيد ، أمر الملك الأفضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت وبخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكثير وسار وخلي وراءه الليار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهاز السلطان فرصة الغيبة ، وأوقد الى مساعرجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا انتظار العساكر ، ووافي يافا ووفاهها بـكيل المنجنيق أحجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ ما بها وكسح ، ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمّعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتلا البلد الكافر بمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حمايتها الأمان ليكونوا لها مسلمين. وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا. فلن ان الغنيمة تصدوا. فانه خرح البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الاسار ويسلموا جميع المال والعنة والنخائر
على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا
وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا
الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عينوه
من الاقتراح . وما زال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة
وتدريس خناقمهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكثير في
البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو والقلعة
من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل
في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولانفع بعد فوات
الفرصة للندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على
توهمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونقضت رقعة تلك البقعة .
ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت
الايدي بغنائم تلك المدينة . وهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد
ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنية . وقتل من
اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من
مقدمي القلعة سيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان
القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها
ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد
بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المأمود . وانما وقع
التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد
الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت
بعد الاكتاب . وافلتت وقد وقعت في الحباله . واستقلت بعد العثرة
والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . وانن نشاطهم بالفترة
وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان
وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه
الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمدار الوجوه .
وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر
وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح
يؤس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت
قداحه وحاز السنى قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر
ولحقت اوائلها الا اخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيّه
في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم .
بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة
والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع
الشميل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجتراً . والقدر قد اسعد
والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو وذهب الكدر . وتلك البرية
قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمات الجارية والكمات
الجرية . والاعراب والعرب . والمحارب والحراب . والاجاود
والجياذ . والاساود والاساد . والبياض والاسواد . والعدد
والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة .
وافاويق النصر على حفلوها تارة وبكثها اخرى مستدره . والحرب
سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن
حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء .
والحادثة متصله والواقعة مستقبلة . والنعمة من الله في اجراء
اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عادته في قمع عادته مؤمله . وما
ينقضي يوم الا عن نصره تتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع العدو يتبدد .
وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخذ للسيف من حده بدم الشرك يتورد .
وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه
الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . ونوبة
مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم
يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم .
وعادوا خائبين . ونكصوا هائبين . واستأنفوا مكيدة اخرى .

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موثقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشملي نبات الخل الاسد والعرين . (فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) [الصفحات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول . جاءهم الغوث في البحر . وظهرت منهم . وامارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذله . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردتهم . وصدتهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المذشبة من كاس نجيعها للطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصائبهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم مااصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعة . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو وببركات الاستمسك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بنشر نجاحها ويسر ما في اقتراحها سافرة .

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه
قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع
وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لا قبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع
الجدفل وقد حفل . فظهر انه ان لم يهان اقام واستقبل . ولا شر
استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى
مراده . والبحر قد ان أن يمنع راكبه ، ويسد بمالامواج غواربه ،
فان هانتم وطا وطمع تبعه هواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت
هنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ،
وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولا تغفروا بهذه العساكر
المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتاء ، ونحن
اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجبوا
رغبتي . واصيبوا محبتي ، وادعوني العهد ودعوني . وادعوني
وودعوني ، فاحضر السلطان امرأه المشاورين وشاورهم في
الامر ، واطهرهم على السر ، واستطلع ما عندهم من الرأي ، وسرد
لهم الحديث من المبادئ الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في
قوه ، وفي ترقب نصره مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين
وكرم ومروه ، وقد افنا الجهاد . وافينا به المراد ، والقطام عن
المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل
ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ،
واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل فقيم
الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الاجل ، ومن الف الحلية
كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورأيي ، واقدم
بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي . وما لنا بطالب البطالة .
فارغب عن استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشيء فأنا
الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر
على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولا يستمر الاماتمره
من الامر . ولا يستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حق نفسك من عادة السعادة . و ارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحة . والاعتناء بالوسيلة الناجحة والاذن من العطله . والعزوف للعزله . وانك تجد من نفسك القوة والاستمساك . و يقيذك يعرفك بالالاماني الادراك . فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت . والرعايا فانها تعكست وتعالتت . والاجناد فانها نصبت ووصبت . والجياد فانها عطلت وعطبت . وقد اعوزت العلوفات . وعزت الاقوات . وبعدت عنا العمارات . وغلت الغلات . ولاجلب الا من اليبار المصرية . مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية . وهذا الاجتماع مظنة التفريق . ولايدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد منقطعة . والجواد ممتنع . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطب . والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السعر . وهؤلاء الفرنج اذا يؤسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاد المنه . وصبروا على المنية في طريق الامنيه . وابوا في الاقبال على لينهم قبول الدنيه . والصواب ان نقبل من الله الاية التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ، ٦١) . وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها . وتكثر في مدة الهدنة غلاتها واثمارها . وتستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان السلم ومدتها . فاذا عادت أيام الحرب عدنا . وقد استظهرنا وزدنا . ووجدنا القوت والعلف . وعدمنا المشاق والكلف . ففي ايام السلم نستعد للحرب . ونستجد ادوات الطعن والضرب . وليس ذلك تركا للعبادة . وانما هو للاستجداء والاستجداء والاستجاده . على ان الفرنج لا يفون . وعلى عهدهم لا يهفون . فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا . وقد شقوا بما لقوا . وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة . وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي . واجاب الى ما اقتضي . وكانت قد بقيت بين العسكريين منزلة واحدة . والعجاجات على الطلائع متعاقدة . فلو رحلنا رحلناهم . وعلى الهلك احلناهم . لكن مراد الله غلب . واجيب ملك الانكثير من الصلح الى ما طلب . فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وناطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح ذوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وما هو لا يزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من النفاذس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . وبدوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحذف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فذكصوا على اعقابهم . وذكسوا ماضربوه من ارائهم وارايبهم . وعلموا عقبي ماجهلوهم . وقطعوا من اسباب العزم ما وصلوه . وذكثوا من عقد القصد ما برموه . وشرعوا في أمر آخر توههموه . ومضوا واستأنفوا الاستعداد . واستنهبوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحامية . ورجال الصبر على النار الحامية . ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصال الصلادم المقودة . مستمطري
شأبيب الانابيب . مستنفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على
سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه .
الله لا وليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نذى خبرهم . وطار
شرهم . وخيف ضرهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى
مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخاوصه .
ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف
عذوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بغزوته اليها
عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته
وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا .
وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها
وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما
صين من الغلال والعدد والمال الدثر للزخر . وطلب أهل القلعة الامان
من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول
اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة
مائة رجل من محدثيهم . وكذودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير
والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما
أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم
للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره
من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافة حافلة . وتواردت في
الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافة . فاجرى الخادم على الرهائن
حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى
القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من
دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد
لنيه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر .
واقسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب
الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر .
وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما
زالت رسالهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن
الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هزله الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لا يجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة وألباؤها . وأشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للإسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعازل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الأمان على الأمان التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا؛ عسقلان. وغزة. والداروم. ويبنى. ولد. وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والأماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا؛ بيافا. وعكا. وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا بيارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاطوار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها. وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر بيارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاهد المعازل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر أمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عانة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولا يرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خسارة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تاما .
وتفريقا لجمع الكفار لشمّل النصر عليهم ضامّا . فهي سلام أنكى من
الحرب فيهم . وانها تقصبيهم من هذه الديار بل تنفيهم . وإلى متى
تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد
المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على
التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من ألوفه سوى
مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه واذفقوه .
وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد
أن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم
ناهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوة . واستكثر
من نجده ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة
الاشياء . وتفرق جمع الكفر وباح جمره . وأمن ذكره ومكره .
وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر
فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام
الاسور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنجة كافة في زيارة
قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما
عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق .
وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي
وجبناه مع الصلح . ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى
الصبح . وكان ملك الانكثير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا
لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك
ويصاب سوله . فقبل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة
الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثارة . ومن زار برد قلبه .
وتذفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه
الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصلون
إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد
الوفود . ولا نبذل من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكثير مرضا
ألهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر
وأقلع . وعجل في مفارقتة وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهو
الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسييس من أبيه
وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الآخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر
بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الازواد والنفقات .
والثياب والكسوات . فقبل له لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته
بحجك وعرفته بنهجك . حتى لا يظن بك أمر انت منه برىء ويعلم أن
قصدك في الماضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافاق . ثم
هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مرر حبلها
المنتكث . وهذه المعازل التي في الثغور ، حفظها من أهم الامور .
ولا يغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهم .
ومليء البغي إهابهم . فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من
العزم ما عقده . واطفاؤا من نار جده فيه ما وقده . فشرع في ترتيب
قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهنيب عمله ومعاملته . وكان
الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهو تركي يقتدى به في
زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين . وحيله في
الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا من الولاية
لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصدره .
وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهديك في
الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال
الكفاية والشهامة والبيانة فيك . فتول أخذنا بالحزم في تثبيتك

وتأنيك . وترويك وتأنيك . وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج إليها وتولاها . وأمر بنقل الغلات من الإلقاء لتقوية الفلاحين . وإعانة المقطعين ، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وأن سؤاله عنها بإجابة سؤلهم وسرلهم . فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسة . وردها بنية على التقوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمار ستانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبر الاحوال . وأقام بعدله الاعتدال . وأفاض الفضل والافضال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركة للدوية . بالهمة الروية والعزمة القوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرزق إلى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها . واضحك بالعدل والاحسان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمات سننها الضائرة .

وأصفي بها شرعة الشريعة . وأصفي ظلال الرعاية للرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبيتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسة . ورتعنا في مروجها الانيسية . وأصبحنا راجلين . ونزلنا ضحوة على جبين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقل بعد ايام الى رحمة الواحد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة الى بيسان . وأزال حلول السلطان عنها البؤس واشاع الاحسان . وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلها لوثوقه مستودع الامانة . والصواب بناء هذه وتخریب قلعة كوكب . ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب . ووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهر ظهرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصدوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر . وتلقيناه بالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء . وتواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صدف تحت الجبل . وصعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلال . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضیعة يقال لها الحبش . وهي عامرة محدوية على سكانها . كأنها العش ، وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين . وبيتنا باحوال قلعتها معتنين . واصبح السلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قلة قلعتها ولا سباب اختلالها مميّطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته منوطة . وسداها بسداه منوطة . ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين . ونزلنا من الجبل . وبيتنا على عين الذهب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج عيون . وجلس السلطان على عادته معنا في تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا الاسير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مرج تلافيا

مقابل مرج القنعة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلافينا فخيما على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الأربعاء وخيما بناحية قب الياس وقد اصحرننا إلى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاسعار ، وبخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت ، وانجز بالوصول إليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مرج قلميطية بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والايذاء .

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بيمنند
الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر
سامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليهما عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وسماحة اريب وسجاجة لبيب ، وفتحت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسبلها وما قيد اطلاقها وقدرى واضاف ، وادنى القسطاف ، واصفى العطف ، وتلطف في الهدايا وأهدى اللطاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجد واقنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملايس ، وبذل النفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابحار المناقب العرائس ، وظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

على كرم الشـيـمـه ، و مـن الجـوـخ الـافـرـنجـية والـثـيـاب
البـنـديـقيـة ، والـهـنـايـات الفـضـيـة والـاكـواب الـلـجـيـنيـة ، والـسـرـوج
والـجـم ، والـأكـسـيـة والـحـزـم ، والمـهـامـيز والمـلـالـيـط
والـغـفـافـير ، والعـرـوض والـدراهم والـدنـانـير ، فـفـرـق مـن ذلـك ما
جـمـعه ٠ ورفـع الـى كل مـنـه ما اسـمـى قـدره ورفـعه . وما انـفـصل عـنه
الـاكـل مواصـل بـشـكره ، مسـاجـل امـثـاله بـذكـره ، مـضـوع كل ناد
للـكـرام بـذـشره ، وقام بالـسلطان وبكل مـن صـحـبه مـدة مـقامه ، واعـجب
واعـجز ما صـدق باهـتـمـامه .

ذكر وصول الابرذس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصال ، وذلك في يوم السبت
الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابرذس الانطاكي قد
وصل الى الخدمة ، مستمسا بحمل العصمه . داخلا حاكم
الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام وما ارتحل ، وانن للابرذس في
الدخول ، وشرفه في حضرته بالثول ، وقربه وأدسه ، ورفع
مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وسكن من روع روعه
الحشاشة ، وكان معه من مقدمي رسانه اربعة عشر
بارونيا ، وهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم
العطاء ، وابدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة
بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصحابه بمبار ، واعجب به
استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فلا جرم تلقاه بكل
احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافق مراد السلطان انه
بمراده وافقه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرته
مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بسات بالمخيم على
البقاع ، واحضرنا ذلك الليلة في نادي فضله للمؤانسة والامتناع •
وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهزنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنيينا
قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل
والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه
ومسكنه ارتياحا والتمناحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر
وبتنا على مرج يبوس ،، وقد شرح الله الصدر واطباب
النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق للتلقي
والاستقبال ، واهلوا بقدومنا أسباب الاحتفاء
والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين
اليها مسالكها ومزاهبها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا
بالعرابة ، وجرى المتلقون في التحففي بالتحف على
العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت
اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل
من المدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا استبشارا وفرحا
وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد
طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقرت
بفواضله الألسن ، وزاعت اسرار السرور ، ورقرت حبرات
الحبور ، وطابت الأنفوس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره
وتجلت المكارم ، وافترت المباسم وهنيت بموسمه
المواسم ، وتهويت التهاني ، وهيت الأمانى ، وغنت المغاني ولنت
المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت
الأحوال ، وتملت الآمال ، وراج الرجاء ، وارجت
الأرجاء ، وفاض الجود • واستفاضت السعود • وعم العدل • وتم
الفضل • واشرقت الافاق • وأفلق الاشرار • وكرم
الفضلاء ، وفضل الكرماء . وحل في القلعة حلول الشمس في
برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المناث في فجها
بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على
وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيتها ، واستجدت عادات
انجاز عادات الجوائز لاستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف
العافي ، وتمت على السن الانام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان
في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب
واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر
خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى
طبرية ، ولقي من السلطان اللطاف الخفية ، ووصل معه الى
دمشق واقام الى ان خلاص اصحابه من الأسر ، وتوجه الى
مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في
اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله
وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسد الممالك
الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه
ويرقبونه ، وهو يعدم بانحسار الشتاء واذكساره ، وابتسام ثغر
الربيع واقتزاره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاج سرح سلاح
اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء
انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق
اشجاره ، وانفتاح كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه .
وانتظام مذكوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه
سفوره ، واجتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق
اقصابه ، والاتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق
شقائقه ، وانعقاد عقائقه ، واشتغال شمائله ، واقتبال
قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صباه ، وتورد وجنات
جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتندسم ضمير ضميراته ، وتصور
خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار
خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتقف
حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا
طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العنديل ، وتعطر
عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني اللجيني . وحلى النضير
النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري
الناري ، ونجم في الروض النجم السماوي المائي ، وابتسم الثغر
الاقاحي ، وتذسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري
الشجري ، وتأرج الذشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى
الذئ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ،
وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت ، الصبا في
محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الأصحاب
الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الايمان كل
مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت
القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت
الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض أهل الجد وجد
النهوض ، وفاضت المنابع ونبعث الفيوض ، وضرب السراوق
السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن
يشمل ، والتجع يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجد
يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي . والوني يعزل ، ويعم العدل مع
اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتدفس الا بحديث الطاعة من يحدث
نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان
مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه
والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشيت حديد . والجبال قد اشتعلت
رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطـ وادها
جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب
ناكت ، والهدوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن
حزين ، والاسماء سباط ، وللشاص نشاط ، وللصحاب
حساب ، وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، وللبرد من ثلجه
برد . وللمطر في نهجه طرد ، وللغيث عيث ، وللوحل ريث ، وكانون
قد اكن الربا . وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبه
مشبوبة ، وحددود الذكب مـذروبه ، وخددود التـرب
مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتـهـز في العمر
للفرص ، مبتـز بالبـزاة والصـقـور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يذني أجل الحجل
وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض
انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، وأكثر الجلوس
بدمشق في دار العدل ، وأغزر لمنتجيه در الفصل . وحكم
وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل
اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووافد
وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقنى واجدى واسدى ، وأولى
وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم
الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل
الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وما كان احسن الى
الحق اصغاه ، وأسرع للباطل إلفاه . ولكل ذي فضل منه حظ .
ولكل ذي حفظ منه حفظ . ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق
الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سبق ، ولكل سهم عنده
فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده
أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه
جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل
نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظالم ري ، ولكل حاتم ورد
هني ، فما أسح مزنه ، وما أصح وزنه ، وما أسمع يده ، وما أوضح
جده ، وما أعلى جده . وما أجد علاه ، وما أجدى كفه وما أكفى
جده ، وما أكثر حياهه وأغزر حياه ، وأرج رباه . وأبلغ محياه .
وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن
مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف
شعبان .

كان له عشرة من البنين قولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لناد
امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل
بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى
ما في يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد
استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي
سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس ، وصور له انه يريد ان يستولي على الملك ، ويذفر بانتهاج المسالك وانتظام السلك ، وساعده صاحب ارزكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد بياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فاستصحبه صاحب ارزكان ، وأوقع عليه في الطريق التركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ، وأنه عن حسن بن غفراس سلا ، ساق اليه ، وأخنى عليه ، وبذل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوي بعزته ، وعز بقوته ، وقال لوالده انا بين يديك ، واشفق عليك ، وأذفد أوامرك ، وأوفر مآثرك ، وقتل أمراء كاندو لأبيه ، وألزم خدمته من لا يشتهي ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وقرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى ، وقد مضى حديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهم في هـن الاسلام ، واستصحب معه والده الى قيسارية ولقصر اخيه نور الدين سلطان شاه وحصره ، وأظهر انه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصدف مفارقا للولد ، وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الامكنة ، وقد استبد بالسلطنة ، وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل من بلد الى بلد ، ومن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كخسرو صاحب برغلو فقواه وأزره وضـافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله وجاء به الى قونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه من المرض الثقيل في خفة ، حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلّهم ، واستمالهم
وتألفهم ، ثم أظهر لهم وفاة أبيه وأنه وارث ملكه ومذوليه ، وقوي
على قطب الدين ملكشاه أخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى
المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة
والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم
المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور
العظام ، وبؤهله للرسائل وأخذ الموثيق والعهود ، وتولى الولايات
والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها إليه ، وعول فيها عليه ، وما برح
بها حتى أنعم بها على صاحب أربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس
الدين فأرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ، ليصلح بينهم
ويعيد أمرهم إلى سداه ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه
مستتجة مستحسنة . وعاد ووصل إلى ملطية ، وقد استكمل من
عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من
السنة ، وانتقل إلى الله بأعماله الحسنة .

وبدلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في
داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع
أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسال الأمصار
مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني
جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه
قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته
راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمناجح
ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء
السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء
العزائم ، وتشديد الدعائم وتقرير العظام ، والاهتمام بمصالح
الاسلام ، ومناجح الانام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم
من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضلاء ، وموالاة الأولياء ، ومصافاة الأصفياء ، واعداء
المهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخرج عن حكم
الجلد ، وبرز الى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر
يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معه
أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة
الشرقية ، وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ، ثم عاد يوم
الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافق ذلك عود
الحاج الشامي فخرج للتلقي ، وسعاداته في الترقى ، ولما لقي
الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وسألهم
عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم
من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها
وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل
من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقيه بالاكرام وأنزله في كنف
الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر في مجلس عادته ، ومجلى
سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من
الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحدثه ، ثم صلى به وبنا
إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا بأحسانه مغتبطين ، وبامتنانه
مرتبطين ، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ، ننتظر
خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضل
ان يجلس موضعه على الطعام ، فجاء وتصدر وتربع في
دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطينا من تلك الحال وتفلنا بحد
ذلك الفسأل ، ودخلنا اليه ليلة الأحد للعيادة ، ومـرضه في
الزيادة ، وتوفي بكرة الأربعاء السابع والعشرين ، ونقله الله في
دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم
بغروب شمس فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادي ، وفاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب
الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الأمن وخاب الأمل ، وقنط
السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، ونكر المعروف ودفن
بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام
صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده
وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لأفـرق بين الدجى
والضحى ، ولأجد قلبي من سـقم الهم وسـكره صـبح
ولاصحا ، وحالت حالي وزال ادلاي ، وبطل حقـي واتسع
خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي
وبقيت المعارف متذكـره والمطـالع مـكفـهـرة ، والعيون
شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسـه ، والوجوه عابـسة
وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة
خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف
منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضـن الاحـلاف بـي
ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر
بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي
وفقره ، والى عطل الملك ومحلـه من غـزارة حلب دري ونضارة حلي
دري ، فكـتبـت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب
ووشعتها ، وجلت الرتب ووسعتها ، وهزنت اليراعة ٠ وأغرزت
البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة
صغيرة ، وأبقى له مآثر أثرية ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في
خزائنه سوى ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً ، فإنه كان باخراج
ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مفرماً ، وكان يجود
بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزائنه بالدحوالات عن
الوصول ، فإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولا جبهه أحد بالرد اذا سألته ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى وأن كان يبسطى . وإنه يصيبه بالنوال ولا يخطى ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الألاء وادناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، ونهبوا وما أبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والبأس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبهرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وبرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتاب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأبنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جريدك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففصل ووصل . وأحسن وعدل . وقضى وحكم . وامضى وأحكم .
وأحضر نواب ديوانه في أيوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقي إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . وأضاف الطارف
عندي من العرف الى التالد . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب .
ولسواء كاتب ونائب . وما احوجني في الذوال الى السؤال . وأغواني
عن الارسال . ولم تفقر مقاصدي ووسائلتي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما أغرب بدار فواضله حلول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنة . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حاذئين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراء . أهل الرأي واللب .
وجهاز جيشا جائشا . وبعثا لعثار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمرقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهزم منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد اعود والعود أحمد .
وسياتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابوالحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفذت في الرجال نخائره . ورتب الأمور اجمال ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بذوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدا وملا بالبشر المتبلج

والذشر المتأرجح الملا . وهذب وانهب . ورغب وارهب . ورتب وربت
واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد
المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ
وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بدميته سر حمايته
واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر .
وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس .
واشاع البر واعاش . واشبع الجياح وروى العطاش . واستخلص
ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض .
وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط .
وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير
اللا حظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ .
وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . واهمى الرواعف . وحقق
الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السالك . وجلس في دار
العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وحزم ، وعزم والتزم ، وزاد
وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى
القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا .
واستفاض بطهارة السجايا . وأوى اليه اخوته . وضم جماعته .
وجهاز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكريا
مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل .
وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع .
وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة
الافضلية داخلية . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متداصلة .
وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد
ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . ولسر صدقه ونشر صداقته منيعا
مشيعا . فأحلى له الملك الافضل جنى شهيا واحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياء بكل ما سافر عن سفور مدونة القلب .
ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعليك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن
فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضلي تابعا .
فأبناءه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه وأسماه . وأواه وأساه .
فتأكدت بينهم القرابة المتشججه . وتشبكت الخدمة المتدسججه .
وتمهدت الأصرة الممتزجة . وفتحت أبواب الألفة المرتجة . وتوافقوا
على التوافق . وتصادقوا على التصديق . وتعاضدوا على الأخذ
بالتساعد . وتعاهدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعقلها . وكرائم البلاد
وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازي . وهو برجachte
وسماحته للطود والجود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقطارها
واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحماتها . وبماء العدل
رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهزاعطاف العطاء . ورحب
لوراده . ورواده رحابه . وسحب بحيا الاحياء سحابه . وابرت
مبراته . واثرت مآثراته . وسح وصح غيثه وغيائه . ورعى رعيته
فشبعته ورويت ظمأؤه وغرائه . وزخرت أمواجه . وزهرت بثواقب
المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صبا صباحه .
وعزت بسيرته كتب التواريخ . وعزى قلمه وسبقه الى عطارده .
والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . واثر من امره النفاذ .
وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة
الخواص . ودمهد لسلطانه الأساس . واطرد لاحسانه القياس .
ووحد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشا الى جدواه المجتدي
وعاش . وفرض القرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى
القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصالح

فارطها . ومالك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع .
وخرق ورتق . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والنفاق ودمغ . وشفى
واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب
وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم
الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن
اللهو . وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر
ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكاييد وأوهى . ووفى للوفى . وصفا
للصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك
الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . وبخل
في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهوناصر الدين محمد بن
الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب
وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه .
وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السياسة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه
ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى
الى حصنه بالكرك للاستراحه ، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية
المتاحة . فتابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب .
فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث
ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لبثا . ورحل طالبا
لبلاله بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان
جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما
ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى
الفرات . وجد مما خافه دلائل الفتريات . فأقام بقلعة جعبر . ولم
يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة
المستدامة . وسير الى الولايات الولاية . ووصى برعاياه الرعا .

واستناب في؛ ميا فارقين، وحاني، وسميساط، وحران، والرها . وشحنها
بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه .
جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم
العدا أنه في خف فخذوا وعرضوا وصدفوا . وما كفاهم ما هم فيه
فهموا وما كفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم
وهلكتهم . وذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمامات وما قدر الله لجمعهم من الاشقات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل
الذشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في الذوب
الخمسة بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر
العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب
الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، مارين ، وطار وطاش .
وارتاش وانتاش . وخلص من خلاط الاوشاب والاباش . فبينما هو
في اتم غرور . وانم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد
عين . واغفل قلب . وانهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر
مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدركه داخل الى
مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له
ونقله بشهادته الى جنته عليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر
جمادى الاولى من هذه السنة . وكان ايامه كانت احلاما رؤيت في
السنة . واول بادىء بالخروج متولى مارين فانه مرد . وحشد
المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا
الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مادين . حين كان امله
عليه مارين . فلما صالحهم استبقاه واستنياه . وأضافه الى نائبه
بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن
زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجدفل الحفل . وأضافه اخوه
عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا
الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفذهم . ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتتم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدمه منتظر . واما المواصلة فانهم ما اسرعوا بل ابطأوا ، وما اصابوا بل اخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافية . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجذبوا وتجبذوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجذوده . واعلامه وبذوده . ومساعديه وسعوديه . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجي وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تفليل غروب القوم وتقليلهم . وحرار تأملهم وخار تأميلهم . وجفل رألهم ورتع رغيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ما الم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولن وذوق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصافح له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خاذوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلال الضو . وعلا الذو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث
القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم
الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك
العادل منتصفا رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت
اليدين البيضاء فيها للاملاك الظاهر على ما ذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد
الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى
نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم نخائرها . فجاءت الرسل
العمانية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلم عن
الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم وما داري .
فبسط عذره . وقبض نذره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل
وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه
وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب اليها ان
اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب
حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكثر
المعروف بالهزار بيناري . فلم يرضوا باياله لخلاط ولم يروه كفروا
لتلك الهدى . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا
الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامتد الحصر يمتد . فعاد الى
حران والرهاء واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع
امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في آخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين الذين حالوا عن
الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن
خلق التلافي الى الائتلاف . وبددوا بالانتظام في سلك الفدر شمل
الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم .
وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا
زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤمنين صلوات الله عليه
ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها .
واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيدوا اذ لم يصيدوا
ببصائرهم وابصارهم . وبخلوا في دائرة السوء وخرجوا من
بيارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب
ماربين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين .
ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل
سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد .
واثقا منهم بالموثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في
خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه
معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره .
فلما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع .
وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بذو
اخيه في الجنود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود وامد الاخ الملك
الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . ونذب
الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضه . وسار معه عسكره الذي
بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من
حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . وانفق في
العساكر وجهازها . وذكر عدة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة
الفريضة وانتهازها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت
السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ،
وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . وظهر الله قبل الاجتماع معجز
اياته في اهل الشمام . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ،
وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ،
وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على
اعقابهم ناكسين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارايبهم ناقصين
واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعانة خارقة . وقدرة
لاقدار الاولياء للسعانة خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم
وماقابلوا . وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظلة للمتفكرين .
وعلم صاحب ماربين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبليت له صفحة الصفع ، وعادت له بعد غاية الخسر عادة الربح ، واجري على القاعة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وبيعنها المستدقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وييمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . ومالسعادة الالمن شملته سعودها . ومالجدالالمن وصله جودها ، ومالكرامة الالمن كرمته عنده بالوفاء عهدها ، ومالعصمة الالمن لزمته في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح مالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبه معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والذكية الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلمة والبلية البارية . والواقعة الرائعة . والصدمة
الصادعة . والحدثه اللافحة . والروعة الفايحة . والغمة التي غامت
بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام .
فقد عدت المطالع ضياعها . والمشارع صفاءها والثغور سداها .
والامور سداها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها
والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه سفورها . والصدور
انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضلت
العلياء محبتها . واهتدى الضلال الى الهدى . وأقوى نادي
الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنن . وأمرت
مجاني المنى . وخفيت مناهج المناجح . وعطلت مناهل المنائح .
وعميت مذاهب المواهب . واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابواب
الافتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمست
زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضطربت الدهياء وبطلت
مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد .
وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء .
وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجراه الله من قضائه
المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر
روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه .
فقد عظم الخطب وجل . وحل عرى الجلد حين حل . وثلم غرب
الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضلوع . وبت
حبل اللاجين . وشت شمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية
حبالها رثا . وحبائرها غثا . وعقودها انكاث . وسهولها
أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومواهبها احداث .
وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها
ندم . ووجودها عدم . وبقاؤها فناء . ونعيمها بلاء . وراحتها
عناء . ومالكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حرب
وصلحها فتك . ووفائها غدر . ووفاقها مكر . وعرفها نكر .
ووصلها هجر . وخيرها شر . ونفعها ضر . وجبرها كسر .
ومتاعها قليل . وباعها في التناول طويل . ومالعتها مقليل . ولا في
ظلمها مقليل . ولا ارب فيها لأريب . ولا الباب فيها للبيب . فان

ظليها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيتها خدع . وحليها عطل . وسعيها زلل . وإجداؤها إجداب . وإعطائها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهددها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمنتها عيث وعيث . وترايبها تراث . وللمسكنها اساس ولاساكنها اثاث . ولاكيدها في كيدها يد . وللمكرها في جد مكرها جدد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف أنها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الأعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عاذفا . ومن ملكها أنفا . وعن مالها متعاففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتأييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ - ٤١) ووقف حياته على أحياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . وأشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص لله عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقته وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . وهب لاعطاف الدولة للتباهي يملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فزال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره اللين نهجا أعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها بيارها وبلادها . واهى على الكفرة معاقد معاقبها . وطال بحقه على

باطلها . واقصى عن المسجد الاقصى مـدـنـسـيـه . وازال عنه ايدي
غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعد
عنها اجناس الانجاس . وقهر الكفر وخذله . ونصر اليمان
واخذله . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محاسن ايامه
سنة بعد سنة . وتعذلت بعدله الجوانح . وتذلت بيباسه الجوامح .
ودانت وبننت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحكمه الاماني
العاصية . وماكنت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص
والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت في الشرق والغرب مراسمه .
وقامت بالحمد والشكر مواسمه . ووفت بامل الداني والقاصي
والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه
امله . وولى في كل اقليم من يعمل لله في العدل والاحسان عمله . ثم
توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر .
صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا
من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مرتويا من
صوب الصواب . مبهيجا بنصرة النعيم . متارجا بعرف نسيم
التسليم . وما كان ابهج الايام بايامه . والاعصار بمزايينه .
والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والافاق بسني احسانه .
وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده .
فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السماح فلا جدوى ولا جنى .
وغاض البحر فلا غنى . وهو الطود فلا ثبات . وذوى الروض فلا
نبات . وهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جد . وغلب الكمد
فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولا قوة ولا عضد . إنا لله وإنا اليه
راجعون . وأمره تابعون ولحكمه طائعون . ولا راد لارادته .
ولا صاد لمشيئته . ولا صاـدـفـلـصـاـدـفـقـضـائـه . ولا صارف لصرف
بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابع تغور .
والصنائع تبور . والاحوال تحول . والاهوال تهول . واضواء
المعارف لاتضي . وافياء العواطف لاتفي . وزهر السماء لاتشرق .
وازهار الروض لاتؤنق . ومعاقـد الاسـلام تهـي . وميامن الايام
تنتهي . لولا ان الله تدارك الارماق بألطافة . وتلافى الامال
باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من استمرارها على الائام . واستقرارها في النظام . واستدراها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شمسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها الذواظر عن نور الابصار . وانفتاح حدائقها الذواضر عن زوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتساكت . وسكنت القلوب الراجعة وانست . وسكنت الالسنه المرجفة وخرست . وانارت الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجعة والافكار المنقسمة . وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلي الغسق . وتجلي القلق . واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر . وشدد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة . والمتابعة والمشايعه في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتم . ووصل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع على عابة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من كل شاغل باله ورفه اسراره . وراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصدمة الاولى وبء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طالبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكاييد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم . وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وانفذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنيا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العرب ما استنفذ وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الآخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لا يظن انه انفرد بسوله . وقصد مداراة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني باذشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهاال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرقه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو وقلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللارض متقبل . وبالطاعة مائل . وللإستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صانع . وهو يمت بما قدمه من الموات . واسأله من الخدمات ونخره نخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذة عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمنا الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وقاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق او ان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضلله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرحه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه آية الآياه وألم بألم الأمل . وأحال الحللى الى العطل . وحلا عن النهل والعلل . وانهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشيت الا لتخدم . وشام حدود العتاة على أنها ماشيتم الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الاوتار بتأثيره وتأثيره . وأخرج أهل الذفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلثما من عند أيامها ومسدد انعامها بالدرع الأقوى الأوقى . فانه لا يحتفل بحقول

أخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ
لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله
بأن الوالد السعيد . الشنيد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل
أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستقيما
في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز به
المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشغل الديني الذي
يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفنة
العانية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها
للمجتدين الدعوة الهابية . ولكم أخرس دعاة الأدعاء وحرس
ولاياته الأولياء وكانت يكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم
أقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بممالك
الدار العزيزة وعبيدها عبايد، وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها
شأبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها
أنابيب وأسعرها من كماء الوغى وحماة الورى بمساير وأنجدها
بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بذشر
النصر وتضوع . وعقوده ترووق في سلك الملك وتروع ومصر بل
الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة، والانجاد والأغوار في نظر عزمه
واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج
عزماته . وتوفره على العبودية لملك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر
حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا
على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محيا مواسم
الذقى . مسنيا سنن الشرع وفروضة مديما بأعباء الطاعة بقدر
الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر
طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلابان وقصم
اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد
الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على
يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة
ناحجة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة. وسيرته حسنة
وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة . وسيرته ظاهرة . وختم الله
له بالسعادة، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرايه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه
حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محسوط . ووزره
محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . ومملكه
بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب
مرتبة . والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال
حالية . والأعمال راضية . والمصالح مصنونة . والمناجح
مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد
متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب
مصدودة . وأصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابذة . وماترك
أمرا بعده غير مستقيم ولا نهجا غير قويم ، ولا خالف لمن خلفه
ما يحتاج الى تقريبه وتقديره . ولا أبقي لمن بقي له ما يفتقر الى ترتيبه
وتدبيره . وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية
داخل ، وبمخرجها الرابع الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية
الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستعداد
بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على
اساس وصاياها . ولا مضىيت العوائد الا على قياس
سجايها ، ولا أبرم الا ما عقده ، ولا أحكم الا ما أكله . واقتفيت آثاره ،
واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . واتمرت في ائتمار الاوامر
الشريفة وأوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان
الله ناصره . وما يفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من
الفخار . وبعثه من الاثنا الغزار . ونعشه برفعة من
العتار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولا يتسم بالملك الا من يتسامى
بأنه لها مملوك . ولا يوصل الى السعادة الأبدية الا مسلك الى
رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالماليك
أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار
على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على
الرب . مغلول بقيد السلم عن الحرب . فان الله أجرى المشركين
مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية
بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون
اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركزوز ، والسوء في

غرائزهم مغرور ، والعبد أخذ بالحزم ، عائد بتأييد الله في العزم متيقظ لمخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل إمكان ، مستجد كل ما يفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهره المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجهته منها بسفوره . ظاهر بقوة من أيديها وأياها قوي بظهوره . مدد بماله من الموات الأكية . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبولة . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وأن فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحمد والاستخلاص ، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والدول . عول على القاضي ضياء الدين في المثل بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاه الى مناجح أماله . والسفارة فيما يسافر عن صبح المرائد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفيه بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباب . وقد فاضله فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجاهه واستنجاهه عليه . ولا زالت أيادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوقا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الاعداء بانداء الآجال وفي الأولياء بأجراء الارزاق . وماعقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض ماله بمثله . وزاده من فضله . وحسب ماو به من الخيل العرب والاكاديش الجياد ، للحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذنزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم اذفضالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجر . وأكديش طمر وذلك غير ما أطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال . ولم يكن له فرس يركبه الا وهو - وهووب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه . ومحاضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده . فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعير في الجهاد اجتهدا ، وكان لا يلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخالواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان مداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية . والاسباب المرضية والادلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الاخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . نقيا تقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب أملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشغلا بمهمات . فلما وصل سأل عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجؤا والحو . وضنوا باطلاقه وشدوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

مذقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن مذقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفرى معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين . أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واره كأنه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما اذكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صافوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاة والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما بنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر أثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضممار يقول : قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار .

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبيت الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعينت بهم خلاقا مني ورسمنا
فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت افكر وأريد النظر اليه وأكرر فسألني
ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلبي بقسمة
اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى
به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه
ريها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون
في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في
انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات
بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها
ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا افى توقيعا بخطي
علم فيه . ولم يقف بذشره على سر مطاويه . الفا بما افه من
صحتي ومناصحتي . وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتي .
وكان يأمرني باجابة كتب الملوكة واصحاب الاطراف عن كتبهم في
حالي سالمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب
متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت
له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما
تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه
الاصابة فقد كنت مطلعاً على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني
مرانه . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمدانة الأغراض
ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل
القبول واهل الأعراض . فكم اصالح قلبي بينه وبين من
عاداه . وراض الجامع من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى
الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان
مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد .
ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذا حل الحلية . وادعى
حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي
انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح
قلمي أجد وأحد وافتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الا سلامية
الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال
ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا
محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا
وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها
عنده الا من دواة الشبه . وتجذبت طرق الشبه وتركت المحلاة
مخلاه . وعادت الشبهية مجتباة مجتناه . وكان محافظا على
الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها
ومسنوناتها . فما رأيت صلي الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من
ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من
حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنباً للآثم . وكنت للآثم
اياهم يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان
ياخذ بالشرع ويعطي به . ويذوق من حل المال وطيبه . ويجود
بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جنة الا
ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصغيا . ولم يزل
أقوله ملفيا . فما عنده منجاء لمن جاء بيمين المنجمين ولا قبول للمنطق
المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل
الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير
ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . وأقبل على
محكم امره واعرض عن مظان الاشتباه . فكلم فل سفه ذي
الفلسفة . ودل بمعرفه في المعرفة . وما زال ناصرا للتوحيد . قاهرا
جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سني السنه . مستحليا جني
الجنة . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا
يبنى أهل التنزيه . ويقصي أهل التشبيه . ويديم استفاة فقه
الفقيه . واستزادة نباهة الذبيه . ووجهة الوجية . فالعاملون في
عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

في برسعيه . والاسلام في حماية حميته . والدين في ادالة دولته .
وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومادة المودة له وافية بدوفائه .
وقامت بعده طريرة طريه . ومن العار عريه ، وببر البرية من
الشائبات والشائبات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه .
فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضلها وظاهرها . وفخرت
بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتجلت الآفاق وتأرجت
بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها .
والسما في زواهرها . والحمد لله مجري الاقدار ومصفي
الاكدار ، ومدير الليل والنهار ، ومدير الايراد والاصدار ، وسلم
تسليما كثيرا أمين

obeikandi.com

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

- (١) مطموس بالأصل .
- (٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
- (٣) مطموس بالأصل
- (٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
- (٥) طمس بالأصل بثلاثة أسطر .
- (٦) مطموس بالأصل .
- (٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لا يعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق للمرحوم المختار السوسي أن أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بـالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال أضاف لي لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد أبو شامة - صاحب الروضتين - التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك - انظر الروضتين : ٢ - ٧٤ - ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

- ١ - الحيلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
- ٢ - الوخش : الردىء من كل شيء ، ورئال الناس ، القاموس .
- ٣ - كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
- ٤ - طفر : قفز ، القاموس
- ٥ - الدأماء : البحر ، القاموس .
- ٦ - النهيت : الزئير . القاموس .
- ٧ - سحابة دلوخ : كثيرة الماء ، القاموس .
- ٨ - الريح تحركت فهي نؤوج ، وللريح نثيج : أي مر سريع ، القاموس .
- ٩ - بلخ : تكبر ، القاموس .
- ١٠ - بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
- ١١ - في وادي الأردن قرب عقبة أفيق .
- ١٢ - الأوام : البخان ، القاموس .
- ١٣ - السلت : القطع والاستئصال .
- ١٤ - ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
- ١٥ - البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
- ١٦ - يقق ، ابيض القاموس .
- ١٧ - طحرت العين : قذاها ، القاموس .
- ١٨ - أي تنعدم الاقوات فيها .
- ١٩ - الأمره : الأبيض ، القاموس .
- ٢٠ - أي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
- ٢١ - حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
- ٢٢ - الأطعمة الذففة : ما ليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
- ٢٣ - المنزر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
- ٢٤ - السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
- ٢٥ - الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
- ٢٦ - الحلاجل : السيد الشجاع ، القاموس .
- ٢٧ - الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
- ٢٨ - العنق سير فيه تبختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
- ٢٩ - الأرى المسل ، القاموس .
- ٣٠ - لثق يومنا : ركبت رحمة وكثر نداء ، القاموس .
- ٣١ - الأوام : العطش ، القاموس .
- ٣٢ - أمهى السمن والشراب : أكثر مائه ، وأمهى الحبيبة : أحسنها وسقاها
- الماء ، القاموس .
- ٣٣ - انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
- ٣٤ - اللوب : العطش ، واستتارة الحائم حول الماء وهو عطشان لا يصل اليه ، القاموس .
- ٣٥ - أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

- ٣٦ - الضفد : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ - رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ - السوننيق : الصدق أو الشامين ، القاموس .
٣٩ - تدفل : أزيد ، القاموس .
٤٠ - خدمة النار : شدة اشتغالها ، القاموس .
٤١ - خطأ لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ - باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ - كذا بالأصل وهو وهم فلهذا أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر ٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ - الكهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ - السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ - أي الثغرية أو المدونية .
٤٧ - الغرب : الذشاط والتماني والحنة ، القاموس .
٤٨ - السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ - الدأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ - الجماء : الغفير . النهاية لابن الأثير .
٥١ - التاريت : الإغراء بين القوم وإيقاد النار ، القاموس .
٥٢ - القونس : ما يوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ - التامور : علاقة القلب ودمه ، النهاية لابن الأثير .
٥٤ - الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ - حزا : خمن أو حزر وقدر ، القاموس .
٥٦ - ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ - المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ - الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

obeikandi.com

المحتوى

٣ - توطئة

- ٧ - من كتاب البرق الشامي
- ٧ - سنة ثلاث وثمانين
- ١٠ - ذكر سرية الافضل علي
- ١٣ - ذكر البخل الى الساحل
- ١٦ - ذكر ما اعتمده الفرنج
- ١٨ - فتح طبرية
- ٢١ - ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء
- ذكر النشاب ووصفه
- ٢٤ - ذكر يوم حطين

☆☆☆☆

- ٣٣ - كتاب الفتح المضي
- ٤٧ - ذكر ما كان بين ملك الفرنج وبين القومص من خلاف
- ٤٨ - ذكر دخول السلطان صلاح الدين الى نيار الفرنج
- ٥١ - ذكر فتح طبرية
- ٥٦ - ذكر الصليب الأعظم
- ٥٧ - ذكر فتح حصن طبرية
- ٥٧ - ذكر ما اعتمده في الاسارى النارية والاسبغارية
- ٥٨ - ذكر فتح عكا
- ٦١ - فتح عدة من البلاد
- ٦١ - فتح الناصرة وهدفورية
- ٦٢ - فتح قيسارته
- ٦٢ - فتح نابلس
- ٦٣ - فتح الفولة
- ٦٤ - فتح تبينين
- ٦٦ - فتح صيدا
- ٦٧ - فتح بيروت
- ٧٠ - فتح جبيل
- ٧١ - هلاك القومص ودخول المراكيس الى صور
- نز - فتح عسقلان
- ٧٥ - فتح القدس
- ٧٦ - كنيسة قمامة
- ٧٩ - وصف البيت المقدس

- ٧٠ - ذكر يوم الفتح
٨٦ - ذكر حالي في المود الى الخدمة
٨٧ - حال الفرنج في خروجهم من القدس
٨٩ - ما أظهر السلطان في القدس
٩٢ - وهدف الصخرة
٩٥ - محراب داود
٩٨ - ماجرى بعد فتح القدس
١٠٠ - حصار صور
١٠٥ - ما تم على الاسطول
١٠٨ - خروج الفرنج للقتال
١١٠ - مادبروه من الرأي
١١٢ - فتح حصن هونين
١١٦ - استشهاد محمود أخي جاولي
١١٨ - نزول السلطان على عكا
١١٩ - ورود رسل
١٢٠ - وصول أخو العماد
١٢٦ - رسالة الى اليمن
١٣٥ - سنة اربع وثمانين وخمسمائة
١٣٦ - حال الكرك
١٣٩ - عمارة عكا على يد قراقوش
١٤٠ - وصول رسول سلطان الروم قليج ارسلان
١٤٢ - رحيل السلطان صوب دمشق
١٤٦ - وصول عماد الدين صاحب سنجار
١٥٥ - فتح جبلة
١٥٧ - فتح اللاذقية
١٦١ - فتح صهيون
١٦٤ - فتح بكاس والشفر
١٦٦ - فتح برزية
١٧١ - فتح دريساك
١٧٢ - فتح بغراس
١٧٣ - الهنة مع انطاكية
١٧٤ - عود عماد الدين ثم عود السلطان الى دمشق
١٧٧ - فتح الكرك
١٧٨ - محاصرة صدد
١٧٩ - حصار كوكب
١٨١ - فتح كوكب
١٨٤ - سنة خمس وثمانين وخمسمائة
١٨٥ - رسول من دار الخلافة
١٨٧ - رسالة الى بغداد
١٩١ - حصار شقيف أردون
١٩٤ - اقامة السلطان بمرج عيون
١٩٧ - استشهاد عدة من أمراء العرب

- ١٩٩ - مسير الفرنج الى عكا
٢٠٥ - وقعة يوم الاربعاء
٢٠٦ - وفاة حسام الدين طمان
٢٠٧ - واقعة للعرب
٢٠٨ - الواقعة الكبرى
٢١١ - نصرة بعد كسرة
٢١٢ - رسالة الى بعض الاطراف
٢١٦ - عرض العساكر
٢١٧ - استرجاع ما نهب من الثقل
٢١٨ - مشاورات حول عكا
٢٢١ - الرحيل الى الخروية
٢٢٣ - ما جرى بعد ذلك من حوادث
٢٢٤ - وصول ملك الالمان
٢٢٥ - رسالة الى دار الخلافة
٢٢٧ - وصول الملك العادل
٢٢٩ - رسالة الى بغداد
٢٣١ - وصول الاسطول المنصور
٢٣٢ - رسائل متنوعة
٢٣٤ - تقوية عكا
٢٣٥ - حال نساء الفرنج
٢٣٨ - ما اهداه صاحب الموصل من سلاح وعتاد
٢٣٩ - ذكر صاحب سنجار
٢٤١ - وصول رسول سلطان المعجم
٢٤٣ - وقعة الرمل
٢٤٤ - حال عكا
٢٤٦ - رسول من دار الخلافة
٢٤٨ - مقاتلة الافرنج عكا بالابراج
٢٥٠ - احراق الابراج الثلاثة
٢٥٣ - رسائل بشائر
٢٥٧ - تاريخ وصول الاكابر هذه السنة
٢٥٩ - كتاب الى صاحب الموصل .
٢٦٠ - وصول الاسطول من مصر
٢٦٠ - رسالة حول الاسطول
٢٦٣ - قصة ملك الالمان
٢٦٩ - رسالة الى بغداد عن ملك الالمان
٢٧٠ - كتاب استنفار
٧٢ - الواقعة العادلية
٢٧٦ - حال الفرنجة
٢٧٩ - وصول الكنديهري
٢٨١ - حريق المنجيات
٢٨٢ - وصول بطسة من بيروت
٢٨٣ - وصول بطس الغلة من مصر .

- ٢٨٤ - كتاب الى سيف الاسلام
٢٨٥ - ذكر عيسى القوام
٢٨٥ - وصول ولد ملك الالماني
٢٨٧ - برج الذبان
٢٩٠ - الكباش وحريقه
٢٩٣ - حوادث تجددت
٢٩٥ - وفاة زين الدين صاحب اربل
٢٩٧ - ذوبة رأس الماء
٣٠٠ - كتاب في المعنى
٣٠٢ - وقعة الكمين
٣٠٣ - كتاب بشرح الحال
٣٠٤ - هجوم الشتاء
٣٠٦ - كتاب الى صاحب الموصل
٣٠٧ - ما تجدد هذه السنة
٣١٢ - الشهباء هذه السنة
٣١٥ - ما تجدد من الحوادث
٣١٨ - جماعة وصلوا من عسكر الاسلام
٣١٩ - وصول ملك افرنسيس
٣٢٠ - نادرة
٣٢١ - وصول ملك الانكثير الى قبرص
٣٢٣ - قصة الرضيع
٣٢٥ - انتقال السلطان الى تل العياضية
٣٢٦ - وصول ملك الانكثير
٣٢٨ - غرق البطسة
٣٢٨ - حريق الدبابة
٣٢٩ - وقعات هذا الشهر
٣٣٣ - مفارقة المركيس القوم
٣٣٣ - من وصل من المساكر الاسلامية
٣٣٥ - ضعف عكا
٣٣٦ - كتاب الى صاحب الموصل
٣٣٨ - خروج رسل الافرنج
٣٣٩ - ضعف الثغر
٣٤١ - خروج المشطوب الى ملك الافرنسيس
٣٤١ - هرب جماعة من عكا
٣٤٢ - كتاب الى اربل
٣٤٣ - ماجرى من الحال
٣٤٥ - جماعة من العسكرية وصلوا
٣٤٦ - سقوط عكا
٣٥٢ - كتاب الى نور الدين بن قرا أرسلان
٣٥٢ - رسالة الى اربل
٣٥٦ - ماجرى عليه الحال بعد سقوط عكا
٣٥٨ - غدر ملك الانكثير بأسرى المسلمين

- ٣٦٠ - رحيل الفرنج صوب عسقلان
- ٣٦٣ - كتاب الى اربل
- ٣٦٤ - وقعة قيسارية
- ٣٦٥ - مقتل اياز الطويل
- ٣٦٦ - وقعة لعز الدين بن المقدم
- ٣٦٧ - وقعة ارسوف
- ٣٧٠ - رسالة الى بغداد
- ٣٧٢ - دخول الفرنج يافا
- ٣٧٣ - خراب عسقلان
- ٣٧٥ - كتاب الى بغداد
- ٣٧١ - ما تجدد لك الانكتير
- ٣٧٨ - نزول السلطان بالرملة
- ٣٧٩ - وقعة الكمين
- ٣٨٠ - اجتماع العادل بملك الانكتير
- ٣٨١ - الرحيل الى القدس
- ٣٨٢ - يوم عيد الاضحى بالقدس
- ٣٨٢ - وقعة الافرنج
- ٣٨٣ - عمارة القدس
- ٣٨٤ - وفاة تقي الدين عمر
- ٣٨٨ - وفاة حسام الدين عمر
- ٣٩٣ - رسائل حول القدس
- ٣٩٤ - رسالة شكر الى صاحب الموصل
- ٣٩٨ - حوادث مع الفرنج هذه السنة
- ٣٩٩ - ثلاث سرايا
- ٣٩٩ - سرية فارس الدين ميمون القصري
- ٤٠٠ - خروج المشطوب من الاسر
- ٤٠٠ - هلاك المراكيس
- ٤٠٢ - استيلاء الفرنج على الناروم
- ٤٠٤ - كيسة الفرنج عسكر مصر
- ٤٠٦ - سبب غيبة العادل والافضل
- ٤٠٧ - رحيل ملك الانكتير صوب عكا
- ٤٠٨ - نزول السلطان على يافا
- ٤١٠ - رسالة الى بغداد
- ٤١٢ - الهبة العامة
- ٤١٤ - رسالة الى بغداد عن نوبة يافا والهندة
- ٤١٧ - ماجرى بعد الصلح
- ٤١٨ - ما عزم عليه السلطان
- ٤١٩ - خروج السلطان نحو دمشق
- ٤٢١ - وصول السلطان الى بيروت ودخول صاحب انطاكية عليه
- ٤٢٣ - وصول السلطان الى دمشق
- ٤٢٩ - وفاة السلطان بدمشق
- ٤٣٠ - اولاد السلطان

- ٦٢٤٦ -

- ٤٣١ - من دولى ممالك السلطان بعم
- ٤٣٢ - ذكر من دولى دمشق
- ٤٣٤ - ذكر حلب ومن دولها
- ٤٣٥ - ذكر الملك العادل
- ٤٣٦ - الشامدون بوفاة صلاح الدين
- ٣٤٨ - رسالة باسم الافضل الى بغداد
- ٤٤٠ - ذكر سيف الاسلام باليمن
- ٤٤٥ - رسول الافضل الى دار الخلافة
- ٤٤٩ - بعض مناقب صلاح الدين
- ٤٥٦ - الحواشي والهوامش